عبد الرحمن العيسوي

لماذا أنا مسلم ؟

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة السادسة

محرم سنة ١٤١٩ هـ - ابريل سنة ١٩٩٨ م



الاهـــداء

هذه (الطبعة الرابعة) من كتابى (لماذا أنا مسلم ؟) أقدمها إلى شباب مصر الناهضة ، الذين اتجهوا إلى آداب الإسلام وشرائعه ، ليثقفوا مجتمعهم ويثقفوا مداركهم .

وهم واجدون فيه من الأمجاد ما يدفعهم إلى الاعتزاز بدينهم والفخر به ، والإيمان بأنه دين العقل والعلم والمجتمع الرفيع .

عبد الرحمن العيسوى

رمضان سنة ١٣٧٣ هـ

مـــايو سنة ١٩٥٤ م



انسانية الدعوة الاسلامية

بقلم الامام الشهيد

حسن البنـــا

فى العالم اليوم دعوات كثيرة يقوم معظمها على أساس العصبية القومية التى تستهوى قلوب الشعوب لهذا العصر (١) . فهتلر فى ألمانيا ينادى بالعصبية الآرية ، وموسولينى فى إيطاليا يهتف بالقومية اللاتينية ، ويصبغ بها إيطاليا الفاشستية ، وأتاتورك يعتز بالجنسية الطورانية ويعممها فى تركيا ، والإنجليز فى بلادهم – كما يدعون – أعرق البلاد الديموقراطية ، يعتقدون أن الدم الإنجلوسكسونى دم ممتاز لا يقاربه عنصر آخر . ومن هنا تعالت هذه الصيحات : ألمانيا فوق الجميع . وإيطاليا فوق الجميع . وسودى يا بريطانيا واحكمى . إلى غير ذلك من العبارات الشعوبية التى تهتف بها أمم هذا القرن وتجعلها شعاراً لها ، وكلها تنطق كما ترى بإيثار القوميات الخاصة والتشيع لها والحرص عليها والتفريق بين بنى الإنسان على أسس واهية من الأشكال والألوان .

ولسنا بصدد تحليل هذه الدعوى ولكنا نعتقد على كل حال أنها دعوات غير طبيعية ، غير دائمة وغير صادقة ، إذ من المحال أن تكون كل أمة فوق الجميع وهى مع هذا تسىء إلى العالم كله وتقلق الإنسانية وتترك الجنس البشرى فى تناحر دائم وتنازع مستمر . وما هذا الاضطراب الذى أعجز الساسة وحير المصلحين إلا أثر من آثار هذا الجشع القومى ، والواقع أصدق دلالة من حجج الساسة وتخلصات الحكومات . أما الإسلام فقد ظهرت فيه الدعوة الواضحة لإصلاح الإنسانية جميعاً فهو حين يشرع ، يشرع للدنيا كلها . وحين يصلح ، يصلح العالم جميعاً . وحين ينظر يرى بنى الإنسان شعباً

---

(١) كتب هذا البحث فى سنة ١٩٣٨ حينما كان الصراع بين هذه الدعوات على أشده .

واحداً مهمة النظام الإسلامى فيه ، أن يتناوله فى كل مرافق حياته بالإصلاح الشامل .

يرفع الإسلام الناس كلهم إلى نسب واحد ويردهم إلى أصل واحد ويذكرهم دائماً بهذه الصلة بينهم ويطالبهم بمراعاة هذه القرابة الإنسانية ويقسم بما بينهم من أرحام ووشائج ويصرح بأفصح العبارات بالقضاء على العصبية الجنسية والتفاضل بالألوان والتعاظم بالآباء والأجداد والصلات والأنساب (الناس لآدم وآدم من تراب) . « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** »(١) . و(ليس منا من دعا إلى عصبية) (٢) .

وإلى جانب هذا المعنى يوجد الإسلام الهدف الذى تقصد إليه الإنسانية جميعاً ويحدو الناس إلى مثل أعلى ينزل الجميع على حكمه ويستظلون بظله ويحتمون بكنفه ذلك هو كنف الله « **ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين** » (٣)وما أبلغ وأحكم أن يجمع القرآن هذا المبدأ والختام فى آية واحدة حيث يقول تعالى « **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام** » (٤) بعد قوله تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء** » (٤)

على هذه القواعد جاء الإسلام . ولتحقيق الوحدة الإنسانية الكاملة وضعت شرائعه الحكيمة . وهو دين عملى لا يقنع بوضع القواعد ورسم المناهج حتى يوضح للناس طريق تحقيقها ويلزم بالعمل بها والسير عليها ولهذا أشربت فروعه العملية هذا المقصد السامى وظهر فيها كلها المعنى الإنسانى النبيل .

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) من خطبة للنبى محمد عليه الصلاة والسلام — المؤلف .
(٣) الذاريات : ٥٠ (٤) النساء : ١

جاءت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم للعالم كله وللناس كافة ، بشيراً ونذيراً ، وأيد القرآن هذا المعنى فى قول الله تبارك وتعالى : **« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »** (١) مع قوله تعالى : **« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »** (٢) وفى ذلك تحقيق الوحدة الإنسانية بتوحيد الفكرة الدينية التى ظلت قبل الإسلام مصدر الفرقة والخلاف بين أتباع الأديان المختلفة حتى جاء الإسلام فجمع الإنسانية على دين واحد ونبى واحد وهو حين يدعوها إلى ذلك الاجتماع يتجنب الاصطدام بمقدساتها وموروساتها ويضع لها الحق فى نصابه فيزكى الأنبياء جميعاً ويشهد للكتب السماوية جميعاً ويترضى عن السابقين الأولين من مؤمنى الأمم السالفة . **« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »** (٣) مع قوله تعالى : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه »** (٤) ومع قوله تعالى : **« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »** (٥) ولقد ظل هذا المعنى بعيداً عن أذهان بعض الناس فما زال الحق يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وما زالت حوادث الدنيا تدعوهم إلى التعاون والتواصل وما زال التفكير فى السرعة فى وسائل الانتقال كل ذلك يقرب بين قلوبهم وأجسامهم ومصالحهم حتى يتبين لهم أنه الحق **« أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ »** (٦)

وأنزل الله القرآن عربياً وجعله أساس هذا الدين ومظهر العبادة وركن الصلاة وأفضل القربات إلى الله ، حتى يجد الناس أنفسهم بحكم عقيدتهم

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) البقرة : ١٣٦

(٤) الشورى : ١٣ (٥) البقرة : ٦٢ (٦) فصلت : ٥٣

مدفوعين إلى تعلم لغة القرآن فيتوحد اللسان وبذلك تتحقق الوحدة اللغوية بعد الوحدة الدينية ، ويكون القرآن هو (الاسبرانتو) الذى ينطق به كل مؤمن بدين الإسلام . وإن من الناس من يرى الخيال فى هذا القول أقرب من الحقيقة لولا أن التاريخ يحدثنا عن أسلافنا من الفاتحين أنهم عربوا لسان العالم المعروف فى زمنهم فى أقل من قرن من الزمان ، ولقد نقل (دوزى) عن العرب فى الأندلس أنهم صبغوا غرب أوروبا بلسانهم فكانت العربية لسان التخاطب والمحادثة والعلم والأدب والثقافة فى هذا الجزء كله ، حتى بين القوط والوندال ، ولو كتب للعالم أن يسعده الله باستمرار هذا الفتح العلمى لرأينا أممه الآن تنطق العربية وتتواصل على أساس القرآن الكريم غير مهددة بما ينتابها الآن من مشاكل الجشع المادى ، ولكن مضى قدر وبقى أسف ومع اليوم غد .

ليست الصلاة التى يصطف فيها الناس جميعاً بين يدى الله تبارك وتعالى ، والزكاة التى ينزل فيها الغنى عن جزء من ماله للفقراء ، أياً كانوا ، والحج الذى يجتمع فيه أهل الأرض على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ومظاهرهم فى صعيد واحد لغرض واحد ، إلى غير ذلك من أحكام تعاليم الإسلام ، إلا مظاهر سابغة من تكريم الإنسانية الفاضلة فى أية أمة وفى أى قبيل .

ولا أنسى لحظة من لحظات الصفاء النفسى سمعت فيها صوت المؤذن يهتف بألفاظ الأذان العذبة فإذا كلها حداء للناس جميعاً إلى الله ورسوله ، وإلى الخير والفلاح ، والغاية الله ، والوسيلة الصلاة ، والنهاية الفلاح ، ما أعذب هذا . أترى فيه دعوة إلى عصبية أو هتافاً بجنسية ؟ أو إشادة بقومية ؟ وهل ترى فيه غير دعوة طاهرة بريئة إلى إنسانية عامة فاضلة ؟ !

الله فوق الخلق فيها وحــده   الأمر شورى والحقوق قضاء

وإنك لتقرأ القرآن فكثيراً ما يخاطب الناس جميعاً ويتقدم للناس جميعاً وينادى الناس جميعاً « يا أيها الناس اتقوا ربكم » (١) « يا أيها الناس إن وعد الله حق » (٢) « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى

---

(١) النساء : ١   (٢) فاطر : ٥

الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » (١) وهو حين ينادى هذا النداء يساوى بينهم فى الحقوق والواجبات . ويقضى على أسباب الفتنة ، ويحض على التعاون ، ويحرض على الجميل والمعروف « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**»(٢)«**وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** » (٣) .

تلك هى الإنسانية العامة فى دعوة الإسلام ، وأما الإنسانية فى الفرد فما من نظام علا بها وعمل على ترقيتها كما عمل على ذلك الإسلام الحنيف ، وحسبك بدين يغالى بكرامة الإنسان حتى يجعله خليفة الله فى أرضه ، ويفضله على كثير من خلق الله تفضيلا ؛ ويعلى من قيمة الضمير الإنسانى بعد ذلك كله فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك وإن أفتوك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك » وهل علمت إنسانية أسمى من هذه الإنسانية التى أثرت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجعلت أحدهم يحاكم نفسه فيقضى عليها وينفذ ، فيكون شرطياً وقاضياً وجلاداً فى وقت واحد كما فعل أبو لبابة الأنصارى رضى الله عنه ؟!

وهل علمت سمواً بالعاطفة يقارب سمو الإسلام بها فى التراحم والتواصل ودقة الشعور والإحساس وهو الذى يفرض على المسلم أن يكون رحيماً فى كل أحواله حتى لقد اتسع أفق الرحمة فى الإسلام فشملت الإنسان والحيوان والنبات على السواء .

ولأمر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فى كل ذات كبد رطبة أجر » . كما كان يوصى المجاهدين من أصحابه فيقول : « لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا امرأة . ولا طفلا ، ولا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح

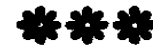
---

(١) يونس : ٥٧ (٢) الحجرات : ١١ (٣) المائدة : ٢

ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تعقروا بعيراً إلا للأكل ، وستمرون على أقوام ترهبوا فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ».

« وبعد فانظر كيف صرف الإسلام غريزة العلو والتسلط فى الإنسان فجعلها إلى خير الإنسانية كلها . وفى فطرة الإنسان حب التسلط والاعتزاز بالنفس . وفى نظام الإسلام وحدة بين الناس ومساواة فى الحقوق والواجبات، وتقدير للفطر والطبائع وتطويع لحكم الواقع . أتدرى كيف وفق الإسلام بين الموقفين واستخدم لخير الإنسانية كلتا الحالتين؟ إنه جعل ثمن الزعامة حراسة العقيدة فيرث الإمامة فى الأرض من يستطيع أن يخلط نفسه بأبنائها فتفنى مصلحته فى مصلحتهم ويعمل لخيرهم أكثر مما يعمل لنفسه ويكون أقواهم عنده الضعيف حتى ينال حقه ، وأضعفهم عنده القوى حتى يأخذ الحق منه ، وبهذا الأسلوب البارع الذى هو صياغة القدرة الربانية وصنع الله الذى أتقن كل شيء ، نصب الإسلام الإمام للناس ، وانظر فى ذلك قوله تعالى:

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (1) »



(1) الحج : 40 ، 41

لماذا أسلمت ؟ (١)

للمجرى المسلم

الدكتور جرموناس

الأستاذ بجامعة بودابست

خالجنى منذ طفولتى حنين إلى أرض الإسلام . وكأنها أرض الميعاد الخيالية ، فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة فى السرعةوهما طابع الحضارة الأوروبية ، أبديا لى الشرق الإسلامى ، دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الإنسانية .

وإنى أنا الرجل الأوروبى الذى لم يجد فى بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية ، تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه :

فنى الوقت الذى يمنحنا فيه الغرب كل عام جديد ، أداة انتقال أسرع أو أداة إهلاك وتدمير أفتك ، ويدفعنا إلى حروب استغلال شنيعة . يبقى الشرق الإسلامى مستولياً على لبى بروحانيته ومثله العالية . فبينما اتجه الأوروبيون بملكات الكشف والاختراع إلى استحداث وسائل تدمير الحياة الإنسانية . حافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشرى .

وبينما التمس الأوروبيون أسباب سعادتهم فى الاستزادة من نعيم البدن كفل الإسلام للإنسان راحة نفسه إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون فى عرض زائل كسيارة أو طيارة بل فى رضا الضمير ، وسبيله أن يقوم الإنسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات

---

(١) نقل هذا الفصل إلى العربية الأستاذ فتحى رضوان .

اطمئناناً قلبياً أطول عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير .

والحق أن الكنائس الأوروبية لا تكاد تفترق تعاليمها الروحية عن الإسلام إذ أننا لو استبعدنا من المسيحية فكرة التثليث نجد أن أهدافها ومثلها ، هي استخلاص القانون الإلهي . هذا القانون الذي يجب أن نطيعه .

أما الفارق القائم بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية ، فيرجع في الحقيقة إلى الحضارة الأوروبية ، إذ أن الأوروبيون لا يطبقون تعاليم دينهم على أمور حياتهم ، بينما استمر الإسلام مؤثراً في كل ما يتصل بحياة المسلمين .

اقتصرت المسيحية على عبادة ساعات من كل أحد ، بينما امتلأت بقية الأيام بكفر عظيم ، وبكل شيء يتحدى تعاليم المسيح . أما الإسلام فلا يزال العقيدة المتجددة أبداً ، والتي يجب أن يعيش المسلمون طبقاً لقانونها وليس مجرد تعاليم نظرية فقط .

ولقد تدهورت ثروة المسلمين واضمحلت معارفهم وضؤلت سلطتهم السياسية ، حتى لقد أصبح من العسير بعد الحرب العظمى الماضية أن نجد أمة إسلامية حرة . ولقد وهم السطحيون من الناس — حين قارنوا حال الدول الإسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية — أن الدين الإسلامي هو علة سقوط دولة المسلمين.. ولكني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد إذ قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الإسلام . بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة .

إن تعاليم القرآن هي أوامر الله وهي مرشد أبدي للبشر ، إنه كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدقت رغبته في تفهمه . وإن محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ مؤيد بوحي من عند الله ، ونحن مأمورون

أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شئون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بأن ما أوحى به إليه إنما هو أساس لا يهتز ولا يتعثر لكونه إلهياً .

ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته وبالتالى لم يتشبعوا بروحه .

***

إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو إدراكه أن الكون تحكمه قوانين روحية ، وتسيره قوى غير محسوسة .

وهذه الحقيقة هى أساس كل دين . ولكنه لا يوجد دين يؤكدها أكثر من دين الإسلام الذى يبسط أمام الإنسان طريقاً وسطاً لا تتجرد فيه الروح عن البدن ولا البدن عن الروح ، بل يكون وسطاً بين المادة والروح على أن لا ينسى مطلقاً أنه كائن روحى قبل كل شىء .

ليس فى تعاليم الإسلام شىء لا يمكن تحقيقه عملياً وهى مفخرة عظيمة يتميز بها عن سواه .

إن أحجار الزاوية فى بناء هذا الدين هى أن الناس أمام الله سواء .

من آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته . ويترتب عن هذا أنهم أمام بعضهم البعض سواء .

ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم إلى الآخر كأخ له لما بينهما من صلة الإيمان بالعدل وتقوى الله .

ومن حق غير المسلمين ممن اهتدوا إلى حقيقة الله عن طريق أى كتاب من كتبه المنزلة ، أن يعيشوا فى هدوء وسلام مع المسلمين .

وفى التاريخ الإسلامى الدليل على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم الذين لم يؤمنوا إيمانهم .

على أن الفوارق القائمة بين المسلم وغير المسلم تسقط بمجرد اعتناق الإسلام ، فلا ميزة للمسلم ابن المسلم على المسلم ابن المشرك ولا فضل لقرشى على حبشى .

***

إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس ، إلا بعد الثورة الفرنسية . بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ولقد كانت فكرة المساواة والديموقراطية ،ابتكار القرن السابع عشر فى أوروبا، بينما هى من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ .

ولم يعترف حكام أوروبا بالاشتراكية إلا فى السنوات الحديثة بينماسبقهم الإسلام إلى المؤاخاة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكى الصحيح واستمتع فى ظل نظامه كافة الناس بكافة الحقوق الإنسانية . والاشتراكية الأوروبية تدهورت إلى حضيض الشيوعية المنطوية على حرب رؤوس الأموال ، أو إلى الوطنية الألمانية الاشتراكية القائمة على اضطهاد همجى لليهود وغلو فى تطبيق نظرية (الجنس الممتاز) .

أما الإسلام فقد نسق نظامه الاشتراكى –الطبقات والثقافات والأجناس على اختلافها– فى عقد اجتماعى مرتكز على حسن التوازن .

ولقد حرم الإسلام الخمور وسبق أوروبا إلى قوانين الصحة الحديثة بأكثر من ألف عام . ولقد حض على النظافة وعلم أتباعه آداب المعاملة الرقيقة ولقنهم الفروسية . وإنى لأجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها فى ظل المسيحية . ولقد اعترف بإباحته تعدد الزوجات فى حدود معقولة ، بالأمر الواقع أى بما تقتضيه غريزة الرجل ، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروع الذى يسود الجماعة الأوروبية فى هذه الأيام .

ولقد تمخض الإسلام فى العصور الوسطى عن ثقافة عظيمة صانت الثقافة القديمة من الضياع ونقلتها إلى العصور الحديثة .

والمسلم إذا كان صادق العقيدة فهو إنسان متدين ، روحى ، مستنير ، ذو حاسة إنسانية من طراز سام ، مما يثير التقدير والحب له .

على أنه من القوانين الطبيعية أن يكون للنجاح والقوة والثروة من التأثير ، مثل ما للكواكب الكبيرة من الجاذبية على المذنبات الصغيرة

لذلك لا يجب أن يقع من نفوسنا موقع الاستغراب أن تعشى عيون طائفة كبيرة من المسلمين أمام أضواء السيادة السياسية التى ظفرت بها دول أوروبا وأن يتعلقوا بمظاهر حضارة هذه الدول .

ولقد قررت بعض الدول الإسلامية رسمياً اصطناع الحضارة الأوروبية وما تقضى به من أساليب الحياة وطرائق التفكير ، اصطناعاً هو التقليد الأعمى بعينه . ولقد كان لهذا التقليد أثر كريه على المسلمين الذين جعلوا يمارسون رذيلة السكر والطيش والاستهتار .

وبالجملة تسربت إلى البلاد الإسلامية مفاسد أوروبية جمة ، جنباً إلى جنب مع بعض الفضائل الجديرة بالحمد .

إن الأمم الإسلامية اليوم معدمة واهنة متخلفة فى ميدان الحضارة ، لكنى كنت ولا أزال متعلقاً بالإسلام على الرغم من أننى أوروبى خال من كل دم دخيل ، وذلك لاعتقادى بأن مستقبل العالم وخلاصه من الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون إلا فى المزاوجة السعيدة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها . . . والروحية السامية التى تنطوى عليها عقائد الدين الإســـلامى .

إن عاتق أوروبا قد أبهظته أثقال جنونها بالرأسمالية والوطنية الاشتراكية ولا تزال أوروبا قادرة على الدفع بالجنس البشرى إلى بربرية شبيهة بما كان عليه الناس فى عهد الجاهلية الذى علا فيه شأن النزعة الطائفية ، حتى أضحت كل قبيلة تحسب أن دمها هو وحده الخالى من الشوائب . فتمزقت بفعل هذه النزعة ، الجماعة الإنسانية . . .

لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد – أى الإيمان باللحم والدم – هى الدوافع المحركة قبل الإسلام ، وكان العنف هو الحكم الأسمى . وهنا جاء وحى القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالأنساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس ، لن تؤدى إلى صيانة الحياة الإنسانية ولا إلى

تحقيق الهدوء والنجاح وأن الطريق إلى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع قوانين السماء .

لقد وضع الإسلام حداً للنظرية التى كانت تعتبر الإنسان وحدة فى قبيلة ، أو وحدة فى شعب أو ابناً للغة من اللغات وسما بالأفراد من وهدة الحيوانية إلى أفق إنسانية فسيحة .

وإنى لأؤمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة فى الوقت الذى تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة ، وإنى لأمد يدى لإخوانى المسلمين وأنخرط فى صفوفهم ، مجاهداً فى سبيل الإسلام ، باذلا ما أستطيع من إخلاص وحسن طوية ، كاشفاً عن الجروح . باحثاً عما يطهرها ويشفيها ، متحملا فى سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملا فى النجاة التى كتبت للمتقين .

***

الباب الأول

أنا مسلم لأن :

١ – طرق الاستدلال على وجود الله يوحى بها التأمل والفكر .

٢ – وراء هذا الكون كوناً روحانياً آخر .

٣ – أدرك بالنفس ما ليس يدركه الحس .

٤ – الحقيقة الإلهية كما أظهرها الإسلام .

٥ – الدين لا يخضع للعلم ودين الإسلام يرعى العلم ويعظم العلماء .

٦ – هداية العقل البشرى لا تغنى عن هداية النبوات .

طرق الاستدلال على وجود الله

يوحي بها التأمل والفكر

نشرت مجلة (فورم الأمريكية) فى شهر نوفبر سنة ١٩٣٨ استفتاء قام به الدكتور « أدامز » (١) بين طوائف العلماء ، عن الإيمان بالله .

وثبت منه أن علماء الطبيعيات : الكيمياء والرياضيات والفلك ، تميل كثرتهم إلى الإيمان . . أما علماء السيكولوجية فتميل كثرتهم إلى الإلحاد . وقد استنتج من هذا أن المتصلين بالسيكولوجية يعرفون عن العقل أكثر مما يعرفه غيرهم من العلماء وهم لذلك لا يؤمنون !

ولكن رد عليه فى نفس المجلة الدكتور « براون » فقال :

إنه لا غبار على حقيقة الاستفتاء . ولكن الاستنتاج الصحيح هو أن علماء الرياضيات والطبيعيات والفلك يعالجون علوماً قديمة راسخة ثبتت قواعدها وتحققت نظرياتها . وهم لذلك يؤمنون بالله فى ضوء ما عرفوا من هذه العلوم .

أما علم السيكولوجية (علم النفس) فمن العلوم الجديدة التى لا تزال تعتمد على الفروض ، ولذلك فإن ما يقوله علماء هذا الفن لا يعتمد عليه .

فيتبين أن العلم الثابت القواعد يهدى إلى الإيمان بالله وقد كان «جاليليو» «ونيوتن» من أعظم المؤمنين . . .

---

(١) مدير مرصد جبل ولسن .

ولم تكن هداية العلم الحسى إلى الإيمان ، عن طريق الحواس ، فليس التصور الحسى ضرورياً للبرهنة على حقيقة وجود الشيء ، إذ أن قوة العقل قوة خفية لا يعرف لها وجود حسى ، فهل إذا لم أستطع لمس أو رؤية عقل القارىء ، يجوز لى أن أحكم بأنه لا عقل له ؟ ؟ !

طبعاً ذلك لا يجوز . . .

ثم أن الادعاء بأن الإحساس والتصور أعظم خطراً من الاستدلال بالفكر ، غلط صريح . فالبحث عن العلل المختفية وراء الظواهر المادية ، أخطر وأعظم من رؤية الظواهر نفسها ، ولا يكون إدراك تلك العلل إلا بالفكر .

والفكر البشرى يقرر أنه ليس على كل شيء برهان ، بل ثمت مبادىء يقع التصديق بها لذاتها ، مثل القضايا الواجب قبولها فى المنطق .

ومثاله أن من بديهيات الفكر الإنسانى أن الكل أعظم من الجزء — بدون برهان — كذلك من بديهياته أن للكون رباً أوجده . ولا نقصد بالفكر ما يرادف العقل ، ولكنه التأمل الذى يكشف للنفس البشرية ويصلها بالفكر الأول .

***

فلدينا فى الاستدلال على وجود الله طريقة فطرية هى أن نتجرد عن التفكير بالألفاظ ونتأمل المعانى ، فتنكشف لنا من تلقاء نفسها ، تلك الحقيقة الكامنة فى نفوسنا .

أما العلم والعقل والحس فعاجز كل هؤلاء عن إدراك الله تعالى والاستدلال على وجوده .

وأما عجز الحس فنى أن من المقرر أن المدركات الحسية إنما هى حقائق اصطلاحية . . . فلو أن طفلا نشأ فى الجبل ثم ذاق السكر

وكان مريض أعصاب اللسان فوجد طعمه مراً لأدرك بإحساس ذوقه ، أن السكر اسم لهذا الشيء المر ، حتى لو شئ فوجده حلواً ، لاعتقد أن به مرضاً جعل هذا المر حلو ، ولو أطعمته السكر وقلت له هذا اسمه حنظل ، لكانت حواسه سبيلا إلى تحصيل الإدراك الخاطىء ، فالحنظل يكون فى عقله اسماً لهذا الشيء الأبيض الحلو . . ! !

ثم إن طبيعة الحواس أنها لا تدرك الأشياء المجردة بل تدرك صفاتها وصورها . ولنبرهن على هذا بالبصر وهو أرق الحواس فنشرح طبيعة تركيبه التى لا تسمح بأن يدخل الشيء المنظور فى طبقات العين ، حتى تدركه فإن طريقة تركيب العين تتبع نواميس النور التى منها أن الصور تنتقل فى الضوء على خطوط مستقيمة دائماً ، فإذا مرت بجسم أكثف من الهواء ، انضمت أجزاؤها فإذا جاءت الأشعة من الجسم المرئى ومرت بالهواء ووصلت إلى الشبكية مباشرة لم ترتسم الصورة فى العين لأنها تكون متفرقة فلهذا كانت القرنية محدبة من الخارج ومقعرة من الداخل لتلاقى النور فتجمعه ثم يمر فى أوساط أخرى تزيد فى تجمعه وهى الرطوبة المائية للعين ، ثم يمر الضوء بالبلورية لينفذ إلى الرطوبة الزجاجية لتفرقه من جديد .

ثم يجتمع على الشبكية ليرتسم ضوء الشيء المنظور معتدلا ، فتفريق الرطوبة للصورة بعد تجمعها فى البلورية وفى ما قبلها جعل الصورة التى حملها النور تجتمع بعد الانحلال على الشبكية معتدلة .

ولو لم يكن من مظاهر وجود الله فى أنفسنا إلا هذا التركيب العلمى الطبيعى لكفى برهاناً على أن موجد الكون عاقل قادر واسع عليم ، فأهل العلم الطبيعى والرياضى يحاكون صنعته فهل تكون هذه الصنعة الفنية البالغة غاية الدقة ، من عمل الصدفة أو من عمل نواميس مجنونة ؟

وقد كانت العدسات فى التلسكوبات الصغيرة والكبيرة مصنوعة من كتل زجاجية كل منها محدبة السطحين فلما رأى العلماء أنها لاتفى بالغرض

لأن مناطق من النور الملون تتكون حول الشبح الذى ترسمه بسبب انحلال النور إلى ألوانه حين مروره فى المنشورات الزجاجية التى تتكون منها العدسة . اتجهوا إلى محاكاة تركيب العين البشرية ، لأن لها أكثر من وسط واحد لكسر الأشعة وجمعها . ففيها العدسة والرطوبتان الزجاجية والمائية ، فصنع العلماء للتلسكوب عدستين ، الأولى كثيفة محدبة السطحين ، والثانية أقل من الأولى كثافة وتحدباً ، ولصقوا الأولى بالثانية بمادة تسمى (بلسم كندا) ينكسر النور فيها مثل انكساره فى الزجاج .

فنعلم من ذلك أن الحس لا يحصل الأشياء ذاتها ، ولكن يدرك صوراً أو آثاراً لها .

فهذه الحقيقة مضافة إلى الانخداع الحسى المستمر ، كما فى مسألة رؤية أشياء ذات ألوان . وهى فى الحقيقة لا لون لها . تجزم لنا بأن الحس ليس وسيلة وحيدة للادراك ، ولا هو وسيلة صالحة ، فضلا عن أن يكون فى طاقته إدراك الله وتصوره .

وليس الحس وحده هو الذى ينخدع . بل العقل البشرى أيضاً فى أكثر الأشياء منخدع وعاجز . أما انخداعه فمثاله حقيقة الزمان والمكان التى تعتبر بديهية عند عامة الناس . مع أنه لا وجود لها ، كما أثبت ذلك « أينشتاين » واضع قانون النسبية وتابعه جمهور العلماء على رأيه . فأينشتاين يقول إن الزمان هو حركة المادة فى انتقالها . والمكان هو نسبة إلى شاغل ولا معنى له بلا وجود أجرام . فوجود المادة هو الذى قرر وهم المكان والزمان .

وللبرهنة على ذلك يقول :

تصور أن المادة اضمحلت تماماً من الوجود فلم يبق لها أثر ولم يبق فى الوجود إلا عقلنا المجرد فقط يتصور . فأى صورة تكون فى العقل للمكان أو الزمان ؟ ؟ !

وكذلك قالوا فى الحركة والسكون إنهما فى ذاتهما عدم محض .

ومن عجب أن الفخر الرازى يقول فى تفسيره لآية « وسع كرسيه السموات والأرض »(١). وكان عرشه على الماء أى لا مكان عند كرسيه ولا زمان عند العرش . قبل « أينشتاين » بمئات السنين !

ومن أمثلة قصور العقل أنه لم يهتد إلى حقيقة الأثير إلا بعد أحقاب متطاولة من ملايين السنين . فالأثير موجود منذ نشأ الكون ، ولكن العقل البشرى لم يكن يستطيع أن يتصور أن رجلا يتكلم فى لندن فيسمعه الناس فى جنوب أفريقيا والهند وكان يصر على عدم الإيمان بهذا القول مع أن الأثير كان موجوداً ومع أن خاصيته ملازمة له (وهى نقل الأصوات والضوء) ومع أن سماع الصوت من لندن فى جنوب أفريقيا والهند كان موجوداً بالقوة فى الأثير فلما كشف العقل العلمى هذه الحقيقة على طريقة الفرض ، آمن بها الناس . فهل إنكار وجودها فيما مضى كان يطعن على حقيقة وجودها ؟ ؟

والعلماء الكاشفون لوجود الأثير . لم يلمسوه ولا نظروه لا شموه ولا تذوقوه ! ولكنهم مع ذلك آمنوا به ، وآمنوا بأنه لا يحس بإحدى الحواس ولا يدرك إلا بآثاره .

فـ «ميكلصن » فرض وجود بحر من الأثير مالىء للفضاء لأنه رأى النور لا يصادم أبصارنا فعلم أنه تموج . وأن هذا التموج نتيجة الانعكاس الأثيرى .

هذا كلامنا عن الاستدلال بالعقل والحس .

فهل استطاع العلم أن يتعرض لوجود الله أو ذاته أو سر الحياة ؟ كل ما وصل إليه العلم هو أن يلقى ضوءاً على عقيدة الوحى ويطابق

---

(١) البقرة : ٢٥٥

باستكشافاته حقائق الدين . أما هو بذاته فقد أعلن أن ذات الله ووجوده وسر الحياة . أمران وراء غايته وفوق طاقته ، وما كان للعلم الذى لم يكشف بعد كل أجزاء الأرض وهى أصغر كوكب في صغر عالم من ملايين العوالم الكونية . أن يتطاول إلى البحث عن حقيقة صانع هذه العوالم .

فإذن حقيقة : الله تعالى فوق متناول العلم وفوق العقل وفوق طاقة الفطرة — وهى أصدق وسائل الإدراك ، ولهذا جاء التكليف الدينى بالتوحيد المجرد . ولم يأت بالبحث عن الصانع . لأن التوحيد مركوز فى الفطرة كما ذكرناه فى غير هذا الفصل ، أما البحث عن الصانع فيفوق جميع القوى الإنسانية .

***

يرى العلم الطبيعى (وموضوعه دراسة الأكوان) أن الوجود نهاية يقصر العلم عن الإحاطة بها وتقصر وسائله عن استقصائها فما بالنا بالموجد.

وانتهى العلم إلى القول بأن الوجود سر لا يمكن كشفه كله ، تتموج فيه عوالم لا حد لها ، تتولاها قوى لا تدخل تحت حسبان . وكلما ظن عالم أنه عرف أحدها ناقضه آخر . فإذا انتهوا إلى الإحاطة بحقيقة جزئية عرفوا بها أن أمامهم سحباً من الظلام .

فالعلم العاجز باعترافه عن إدراك سر الوجود لا يغامر بمحاولة معرفة الموجد . !

***

فلم يبق بعد عجز الحس والعقل والعلم إلا أن نستدل على وجود الله تعالى بإحدى طرق ثلاث :

طريقة فرض وجوده كما فرض « ميكلصن » وجود الأثير وكما فرض « دالتون » نظرية الذرة .

ولا غبار على هذه الطريقة فـ « أينشتاين » كان يرفض البرهنة بالتجريب و «دالتون » هذا كان يعتقد ما كان يعتقده «جاليلو» من أن البرهان القائم على التجربة ليس ضرورياً ، وأن الإلهام يقوم مقامه . وقد قال «أينشتاين» فى محاضرة له ألقاها سنة ١٩١٨ : « إن الشأن الأول فى الاكتشاف العلمى إنما هو للبداهة » .

وطريقة تطبيق هذا الفرض هى أن نقول :

إن ظهور الشىء أو عدم ظهوره للعيان لا يمكن أن يؤخذ دليلا على وجوده أو عدمه فإننا لا نستطيع أن نرى اللوح الزجاجى الصافى الأديم وهو مع ذلك موجود .

وقد اعترف العلماء الفلكيون بوجود كوكب رفيق الشعرى قبل أن يراه « ألفن كلارك » ودون أن يروه هم أنفسهم وكان دليلهم على وجوده اليقينى — وليس الوجود الفرضى — هو انجذاب كوكب الشعرى ، والجذب من الخواص الميكانيكية للمادة فقالوا إذن هناك كوكب خفى يجذبه .

فعدم رؤيتنا الله سبحانه وتعالى لا تمنع من وجوده تعالى ، له الملك والحمد ، فيثبت بهذا جواز الوجود .

ولدينا مثال أقرب من هذا حساً ؟ فهل يستطيع قارىء أن يتصور وجوداً مادياً لجزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر ؟

إنه موجود ويسمى (أنغسترم) ويستعمله علماء الطبيعة فى قياس أمواج النور ! !

ثم ننتقل إلى القسم الثانى من الفرض :

ما دام لم يثبت أن حياة الكون ذاتية — أى نتيجة فعله الخاص — فلا مندوحة لنا عن فرض قوة مسيطرة عليه تمده بالحياة والانتظام وليست من ذاته بل هى خارجة عنه ، فلو قلنا إن التجاذب الميكانيكى التجاذب

الكهربائى أو التجاذب المغناطيسى هو قوام هذا النظام لاعترضتنا صعوبات منها :

هل هذا التجاذب ناتج عن طبيعة التركيب ؟ فيجب إذن أن يعمل دائماً . ولو عمل فى بدء التنوع لتحطم الكون ٠

فيجب أن نفرض عاملا خارجاً عن طبيعة التركيب وعن طبيعة التكوين ٠ ولا تهمنا صفة العمل ونفرض لهذا المؤثر الخارجى المستقل أنه عاقل ٠ ٠ ٠ لأن انتظام التركيب وانتظام التكوين وتنوع المادة مع وحدة العناصر واختلاف المركبات باختلاف نسبة الذرات يلزمنا بفرض أن تلك القوة عاقلة ٠

ونفرض أنه واحد ٠ ٠ ٠ لأنه يجب أن يكون أبسط من كل مخلوقاته فعن الواحد تتفرع باقى الأعداد وعن النقطة الهندسية يمتد الخط وتنشأ سائر الأشكال ، وما دام للواحد هذه القدرة العجيبة فلا يحتاج معيناً ولا يقبل شريكاً بسبب طبيعته الأحدية !

الذى يخلق الكون وشموسه وكواكبه ومياهه وترابه وعقوله المفكرة وأيدى الرسامين السحرة وأيدى الأطباء المهرة ، من ذرة تبلغ جزءاً من مائة جزء من أربعة ملايين من البوصة ، عاقل وواحد ومستوجب لكل صفات العظمة والتفرد ٠

والذى يخلق جميع ذرات العنصر الواحد متشابهة وزناً وشكلا ، ويجعل من تخالف تركيبها ، مخلوقات جديدة متنوعة ، ويجعل لتوالد كل عنصر نسبة تركيبية ثابتة لا تتغير ٠ عاقل وواحد ومستوجب لكل صفات العظمة والتفرد ٠

فهذا الفرض أدى بنا إلى الاقتناع العقلى وإن لم يكن أدى إلى اليقين .٢

***

والطريقة الثانية : هى الإذعان للوحى والتصديق بما جاءت به رسالات الأنبياء خاصاً بحقيقة الألوهة ما دمنا نحن نجهلها . وما دام الذين تحدثوا إلينا عنها قد أعجزونا بأقوالهم وأفعالهم ووافقوا أصل البداهة البشرية المعتقدة بوجود إله .

وقد فصلنا هذا فى الفصول التالية تفصيلا يستند إلى العلم والعقل .

وتلك الطريقة بما فيها من القبول والاطمئنان ، تؤدى إلى التسليم القلبى وإن لم تكن تؤدى إلى اليقين .

والطريقة الثالثة : هى التعرض للتجلى الإلهى بواسطة التأمل والرياضيات والعبادة ، وهى طريقة موصلة إلى اليقين .

***

وراء هذا الكون كونا روحانيا آخر

الفلسفة المادية تقول بإخضاع كل حقيقة دينية للعلم ومشاهد الحس ، وهذا الرأى قديم صاحب نهضة الفكر الإغريقى ثم نادى به قوم فى العصور المتأخرة ، وإنا لنعتقد أن الباعث عليه هو رغبة إشباع الحس باللذات والمتع : والفرار من الإيمان بوجود حياة أخرى ، فيها حساب وجزاء ، أى الفرار من كل فكرة تقيم رقابة على الطبيعة الحيوانية فى الإنسان .

فهى فلسفة لاتستند إلى مذهب علمى . وإنما مصدرها شهوة عادية جارفة .

وقد أثبتنا فى فصل آخر أن الحس لايغنى فى إدراك حقائق الوجود وفى فصل غيره أن حقائق الدين لاتخضع لوسائل العلم المادى التجريبى إثباتاً فيه كل مقنع لكل عقل مستقيم .

وفى هذا الفصل نثبت أن وراء عالمنا ، عالماً روحانياً وعوالم أخرى ليس للحس إلى إدراكها من سبيل . وإنما يدرك الحس من جوانبها بعد أعنف المحاولات ، أضعف الجوانب الرامزة إلى قصوره ، والمشيرة إلى حدود طاقته .. قال الأستاذ « البرت دروشا » الفرنسى فى كتابه « استخراج الحس الإنسانى » ما يأتى ، نقلا عن الأستاذ «لومبروزو» العالم الإيطالى الشهير وواضع علم النفس الجنائى :

« كنت شديد الإنكار للمذهب الروحانى بحيث لم يلحق شأوى فيه إلا قليل من العلماء ، ولأجل التحقق من ذلك ، يكفى أن يطلع القارىء على كتابى « المجانين والشواذ » وعلى كتابى « بحوث فى النوم المغاطيسى » فقد استرسلت فيهما فى الإنكار إلى حد أن أوسعت الروحانيين سباً» . إلى أن قال :

« وبما أنه قد اقترح على (إشارة إلى كتاب كتبه إليه صديقه العالم الإيطالى الأستاذ كيابار لى) أن أمحص حوادث تحدث بحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً ، هى مدام « أوزابيا » فقبلت هذا الاقتراح ، مرتاحاً إلى أن هذا التمحيص سيكون بمساعدة رجال ممتازين فى الأمراض العقلية وهم : « تامبوريني وفيرجيليو ونيانكي وفيزيوني » وقد كادوا يكونون مثلى فى إنكار صحة المسألة التى نحن بصددها . وتوقعت منهم أكبر مساعدة لى فى مراقبة مايحدث من الظواهر .

اتخذنا قبل البدء فى التجارب أشد مايستطاع من التحوطات . ولما فحصنا الوسيطة من ناحية علم الأمراض العقلية الحديث ، رأينا أن لديها قصوراً فى التعقل واضطرابات هستيرية وربما كانت صرعية . وآثار جرح عميق فى العظم الجدارى الأيسر للرأس .

وقد أبطلت أنا والدكتور « تامبوريني » حركة رجلى الوسيطة ويديها بواسطة أيدينا وأرجلنا ، وبدأنا تجاربنا وأتممناها تحت ضوء مصباح مسرج وكان أحدنا يشعل بغتة من آن لآخر ، عـــوداً من الثقاب لمباغتة التدليس .

أما الحوادث التى شاهدناها والوسيطة على تلك الحالة فكانت عجيبة إذ استطعنا أن نشاهد فى الضوء الساطع ، ارتفاع المنضدة وارتفاع كراسينا أيضاً بمقدار يتطلب من القوة لإنزالها مايعادل ٥–٦ كيلو جرامات .

وبناء على طلب أحد الحاضرين وهو المسيو«جيوفلى» الذى كان يعرف الوسيطة منذ زمن بعيد ، حدثت طرقات فى باطن المنضدة ، هذه الطرقات كانت تجيب فى الوقت نفسه على المسائل التى توجه إلى القوة التى تحدثها ؛ متعلقة بمعرفة أعمار الأشخاص الموجودين وما سيحدث وحدث من الأمور » وكانت هذه الطرقات تحدث بفعل ما يدعى أنه روح ميت .

فلما أطفأنا المصباح ابتدأنا نسمع طرقات شديدة فى وسط المنضدة . وبعد قليل من الزمن أخذ جرس صغير كان موضوعاً على خوان يبعد عن

«أوزابيا الوسيطة» أكثر من ١٠ س ، يرن فى الهواء على رؤوس الجالسين ثم نزل واستقر على منضدتنا ، وبعد هنيهة ذهب واستقر على سرير يبعد عن الوسيطة بنحو مترين .

وبينما كنا نسمع رنين الجرس بناء على طلب أحد الحاضرين كلفنا الدكتور «اسنسى» بأن يقوم ويقف خلف مدام «أوزابيا» وأن يشعل عوداً من الثقاب . واستطاع أن يرى الجرس معلقاً فى الهواء ، ثم ذهب وسقط على السرير خلف الستار .

وسمعنا بعد ذلك — لأننا كنا لانزال فى الظلام — أن منضدة تتحرك بينما يدا الوسيطة كانتا مقبوضاً عليهما بشدة من الدكتور «تامبوريني» ومنى أنا . وفى نفس الوقت أحس الأستاذ «فبزيولى» بيد تجذب شاربه وتحز ركبتيه ، وكانت تلك اليد صغيرة وباردة .

وفى نفس الوقت أيضاً سحب من تحتى الكرسى ، الذى كنت جالساً عليه ، ثم أعيد إلى مكانه ثانياً . وانتقل من مكانه فجأة بساط ثقيل فى حجرة النوم كان على بعد أكثر من متر من الوسيطة ، كأنما كان مدفوعاً بتيار من الريح ، واتجه إلى مغطياً جسمى كله . فحاولت أن أتخلص منه ولكنى لم أستطع ذلك . إلا بعد بذل جهد كبير .

وشاهد بقية الحاضرين ألسنة صغيرة من النار ، تتألق على بعد عشرة سنتيمترات فوق رأسى ورأس الدكتور «تامبوريني» .

ولكن الذى أدهشنى أكثر من كل ما ذكرته ، هو انتقال طبق مملوء دقيقاً دون أن يسقط مافيه ! كأنه استحال إلى جيلاتين متماسك ، وقد كان موضوعا فى حجرة النوم على بعد أكثر من متر ونصف متر منا ، وكانت الوسيطة قد فكرت فى تحريكه بإثارة مافيه على وجوهنا فقالت لنا وهى فى دور تشنجاتها : «خذوا حذركم فسألقى بالدقيق الموجود هنا على وجوهكم جميعاً» وعند ذلك أضأنا المصباح وفضضنا حلقة الاجتماع التى كنا عليها حول المنضدة فوجدنا طبق الدقيق قد انتقل من مكانه .

وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجرة التى كنا فيها ، موجودة بعيداً عن حجرة النوم وعلى مسافة مترين منا ، تسعى نحونا ببطء كأن أحداً يحملها . فكان الناظر إليها وهى تتحرك ، يخيل إليه أن حيواناً كبيراً يمشى إلينا .

وقد كررت هذه التجارب أخيراً مع الأساتذة « دواميسى » وكيابا ، وفردينوا » فرأيت فوق ما رأيت أن كرسياً قفز من الأرض إلى سطح المنضدة ثم عاد إلى مكانه الأول .

وقد عملت تجارب مشابهة لهذه بواسطة الدكاترة : « بارت ، وديفيوز» فكتبا لى بأنهما شاهداً مراراً جرساً يدق وهو معلق فى الهواء دون أن يحركه أحد. وكان معهما المالى «هيرشى» . فطلب أن يتكلم مع روح إنسانة كانت عزيزة عنده فرأى وجهها وكلمته بالفرنسية . وكانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة . وكذلك الدكتور «بارت» رأى أباه الذى عانقه مرتين .

وقد شاهد الجميع ألسنة صغيرة من اللهب فوق رأس الوسيطة مدام «أوزابيا» .

وإلى القارىء قصة أخرى :

لما التأم مؤتمر المباحث الروحية فى باريس سنة ١٩٠٠ ميلادية تحت رياسة الأستاذ الطبيعى الكبير « الفرد رسل ولاس » رأت لجنة من لجانه أن تحدث تجارب جديدة مع الطائفة الإسلامية المعروفة (بالعيسوية) فاستدعوا أفراداً منها إلى قاعة المؤتمر وقد احتشد فيها من أعضائه نحو ستمائة رجل ثم طلبوا إليهم أن يظهروا بعض الخوارق التى اشتهرت عنهم وأن يخضعوا فى عملهم لكل ضروب التمحيص التى تفرض عليهم ، فقبلوا .

ورأى الباحثون أعضاء المؤتمر أن يستعينوا بواحد من الذين لهم خاصية رؤية السيالات الروحية بأبصارهم وهم أيقاظ ؛ ليروا مايحدث من شأنها فى أثناء ظهور هذه الخوارق وهذه خاصية معروفة . توجد لدى بعض الناس

بدون كسب فيرون بواسطتها الإشعاعات الجسدية ، والسيالات الروحية بدون أقل مشقة .

فتقدم ثلاثة رجال من طائفة العيسوية . وأحاط بهم المجربون (أعضاء المؤتمر الطبيعى) من كل ناحية وراقبوهم مراقبة شديدة وأخضعوهم لأسلوب التمحيص العلمى الدقيق . فكان ما أظهره العيسويون ، محيراً لعقول أعضاء المؤتمر ، لعدم استطاعتهم تعليله بالعلل الطبيعية .

وضعوا أمامهم أتوناً مملوءاً ناراً فأخذ العيسويون يحرقون فيه راتينج البنجوان . وشرع أحدهم فى استنشاق أبخرته بشدة وطفق يميل رأسه يميناً وشمالا حتى حدث له خور جعله فى حالة عصبية فقد معها وعيه . وعندئذ تناول ثعابين حية وسامة وقطع أعناقها بأسنانه . ووضع منها بعضاً آخر حول عنقه . ثم كسر قدحاً من الزجاج وشرع يمضغ قطعه تحت أسنانه مضغاً عنيفاً ثم يزدردها بحالة مزعجة .

ثم وقف نفس الرجل بقدميه عاريتين على حد سيف وأخذ يثقل نفسه عليه ، ولما نزل حل حزامه من وسطه وأنزل سراويله إلى نحو عشرين سنتيمترا ثم نزع قميصه وأسند بطنه إلى ذلك السيف الذى كان يمسكه اثنان ومكث على هذه الحالة دقائق وكان علو السيف عن الأرض نحو ثمانين سنتيمتراً .

فتمكن الحاضرون من رؤية جرح عريض فى أعلى بطن ذلك العربى . ولكنهم لم يروا دماً سائلا منه !!

وما كان أكبر دهشتهم حينما رأوا الجرح اندمل فوراً بعد أن مسح باللعاب وصار كأن لم يكن ! ثم أقبل عيسوى ثان فأدخل إبرة كبيرة فى خديه مخترقة لسانه .

وجاء الثالث فأدخل مسماراً حاداً فى وسط جمجمته ودقه بواسطة قطعة من الخشب ، وكان قطر ذلك المسمار أربعة ملليمترات فنفذ فى عظم الجمجمة على عمق اثنى عشر ملليمتراً . ثم أنه هو نفسه أدخل إبرة كبيرة تحت جفنه

الأيمن فأحدثت جرحاً يبلغ عرضه من أربعة ملليمترات إلى خمسة ولكن لم تمض دقيقتان حتى اندمل الجرح كأن لم يكن • وشهد ذلك الحاضرون •

وقد سأل المؤتمر الرجل الذى استعانوا به على رؤية السيالات الروحية عما شاهده أثناء التجارب ، فأخبرهم بأنه رأى عند جلوس الثلاثة العيشويين القرفصاء ، ناقوساً كبيراً من قوى روحانية شملهم فى جوفه • وفصلهم عن الجماعة المحيطة بهم ، قال الرجل : وكان ذلك الناقوس من قمته يشبه البللور الناصع الشفافية ويأخذ فى العتامة شيئاً فشيئاً ، كلما قرب من الأرض وأن الناقوس دام شاملا لهم مدة أن كانوا فى حالة سكون وخشوع • ولكن لما سطع دخان البخور تحول هذا الناقوس إلى قفص يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متراً ونصف متر • وطوله أربعة أمتار ، وكان هذا القفص يفصلهم عن المحيطين بهم •

***

وهذه الوقائع الدالة على وجود كون روحانى آخر لايخضع لحسنا ولا لنواميس طبيعتنا إنما نضربها أمثالا تنبىء عن مثيلات لها تتعدد كل يوم فى كل مكان •

وتؤيد هذه الوقائع بتحقيقات العلماء فنلفت النظر إلى كتاب ألفه عالمان كبيران هما «هيرواردكارنجتون» و «جون رميدر» وهو كتاب (الموت : أسبابه وجواهره) فمنه يخرج القارىء مقتنعاً بأن الموت المادى للجسم نتيجة لازمة لكل كائن حى • وهذا لايعنى فناء الروح فإنها يمكن رؤيتها ومخاطبتها بالصوت المباشر وتصويرها بالفوتوغرافيا ويمكن تسجيل أصوات الأرواح على شريط ناطق أو اسطوانات •

وفى إنجلترا معهد دولى به معمل كامل الاستعداد يتولى تلك العمليات فى أى وقت • وتوجد إلى جانبه معاهد أخرى ترعاها الحكومة الإنجليزية لأنها تعتبر العلم الروحى ليس تدجيلا أو شعوذة • وإنما هو فى مقام العلم

التجريبي من حيث الثبوت والصدق • وتوجد مجلات أسبوعية وشهرية منتظمة ومطابع لاتطبع إلا الكتب الخاصة بعلم الروحيات •

ومن العلماء الطبيعيين المبرزين • من نادوا بالروحية وألفوا فيها • وبينهم سير ويلكم كروكس ، والفرد رسل ولاس ، ولورد رالى ، وسير أرشيبالد جيكى ،وسير وليام بارت، وسير أوليفر لودج، ودكتورأندريد (أستاذ علم الطبيعة فى جامعة لندن الآن) والعلامة أدنجتون أستاذ الفلك فى جامعة كبردج الآن .

وقد أعلن لامبروز الإيطالى • وكاميل فلامريون الفرنسى (وهما من فطاحل العلماء) اعتقادهما بصحة الظواهر الروحية • وإمكان التواصل بين عالمنا وعالم الروح . بعد أن كانا من أشد المنكرين . ووافق على صحة الظواهر الروحية العالم الفسيولوجي الأشهر ريشيه فى كتابه (ثلاثون سنة فى البحث الروحى) وقد قال هذا الأستاذ فى كبرى المجلات العلمية الإنجليزية (نايتشر) أن الروح يمكن الوصول إليها بقوى تكشف لنا عن حقائق لايمكن أن يظهرها النظر أو السمع أو اللمس .

ومن الساسة الذين ناصروا العلم الروحى ذلك السياسى العظيم غلادستون وزميله إيرل بلفور والأسقف بويد كاربنتر وسير مارشال هول المحامى الإنجليزى المعروف ولورد تنيسون والبروفسور ستيد .

ويقول أرثر فندلاى رئيس المعهد الدولى للبحث الروحى فى لندن فى كتابه (على حافة العالم الأثيرى) الذى ترجم إلى سبع عشرة لغة وطبع باللغة الإنجليزية أربعين مرة ما يأتى :

« إن المعرفة التى أمكن الحصول عليها عن طريق هذا العلم الروحى قد ثبتت ووطدت الحقائق العظمى التى ينادى بها الدين والفلسفة وقد اهتدينا فى بحوثنا إلى عقل يدبر كل شىء فيشكل الكون ويصوره •

وإلى منهاج عظيم هائل يقصر عنه إدراك أى فرد فى هذا العالم من تقصر عنه مدارك الغالبية العظمى فى العالم التالى (يقصد الجيل القادم) •

لقد وجدنا أننا نزرع هنا وسنحصد هناك فيا بعد •

وأن الحياة باقية لاتنعدم • وأن الذاكرة والشخصية هي أنفسنا الحقيقية وأنها لاتندثر عند الموت • وإنما الذى يندثر هو غطاؤها الفيزيقى •

ومن الحقائق المسلمة أن الصحف الإنجليزية المختصة بدراسة المسائل الروحية تنشر صوراً علمية معجزة . منها فى مجلة « بسايكك نيوز » صورة وسيط فى حالة الغيبوبة ، وقد طار فوق رؤوس المتفرجين على أعمدة من (الاكتوبلازم) لا تراها العين ، مخالفاً فى الظواهر قانون الجاذبية ، وخاضعاً له فى الحقيقة ، وفى كتب الدكتور كروفورد صور للاكتوبلازم وقضبانه مأخوذة فى ضوء المغنسيوم بعد تدريب الوسيط على احتمال هذا الضوء المعيد للبناء الاكتوبلازى الذى يخرج من نفسه .

ومن المقرر أن الأرواح تعيش معنا فى نفس جونا . ولكننا لا ندرك وجودها لأن عيوننا وآذاننا لا تستجيب لاهتزازاتها . فعالم الروح أعلى فى درجة الاهتزاز من عالمنا .

ومالنا نستنكر ذلك مع أن العلم التجريبى الحديث أنبأنا بأنه اكتشف أضواءاً غير منظورة ، وأصواتاً غير مسموعة للنظر والسمع البشرى . فمن الأضواء : الاشعاعات اللاسلكية والسينية وفوق البنفسجية وتحت الحمراء. ومن الأصوات ، الموجات التى استحدثها العلامة وود الأمريكى ، فالروح من هذا الطراز .

والمادة أثير فى درجة اهتزاز تستجيب لها مشاعرنا والأثير مادة فى درجة اهتزاز لا تستجيب لها مشاعرنا .

هذا هو حل اللغز المفقود ، لغز الروح والمادة :

وقد تشكك العلماء التجريبيون قديماً فى مخاطبة الروح للأحياء واعتبروا هذا تدجيلا وطرقاً احتيالية : حتى تقدمت المباحث الروحية فاستندت كل جزئية من جزئيات مكتشفاتها إلى العلم التجريبى ، فعرفنا أن الأرواح التى لاتسمح طبيعتها بأن تستجيب لأبصارنا وأسماعنا ، تستعين

على الظهور لنا ومخاطبتنا بأن تستعير من الوسيط ومن الحاضرين مادة الاكتوبلازم .

فالروح تصوغ لنفسها قناعاً يخفض من اهتزازاتها العالية فيجعلها فى متناول إدراكاتنا الحسية ، مرئية مسموعة ملموسة .

وقد اخترع العلماء أجهزة جديدة لتصوير الروح وإظهار صوتها فللأول رفلكتوجراف ، وللثانى تليفوكس . . . وألف هوارس ليف كتاباً يشرح فيه قواعد (علم الوساطة الروحية) وكل قارىء لهذا الكتاب يستطيع أن يجعل من نفسه وسيطاً .

ومن عجائب العالم الروحى أن الأطباء يلجأون إلى العلم الروحى لعلاج الأمراض المستعصية بإشعاعات غير المنظورة . وهذا يحدث فى إنجلترا وعلى الخصوص لمعالجة وتشخيص السرطان والتدرن الرئوى والروماتزم المشوه والذبحة الصدرية والشلل والبول السكرى .

ومن عجائب العلم الروحى أنه توجد فى عالمنا هذا مؤلفات من تأليف الأرواح وليست من تأليف أحيائنا منها كتاب (تعاليم سيلفر بيرش) وقد حلى صدر هذا الكتاب بصورة الروح مأخوذة بالطرق العلمية الحديثة وهذا الروح المؤلف (تعاليم سيلفر بيرش) يظهر أسبوعياً ويحاضر فى مختلف الشئون وتستغرق محاضراته تسعين دقيقة متوالية . يدون خلالها كل مايقوله. وسجلوا لهذا الروح صوته على اسطوانة نفدت بعد ظهورها بأيام.

فكل ما ذكرناه يدل بوسائل ثابتة مقررة على أن وراء عالم المادة عالماً روحياً وأن هناك خلوداً وبعثاً وجزاء .

وقد خدم العلم الدين فى إثبات نظرياته إثباتاً حسياً ، وهذا يؤيد ما قلنا به فى فصل (الدين لا يخضع للعلم) ولكن العلم كلما تقدم صدق الإسلام وأثبت ما قرره .

« فلأن دنيانا ليست هى كل شىء ولأننا سنرد إلى عالم الغيب فنجازى ونحاسب ولأن الإسلام ينظم لنا الحياتين . . . لهذا أنا مسلم ! » .

أدرك بالنفس ما ليس يدركه الحس

ليست بنا حاجة : — من الوجهة العملية للبرهنة — بعد فصل « وراء هذا الكون كون روحانى آخر » إلى أن نتكلم فى موضوع النفس والحس وإنما آثرنا أن نكتب هذا الفصل لنعطى القارىء ، الوجهة الفلسفية فى موضوع (الروح وخلود النفس) وعدم إمكان الاستغناء بالحس فى الإدراك ، لعدم كفايته فى تحقيق المعرفة الوجودية ، إذ أن من تلك المعارف ما هو خارج على طاقة الحس وفوق متناوله ، بعد أن شرحنا الموضوع فى الفصل المشار إليه من وجهة نظر العلم التجريبى .

***

جرى القدماء من الفلاسفة الإسلاميين على تقسيم العلم إلى عقلى وشرعى واعتبروا العلمين مع ذلك ، علماً واحداً . وأصرح الدعاة لارتباطهما الفيلسوف الإسلامى الأشهر ابن رشد وله فى كتاب (فصل المقال فى مابين الحكمة والشريعة من الاتصال) .

وجرى أبو حامد الغزالى — وهو عندنا زعيم الفلاسفة الإلهيين فى العصور القديمة والحديثة — على هذا الرأى تقريباً فقال فى الرسالة اللدنية :

« وأكثر العلوم الشرعيه عقلية عند عالمها . وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها » .

وقال : إن العلم الشرعى نوعان ، علم أصول التوحيد ، الناظر فى ذات الله وصفاته وأحوال الأنبياء . . . وأحوال الموت والحياة والبعث والحشر والحساب . . وأن أهل النظر فى هذا العلم يتمسكون بآيات الله تعالى من القرآن . . . ثم بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية .

ويقول الغزالى (ولنا مثل رأيه مخالفين الكثيرين) إن الله تعالى أخبر فى القرآن عن جميع العلوم وجلى الموجودات وخفيها ،وصغيرها وكبيرها مستدلا على دعواه بآيات القرآن نفسه .

كقوله « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »(١) و« ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »(٢) ونحن نفسر هذا المقال فنقول إن العلوم الكونية جميعاً مندرجة فى القرآن ولكن هذا الاندراج إما أن يكون نصاً أو رمزاً وسيأتى بيان ذلك فى فصل آخر .

كما أننا نعزو حضارة الإسلام ونبوغ المسلمين فى العلوم الطبيعية والرياضية إلى توجيهات القرآن .

ونعود إلى تقسيم الغزالى للعلم الشرعى فهو يقول إن النوع الثانى من العلوم الشرعية هو علم الفروع أو العلم العملى ويشمل فى نظره ثلاثة أقسام : حق الله تعالى وهو أركان العبادات . وحق العباد وهو يجرى فى أمرين ، المعاملة والمعاقدة وموضوعها (علم الفقه) وحق النفس وهو علم الأخلاق .

وأما العلم العقلى فله عنده أيضاً ثلاث مراتب : العلم الرياضى والمنطقى ثم العلم الطبيعى وصاحبه ينظر فى الجسم المطلق وأركان العالم وفى الجواهر والأعراض وفى الحركة والسكون وفى أحوال السماوات والأشياء الفعلية والانفعالية ، ومنه النظر فى أحوال مراتب الموجودات وأقسام النفوس والأمزجة وكمية الحواس وكيفية إدارتها لمحسوساتها . . وهو ينتهى عنده إلى علم صناعة الكيمياء .

والمرتبة الثالثة وهى العليا ، النظر فى الموجود وتقسيمه إلى الواجب والممكن ، والنظر فى الصانع وذاته ، والعلويات والجواهر الفردة ،

---

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) سورة ص : ٢٩

والعقول المجردة والنفوس الكاملة ، وينتهى عنده إلى علم النبوات . . والنظر فى أحوال النفوس المقدسة .ومن فروعه علم الطلسمات والزيجات وما يتعلق بها .

ويقول الغزالى إن العلم الإنسانى يحصل من طريقين أحدهما التعلم الإنسانى والثانى التعلم الربانى .

والتعلم الربانى فى رأيه على طريقتين ، التعلم من داخل ، أى تفكر الإنسان فى نفسه واستفادته من النفس الكلى وهذا النوع عنده أشد تأثيراً من سواه .

وأنه إذا غاب نور العقل على صفات الحس ، يستغنى الطالب بالتفكر عن كثرة التعلم فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة . ما لا تجد نفس الجامد بتعلم سنة . . ويبرهن على صدق مذهبه فى التعلم الربانى وطريقته بأن النفس لا تستطيع أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية بالتعلم ، بل أنها تستخرج بعضها من الضمير بصفاء الفكر ثم يمضى فى شرح طريقة التعلم الربانى فيصفه بأنه على وجهين الوحى والإلهام . ويصف الوحى بأنه تصريح بالأمر الغيبى . والإلهام بأنه تعريض به وتوجيه إليه ويسمى العلم الحاصل عن طريق الوحى : علما نبوياً . والحاصل عن طريق الإلهام علماً لدنياً ويرى العقل آلة تحصيل العلم النبوى . والنفس آلة تحصيل العلم اللدنى .

ويستدل الغزالى على أن العلوم مركوزة فى جوهر النفس البشرية وأنها تستخرجها بالتذكر ، باستدلال فى غاية القوة العلمية والتجريبية وهو طروء إصابات مرضية معينة على أشخاص من الناس يفقدون بها معلوماتهم ؟ وتضيع ذاكرتهم فلا يعود أحدهم يعرف شيئاً مما كان يعلمه قبلا . فإذا زال المرض عاد المريض إلى تذكر كل شىء . فعلوماته إذن لم تنمح وإنما حجبها عارض طارىء .

ويبنى على ذلك رأيه فى أن اشتغال النفس باستخراج العلوم والحقائق المخبوءة فيها ، وإنما هو إزالة العوائق الساترة لتلك العلوم •

ولعلنا نجد دليلا يؤيد هذا الرأى ، فيما يقدمه الفلاسفة برهاناً على أن التوحيد فطرة فى النفس ، فإنا نجد رجلا مادياً يحارب الله ويستخدم مواهبه فى إنكاره . فإذا نزل به أمر يكرب له . فزع إلى الله دون وعى .

وليس هذا من أثر وراثة المعتقد كما يتوهم بعض غلاة الملحدين فيدافعون عما يبدو منهم من هذه الظاهرات الإيمانية بهذا الوهم .

إذ أن الثابت فى علم النفس الحديث أن قانون الوراثة لا ينسرى إلا على الاستعدادات دون الصفات والأفكار .

ومع ذلك فإذا تخيرنا رجلا ملحداً من سلالة ملحدين وراقبنا اتجاهه النفسى فى مآزقه وجدناه يضرع إلى الله .

فتكون إذن محاولات العقل البشرى الحسى ، هى الساترة للمركوز فى النفس فى حالتنا هذه وبالوقوع فى مأزق تشل قوى هذا العقل ومنطقه المادى الكسبى . وتعمل قوى النفس فيظهر من حقائقها ماحجبه خطأ التعلم .

وللفلاسفة الإسلاميين فى تفصيل الإدراك النفسى آراء تشوق علماء زماننا ومتعلميه . ويتلقاها كل قارىء بالقبول . فهم أكدوا أن الحس ليس وسيلة لإدراك كل شىء . وأن النفس بذاتها مدركة إدراكاً لا تستخدم فيه واسطة وقد بنوا هذا على ما فهموه من حقيقة النفس فلنعرض اتجاه (ابن مسكويه) فى الاستدلال على حقيقة النفس لأنه يمثل اتجاه فلاسفة المسلمين قال ابن مسكويه فى (الفوز الأصغر) :

« إن كل عضو من أعضاء البدن ، وإنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن لينال إلا به : فإذا كان البدن كله آلات ولكل آلة منها فعل خاص لا يتم إلا بها . اقتضى استعداده كما تستعد آلات الصائغ والنجار وغيرها وليس يجوز أن يقال إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا الاستعمال لأن ذلك البعض هو آلة أو جزء من آلة . وجميعها مستعملة . ومستعملها غيرها

فإذا كان مستعملها غيرها ولم يكن بجزء منها . وجب أن يكون غير جسم وأن لا يستعمل مكان الجسم ولا يزاحم الآلات الجسمية فى مواضعها .

ثم التفت ابن مسكويه التفاتة علمية جبارة فقال : «والمزاج والأعراض التى توجد فى الجسم. كلها تابعة للجسم ومنفعلة عن نظام تركيبه ، فلايمكن أن تكون مسيرة للجسم مع أنها ناتجة عنه» .

ومع ذلك فالآلة الميكانيكية لا يمكن أن تحيا بمجرد هذا التركيب فالتجاذب المغناطيسى العضوى أين هو وأين أثره ؟

لوكانت الحياة البشرية وليدة المغناطيسية ، لدارت الآلة الميكانيكية بنفس التأثير . وهذا لم يحدث ولن يحدث فى فتوحات العلم . لأن نظرية الحركة الدائمة التى يدأب العلماء على تحقيقها وهى المؤدية إلى دوران الآلة الميكانيكية بنفسها ، إذا فرضنا أنها تحققت وهو احتمال قد يكون بعيداً فإنها تعتمد على مغنطسة خارجية تلغى صفات المعادن الطبيعية وتهبها صفات أخرى .

وذلك أن البروفسور « لندمان » تمكن من إحالة غاز الهليوم (لايوجد إلا فى الشمس) أمام طلبته فى معرض الآثار فى كنجستون بلندن ، إلى سائل . ثم خفض درجة حرارته إلى ٤ فوق الصفر ، ثم تمكن زميله البروفسور « سيمون » من تخفيض حرارة سائل الهليوم إلى واحد فوق الصفر واستحضر حلقة مفرغة من الرصاص ، وأحال درجتها الحرارية بواسطة سائل الهليوم إلى واحد فوق الصفر ثم أوصل بها تياراً كهربائياً وقطعه عنها فى الحال ، فظلت تدور بعد انقطاعه ولا تزال إلى الآن تدور .

فهذه المحاولة العملية لا تقوم على جواز تحرك الآلة الميكانيكية حركة دائمة مستغنية بنفسها ، بل مستغنية بمؤثر خارجى ، وذلك يثبت أن الجهاز البشرى يحيا بمؤثر خارج عن ماهيته .

وقد وقع كثيرون فى الحيرة حيال كلمتى « الروح والنفس » وهل هما مترادفتان أو بينهما فارق ؟ . . ! الواقع أن بينهما اختلاف الإطلاق اللفظى ليس غير . أما مدلولهما فواحد .

وقد جرى العرب وجرى القرآن على إطلاق النفس وارادة بعض قواها أى جوانبها . وجرياً على التعبير عن الروح بالنفس ، وعلى التعبير عن مظاهر الحياة الحيوانية بالنفس .

فن أمثلة الإطلاق الأول ، قول القرآن « **إن النفس لأمارة بالسوء**»(١) و « **بل سولت لكم أنفسكم أمراً** »(٢) .

ومن الثانى قوله « **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** »(٣) .

ومن الثالث قوله « **كل نفس ذائقة الموت** »(٤) « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** »(٥) .

ونستطرد إلى القول بأن القرآن لم يمنع من معرفة الروح أو النفس بقوله «**ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى**»(٦) بل نرى أن الآية تعريف واضح للروح واعلان لحقيقتها الأمرية أى أنها من غير عالم المادة المصاغة منها أجهزتنا . وقد فسر العلم الحديث عالم الأمر فى ظننا بحصره الكونيات بين « الطاقة » و « المادة » مما ليس هنا محل تفصيله فنكتفى بالتوجيه إليه .

***

يقول الفلاسفة الأقدمون فى إثبات أن النفس تدرك غير ما يدركه الحس ، وأن لها ادراكاً بذاتها لأمور المعانى ، لا توسط فيه لغيرها .

إن من شأن الحس أن يفسد عليه المحسوس القوى . كالعين فإنها تكل وتضعف من الضوء القوى والأشياء المنيرة التى تفوق قوتها ، والسمع

---

(١) يوسف : ٥٣ (٢) يوسف : ١٨ (٣) النحل : ٢٨
(٤) آل عمران : ١٨٥ (٥) الأنعام : ١٥١ (٦) الإسراء : ٨٥

فإنه يقل ويضعف من الأصوات الهائلة التى تفوق قوته . وكذلك باقى الحواس ونحن نزيد على هذا أن المحسات التى هى أضعف من قوة التقاط الحواس لا يمكن ادراكها ، بينما النفس ، كما يقول ابن سينا والغزالى وابن مسكويه وغيرهم من الفلاسفة الإسلاميين وغير الإسلاميين تقوى بكثرة المعقولات القوية وبمداومة النظر إلى الصور المتعرية من الهيولى .

ويقولون : إن شأن الحس إذا انصرف عن المحسوس القوى إلى المحسوس الضعيف . لم يمكنه ادراكه ، كالشمس إذا حدق اليها المحدق ثم انصرف عنها الى ضوء أقل ، لم يمكنه ادراك ما يراه أى لم تمكنه رؤيته . فأما النفس إذا أدركت شيئاً قوياً من المعقولات ، لم يكن تصورها لما هو أقل منه . ناقصاً عن تصورها له .

وكذلك تدرك (النفس) الخفايا الدقيقة مهما تناهت فى الضآلة .

***

فبعد ما بينا أن الحياة الحيوانية ليست مجرد تجاذب مغناطيسى عضوى ، وأن النفس تدرك بقواها الخاصة ! معارف عالم المعانى . وهو ماليس فى طاقة الحس ادراكه . يتبين أن النفس ليست مادة وإنما هى غير المادة « معنى أو طاقة » .

ويتقرر بهذا كله أن النفس ذات حركة خاصة مستقلة . وأنها غير الجسد وأنها لذلك لا ترتبط بمصيره من حيث الفساد والفناء ، لأن التبعية بينهما منعدمة . والماهية فى كليهما مختلفة .

فلأن النفس باقية ولأنها تدرك غير ما يدركه الحس . ولأن روحى تدرك بخواصها أن للكون رباً مدبراً . وأن النبوات حق . وأن نبوة محمد أحق . بل أن التعرض للتجلى الإلهى أمر يقع لكل مؤمن متريض صافى النفس .

لهذا كله أنا مسلم . . .

***

الحقيقة الالهية كما أظهرها الاسلام

تقبلها مشاعرى وترفض سواها

الفطرية البشرية مجبولة على التصديق بوجود قوة فوقها . وهى تعلم أنها محتاجة إلى هذه القوة المجهولة منها والتى تحسها من أعماقها وتدركها بآثارها وإن لم تعرف ماهيتها . !

تلمست هذه الفطرة صوراً مجسمة لتلك القوة المجهولة ، لأن البدائية فى البشر معناها الاعتماد على الحسيات . وكلما ارتفعت مكانة الأمة وارتقت آمنت بالمعانى ، لأن المعانى وليدة التأمل والفكر . والفكر والتأمل لا يعملان إلا فى حالة الارتقاء الشعورى والعقلى . والفرد الإنسانى مصداق ومقياس لهذه الحقيقة ؛ فالطفل يشعر قبل أن يدرك فالإدراك الحسى سابق — من حيث الوضوح — على الإدراك الوجدانى الذى يكون غالباً مبهماً وغير واضح الحدود . إذ الحدود . من صفات المادة . والوجدان ليس مادة . فلا حدود للمعانى ولا للمشاعر التى تتخلق فيها تلك المعنويات ، ولكن الوضوح فيها معناه الانكشاف . والانكشاف قد يكون صريحاً كاملا وقد يكون جزئياً غامضاً .

نشأ عن هذه الفكرة ، أن البدائية البشرية اتجهت إلى تجسيد الإله فى حيوان قوى ترهبه . كالفيل والحوت . ثم فى حيوان نافع كالثور والهر ، ثم فى شموس ونيران ونحو ذلك .

ثم ارتقت نوعاً فاتخذت إلهاً جميلا ، إنساناً أو فرساً أو شجراً ، يسجدون لأجمل هذه الأشياء ! ، ثم اختلفت جوانب الرقى فى نفوس

البشر فرأى فريق منهم أن الله يجب أن يكون نورانياً فى صورته ، ذا سلطان ، مهيباً فى حضرته ، لا يطاق القرب منه ، فاتخذ النار إلهاً .. لأن لها هذه الصفات • وآخرون اتحدوا فى الفكرة مع هؤلاء ولكنهم رأوا النار شيئاً تحت تصرفهم ، هم يشعلونها وهم يطفئونها ... فاتخذوا إلههم أشياء لها هذه الصفات وليس فى مقدورهم التصرف فيها ، وهى النجوم المختلفة • فنهم من عبدوا الشعرى ومنهم من عبد المشترى وغير ذلك .

وكان آخرون أكبر إدراكاً من الفريقين وأوسع تأملا ، فقالوا إن الله يجب أن يكون غير متصف بالصغر أو بالكبر بالإضافة إلى هذه الجواهر النورانية (أى النجوم) بل يكون أكبرها ، فعبدوا الشمس ، واستعلت الاتجاهات الفكرية فى غيرهم وتقدموا فى طريق التوحيد مرحلة ، فقالوا : إن الله لا يجوز أن يكون له شريك فى صفاته ، والشمس يشاركها فى طبيعتها النورية غيرها من النجوم فعبدوا (النور المطلق) •

وكان لقدماء الإغريق آلهة متعددة ، فنها زفس كبير الآلهة وزوجته الآلهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج ، وأفلون ممثل الشمس وإله النور ، وأثينا إلهة الحكمة والصناعة ، ومارس إله الحرب ، والزهرة إلهة الجمال والتهتك ، وفوسيذ إله البحار ، وهينست إله النار ومثير البراكين ، وإزيس إله الظلمات والموت • والإغريق فى هذا التفكير يمثلون الفطرة البشرية فى مرحلة انتقالها من البداوة العقلية إلى أول سلم الفلسفة وهى ابتداء التأمل ، فقد أزعجتهم هذه الظواهر ، الموت والظلمة والنار والحرب فاعتقدوا أن كلا منها إله • !

وكذلك كلما ارتقت البشرية واتسعت دائرة التأمل العقلى ، انكشف للوجدان الإنسانى بعض ما هو مودع فيه من الحقائق ، انكشافاً جزئياً هو الذى تدل عليه تطورات فكرة الألوهة عند الأقوام المختلفين فى فى العصور المختلفة .

حتى جاء قوم أكثر ارتقاء فجاوزوا الحس وجالوا بأرواحهم المدركة وراء المحسوس ولكن ظل تأثرهم بالمحسوس مصاحباً لتصوراتهم الفكرية فمثلوا الله موجوداً قاعداً على عرش وتحت رجليه وعن يمينه وعن شماله ملائكة سموهم بأسماء زعموها ورسموا لهم صوراً تخيلتها أوهامهم .

وقال فريق من هؤلاء ، أرقى منهم تأملا ، أنه غير متجسد ، فالحقيقة الإلهية اتخذت عند أهل الأديان صوراً مختلفة كما اتخذت عند منكرى الألوهة ، معنى خاصاً ينفى عنها القدرة والعلم والتدبير ويصورها بأنها قاموس غير عاقل يحكم نواميس أقل منه ... وهم يتولون تبعاً لذلك أن هذه القوة (الناموسية) لا تتصل بالبشر ولا تختار منهم رسلا... وما هؤلاء الرسل إلا زعماء مصلحون أسندوا رسالاتهم إلى القوة المرهوبة لتكون أبلغ فى إقناع الناس خوفاً من سخط الأرباب أو الآلهة . .

واتخذت تلك الحقيقة عند الفلاسفة ، ومنهم فلاسفة اليونان، صور معان أرقى وأقرب إلى كينونتها واتخذت صفات هى باعتبارها كليات وأصول تطابق ما جاء به المرسلون فى شرائعهم .

الحقيقة الإلهية عند اليهود :

جاء فى التوراة : أن الرب بعد أن خلق العالم استلقى على ظهره ليستريح ووضع قدماً فوق الأخرى وقال : أنا الملك !

وجاء فيها : أن الله يعاقب الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال وكلما تحدثت التوراة عن الله ، وصفته (بالرب) . وأنا أسلم بأن الرب اسم من أسمائه والربوبية تحمل معنى القهر والجبروت ، فالحقيقة الإلهية من هذا الوجه متجبرة قهارة ، والقهر والجبروت ألزم الصفات لها عند اليهود .

والشريعة اليهودية تعاقب المذنبين أقسى عقوبة ، فجزاء العين الناظرة إلى المحارم أن تقلع ، وجزاء القدم الساعية فى معصية أن تقطع ، وهكذا وليس فى الشريعة عندهم رخص ولا تيسير ، لأن إلههم جبار لا يرحم ! !

فما عسى يكون هذا الإله الذى وضع رجلا على رجل واستلقى على ظهره ليستريح ثم أرضى غروره بقوله : أنا الملك ؟ ؟

الحقيقة الإلهية عند المسيحيين :

والمعتقد المسيحى يرى الله ثلاثة . ويراه متجسداً . وعبادته عندهم على شكل لا يتناسب وعظمته ، ولا الإجلال الواجب لألوهيته (كما بيناه فى فصل طرق الاستدلال) نضرب مثلا لها بما جاء فى إنجيل متى (٦ : ٩ – ١٣) وهو ما يسمى بالصلاة الربانية :

«أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك . . كما فى السماء كذلك على الأرض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجنا من الشر » فهذه الصلاة ليس فيها تمجيد لله ولا ثناء عليه ولا مخاطبة له بما يليق بجلال ألوهته أو بفيض رحمته وعظمة تفرده .

وهى تكشف عن معتقدهم فى الحقيقة الإلهية . فالله عندهم لا يأتى ملكوته ولا تكون مشيئته إلا إذا أصدروا إذنهم فقالوا « ليأت ملكوتك ولتكن مشيئتك » .

الحقيقة الإلهية فى الإسلام :

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الله واحد وأن كلامه من غير حروف ولا أصوات ولا نغم . ومن غير لهاة ولا لسان . وسمعه من غير أذن وبصره من غير حدقة . وإرادته من غير قلب . وعلمه من غير نظر فى البرهان وأنه لا قبل له ولا بعد .

وأنه يغفر الذنوب جميعاً . وهو يشعرنا فى كتابه المنزل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن ألزم صفاته له هى الرحمة فيبدأ لنا كل سورة من سور القرآن بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم »(١) وقد قال الإمام محمد

---

(١) النمل : ٣٠ ، وافتتاح سائر سور القرآن .

عبده فى تفسيرها : إن الرحمن معناه القائمة به صفة الرحمة دواماً بلا انقطاع . والرحيم الموصوف بالرحمة . فالله يقول لنا فى قرآننا إننى رحيم لا تنفك عنى هذه الصفة كما ينفك الكرم عن الكريم فيبخل أحياناً والحلم عن الحليم فيغضب أحياناً ، لأن صيغة فعلان فى لغة كتابنا العربى ، دلالتها استمرار قيام الصفة بالموصوف وعدم انقطاعها عنه .

إنه يلزمنا أن نعرف كيف يجب أن تكون الحقيقة الإلهية فى نظر الفطرة العاقلة المهذبة . ثم نقارن بين وصفها فى الديانات ، لنرى أى الديانات أظهرها كما ينبغى أن تعرف ؟

وقد ذكرنا فى فصول الكتاب وفى هذا الفصل ، أن الله الذى تلك آثاره يجب أن يكون واحداً لا ينقسم ، بتوالد ولا بغيره . قوياً رحيما غفوراً بيده مفاتيح كل شىء ، عالماً . متكلما ليوحى إلى أنبيائه ، سميعاً بصيراً يعلم ما فى وجوده ، داعياً إلى الحق وهادياً إلى صراط مستقيم . لا تدركه الأبصار . ولا تدركه العقول .

وقد وصف الله بهذا كله فى كتاب الإسلام (القرآن) ووصف بأنه تعالى له ماهية لا يحددها التعبير عنها بالألفاظ ، إلا أن يكون بسلب صفات غيرها من الأكوان عنها . وتلك طبيعة الألوهة وما لأحد أن يعترض على شىء فى طبيعته . فليس لك أن تقول كان يجب أن لا تكون النار محرقة أو أن لا تكون ذات لهب . لأن ماهية النار حرارة ولهب . ولولاهما لم تكن ناراً .

والقرآن يحتكم إلى الفطرة البشرية فى تحقيق الألوهة ، وتحديد صفاتها من الوحدانية والقدرة والعلم والسيطرة على الكون كله .

انظر إلى قول القرآن فى سورة النمل : « **آلله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون** .

أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون»(١) إلخ الآيات..

ثم يؤكد لهم ما استخرجه من وجدانهم بتقريراته ، فيدعمه بمنطق العقل إذ يقول :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء »(٢) :

فهم لم يكونوا يعلمون حركة الأرض والجبال . فعلمها لهم مستدلا ضمناً على أن علمه فوق علمهم إلخ : . » .

ثم انظر عبادة المسلمين لربهم ، تجدها أليق العبادات بعظمته ورحمته ونعمته على عباده . إن الصلاة المفروضة علينا خمس مرات فى اليوم لا تصح إلا بقراءة الفاتحة وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غـير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين ..(٣)

فهذه الصلاة القرآنية فيها ثناء على الله وحمد له ووصف بالربوبية والرحمة . وجهر بأنه لا يجوز الاستعانة بسواه لأن تقديم الضمير على الفعل فيه الحصر والتعيين .

***

(١) النمل : ٥٩ — ٦١
(٢) النمل : ٨٨
(٣) سورة الفاتحة

ثم طلب الهداية منه . وهو بصيغته هنا يعطى للبشرى كل عظمة وعزة باعتبار أنه هو نفسه الأصل الأول فيما يفعل ثم يستعين ربه على توفيقه فيما يفعل .

ثم لا يطلب المسلمون من ربهم كل يوم خبزهم الكفاف . ولكن يطلبون شئون الروح والهداية والارتقاء الشعورى .

***

هذه هي الحقيقة الإلهية في الأديان والفلسفات

فالحقيقة الإلهية فى الإسلام تقبلها مشاعرى وفطرتى وترفض كل صورة سواها .

وكذلك متحرر من أثر التعصبات الاعتقادية ، ناظر بالفكر المستقل والتأمل ، يرى الحقيقة الإلهية فى الإسلام هى الحق ولا حقيقة أبداً عداها.

***

الدين لا يخضع للعلم

ودين الإسلام يرعى العلم ويعظم العلماء

ليس بين الدين والعلم عداء ، فإنما سجل تاريخ العلم بين الفكر الضيق المحدود ، وبين الفكر الناظر فى الآفاق الرحيبة ، نظراً يؤدى إلى معرفة الله والاستدلال على وجوده .

***

وليس مطلوباً من الكتب المقدسة أن يتوفر لها الجانب العلمى ، فإن مهمتها الأولى أن تهدى إلى الخير والبر والفضيلة ، وتعطى النفس البشرية غذاءها الضرورى لها ، ضرورة الغذاء المادى للأبدان .

وقد برهنا على أن ماتعطيه لنا الكتب المقدسة لايستطيع غيرها أن يعطيه .

فللعلم آفاق ، وللديانات آفاق . وليس بينهما تعارض . بل إن العلم ينتهى دائماً إلى إثبات مقررات الأديان .

ولم تكن الديانتان المسيحية واليهودية . ديانتى بحث . ولا كان العقل البشرى يجد فى إحداهما ما يرضى مطالبه .

ويتميز الإسلام عن سابقتيه بإشباعه رغبات الروح والجسد والعقل . وجاء التعارض بين اللاهوت المسيحى وبين العلم ، التعارض الذى نتج عنه سيطرة الكنيسة على الفكر الأوروبى ، وإنشاء محاكم التفتيش . وحرق العلماء المكتشفين أحياءاً ، وتعذيب المفكرين فى الأقبية المظلمة وبالحديد المحمى بالنار . جاء التعارض لأن السيطرة كانت لعقول رؤساء الكنيسة ، التى ضربنا

أمثلة لها فى فصل آخر تدل على مدى بعد الآباء السابقين عن الفهم ، حتى عن فهم نصوص الكتاب المقدس !

ولكى نثبت أن الدين لايخضع للعلم نسأل القائلين بعدم التسليم إلا بحقائق العلم التجريبى :

هل يستطيع العلم التجريبى أن يمتحن لنا قواعد العدل والفن والجمال والقبح ؟ !

إنه طبعاً لايستطيع لأنها ليست من مجال عمله . وهى مع ذلك من أصل الفطرة البشرية . يؤمن بها الجهال كما يؤمن بها العلماء .

ثم نسأل ، هل يمكن أن تخضع لمقاييس المعمل وموازينه ، الأخلاق والصفات النفسية ؟

ذلك بالطبع لايمكن .

فإذن ليس العلم التجريبى مسيطراً على الوجوديات . بل منها ماهو خارج عن نطاقه . وهو كل شئون الفطرة . وفى طليعتها الإيمان والاعتقاد .

***

وكلما وجدنا تعارضاً بين الإسلام والعلم فعلينا أن نرده إلى خطأ العلم ، لا إلى فساد الدين . فإن القرآن اشتمل على حقائق العلوم كلها . ودعا إلى العلم ووجه المسلمين إليه . واستشهد الله فى القرآن على وجوده ، بالعلماء واختص فى الاستشهاد علماء الطبيعة ، فمن فروع علم الطبيعة : علم الجيولوجيا أو تاريخ تكون طبقات الأرض . علم (البيولوجى) وعلم تكون الإنسان (الأنتروبولوجى) وعلم النبات وعلم تكون المعادن (المينيرولوجى) .

وعلماء هذه الفروع هم الذين وصفهم القرآن بخشيتهم الله فى قوله :

١ — «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)»(١).

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)»(٢) .

٢ — « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)»(٣) .

٣ — « قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة »(٤) .

٤ — « وفى خلقكم وما يبث من دابة ، آيات لقوم يوقنون »(٥) .

٥ — « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »(٦) .

٦ — «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»(٧).

***

ويطول بنا ذكر الآيات التى اشتملت تصريحاً على التوجيه إلى حقائق العلوم واستخدمت الاستدلال بالمنطق العلمى على وحدانية الله وصدق نبوة النبى محمد .

---

(١) فاطر : ٢٧، ٢٨ (٢) الرعد : ٤ (٣) الأنعام : ٩٨.
(٤) الإسراء : ٥٠، ٥١ (٥) الجاثية : ٤ (٦) فصلت : ٣٧
(٧) فصلت : ٥٣

وقد خصصنا لهذا البحث فصلا آخر . ولكننا نريد أن نقول : إن الإسلام لايعادى العلم بل يرعاه . ولا يعارضه ، بل يوجهه إلى كماله . وأن الإسلام هو أبو العلم كله ، الفلسفى منه والعملى كما سنثبته عند الكلام عليه فى مكانه .

معفينا أن نخضع لكل مايقرره الإسلام من حقائق ، فى شئون الاعتقاد بعد ماثبت لنا أن العلم المادى أيد على قدر طاقته وبكل قوته عقائد الإسلام فكل ماكشفه العلم الحديث مطابق لما سبق القرآن بتقريره وهذا منطقياً قياس تصح به جميع العقائد الإسلامية الأخرى ، التى لم يوفق العلم بعد إلى تأييدها .

* * *

كل شرائع الإسلام لها أصل علمى ، كل أمر دينى فيه يستند إلى علم ، علم الاجتماع . أو علم القوانين. أو علم الطبيعة. أو علم الكيمياء . أو علم الفلك حتى أوقات الصلوات الخمس لها حكمة علمية فلكية صحية نفسية . النهى عن لحم الخنزير ، والنهى عن ملامسة الكلاب وغير ذلك .

فإخضاع الدين للعلم ، وانتظار رأى العلم فيما سبقت الديانة الصحيحة الصادقة بتقريره ، إنما يجعل الحضارة تمضى بطيئة تافهة . إننا نرحب بالعلم وتجاربه النهائية لأنها تؤيد عقائد الإسلام دائماً فإذا تعارضت معه فهى تجارب خاطئة يقيناً .

* * *

هداية العقل البشرى

لا تغنى عن هداية النبوات

قال فريق من الناس إن عقلنا يهدينا إلى مافيه سعادتنا . فهو يوعز إلينا أن نعامل الناس بالحسنى وأن لانعتدى على الغير . الخ مواد القانون الأخلاقى.

وقالوا إن عقول الفلاسفة اهتدت إلى وجود الله بدون توجيه الأنبياء لها فلا حاجة بنا إلى التدين . أو النبوات !

وهذا وهم خالص .

١ — فإن الطبيعة البشرية قد يطرأ عليها من الأطوار والمؤثرات ما تستقبح به الحسن أو تستحسن القبيح .

٢ — ثم إن العقل البشرى لايستطيع بدون توجيه النبى أن يدرك الغيبيات التى لاتتحقق السعادة فى الآخرة إلا بها .

٣ — ثم إن من العلوم العقلية مايجر إلى الخطأ .

٤ — ثم إن أثر فضائل الديانات فى الشعوب مشهور . وقبل الديانات لم يكونوا يعيشون على كمال الفضيلة .

٥ — وهداية العقل البشرى مع ذلك هداية فردية ، فلا يتبع الفلاسفة إلا فئة من تلاميذهم والماضون على طريقتهم فى الفكر ، ولايكون العامة من أنصارهم ... أما النبوة فهدايتها عامة للنوع البشرى .

٦ — ثم إن الملهمين وهم مرتبة فوق الفلاسفة وأدنى من الأنبياء يعتريهم الخطأ . والملهم فى شىء لايكون ملهماً فى سواه بخلاف النبى فهو موحى إليه بحقائق كل الأشياء وعلم كل الموجودات ومعصوم عن الخطأ فى الفهم وفى التبليغ .

٧ — ولاشك أن اختلاف التركيب التشريحي للناس يؤثر فى نوع وكمية الانفعالات التى تصدر عنهم • وكذلك غيره من المؤثرات فإننا نجد رجلا يهيجه أقل انفعال ورجلا يجبن من أقل شىء . فالطبيعة البشرية ليست متحدة الآثار والانفعالات . والعقل البشرى — تبعاً لها — ليس مؤتلف الاتجاهات ولا متطابق الأحكام . فما يستحسنه عقل فرد قد يستقبحه عقل الآخر . ومن العسير أن نعرف أى العقلين على صواب إذا تركنا لأنفسنا ، فإن كل عقل من هذين سيجد عقولا توافقه فتستحسن ما استحسنه وتستقبح ما استقبحه . وتبقى الحقيقة التى هى واحدة لاتتعدد ولاتتجزأ ، غير معروف مكانها من هذين الموضعين !

٨ — وليس للعقل البشرى طاقة بتصور الله وصفاته ، والعالم الآخر ومشتملاته ، والجنة والنار والصراط والحساب ومعانيها ودلالاتها وتلك كلها ضرورات ليعلم الإنسان شيئاً عن المقر الذى سيرحل إليه بعد ما أثبتنا خلود الأرواح ،وأن نعرف شيئاً عن الكون الآخر يقوله لنا رجل مفاض عليه من العلم الإلهى . منكشف له الحجاب المانع لنا من المعرفة .

هناك إذن علم ربانى لانستطيع أن نعرفه مالم يعلم لنا ؟

الجواب : نعم كما قرره الفلاسفة .

فإن طائفة من الناس وهم الملهمون . تمتاز عن غيرها ، فالملهمون العبقريون يستحدثون فى العلوم والفنون ومنها الشعر والموسيقى معانى وألحاناً لم يسبقهم إليها أحد ولا وضعوها على قياس أمر سابق .

فكيف عرفوها ؟!

وليس فرد من الناس إلا له قوة للتخلص إلى الغيب فيعلم من شأنه ما لم يكن يعلم ، برؤيا يراها أو برأى يبصره أو هتيف يسمعه أو حدس يتفطن له . وكل ذلك ليس من عمل العقل .

وكل حقائق العلوم مركوزة فى النفس البشرية ركازاً إلهياً ، جاءت بذلك الأديان وأيدها التجريب .

وإلا فكيف نعلل بدء ظهور العلوم والفلسفات والصنائع من قوم لم يتلقوها عن غيرهم ؟

لاشك أنهم استخلصوها من نفوسهم بصفاء الفكر وصدق الاستعداد .

ثم إن كل متعلم علما إنما يتعلم كليات فنه ، لأن العمر لايتسع لجزئياته ثم يستيقن معرفة الجزئيات بالتجربة ، فيستخلصها ويقيمها على القياس .

وهناك سؤال يوضح لنا هذه الحقيقة :

بماذا تدرك ذاتك ؟.. وما هو المدرك من ذاتك ؟

هل يكون المدرك منك أحد مشاعرك . أم عقلك وقوة غير مشاعرك ؟

فإن كان المدرك لذاتك هو عقلك . وقوة غير قوة مشاعرك فهل تدرك حينئذ بوسيط أم بغير وسيط .

ومن ذلك نعلم أنك تدرك ذاتك بذاتك بغير افتقار إلى قوة أخرى وبغير قيام وسيط بين الإدراك والمدرك.. ثم تدرك الأشياء الخارجية بحواسك.

ولكنك إذا تحررت من السمع الظاهرى وأصغيت إلى داخل نفسك علمت أنك تدرك ذاتك لا بالبصر ولا بالسمع ولا بعضو من أعضاء الجسد ولا بالقلب ولا بالدماغ ولا بأية آلة .

ومن أقوال « ديكارت » صاحب مذهب الشك فى كتابه « التأملات » :

سأغمض الآن عينى وأسد أذنى . وأمحو من خيالى جميع الصور التى ارتسمت فيه : ولكننى لا أستطيع أن أتجرد عن الفكر وأنقطع عن إدراك أنيتى ، (أى إدراك حقيقتى) .

فالنفس حين تتجرد عن الملحقات المادية تدرك ذاتها بلا وسيط .وهذا يدل على أنها عالمة بذاتها علما مودعاً فيها من الملأ الأعلى وأنه مركوزة فيها

حقائق الكون وإنما تحجبها عن الإدراك الواعى ، اللواحق المادية وطبيعة تركيب الجسد المانعة من إشراق النفس .

وليس كل عقل يستطيع أن يستخرج من ركاز النفس مافيه . وإنما طريقة استخراجه أى استخراج بعضه ، هى التفكر والتعلم الكسبى أولا ثم التعلم الذاتى ، على أنه يشترط أن يكون هذا العقل معصوماً عن الخطأ فى تفكيره وفى قبوله للمعلومات .

فإذن لابد لنا من هداية العقل الذى يفاض عليه من الله فإن الأنبياء تتجرد نفوسهم بالإعداد الإلهى لطبائعهم ، عن كدر الدنيا وشواغلها متجهة إلى الروح الكلى الذى يفيض عليها من معرفته ويكشف لها ماهو مودع فيها ، ويعصم إدراكها وحواسها عن الخطأ فى تلقى هذه المعارف وعن أن تشتبه عليها الحقائق ، والدليل على أن الأنبياء يتلقون من الله ، قدمناه فى فصل (نبوة النبى محمد) .

والعلوم العقلية ، منها التى يقع فيها خطأ وصواب . وأدق مراتبه العلم الرياضى والمنطق ، وقد ذكر ستانلى جيفونس : « أن فى كل مائة من الناس ، تسعة وتسعين يعرفون علم المنطق ويمارسون بالغريزة حل القضايا والمناظرات . ويفرضون الفروض العديدة ويحيلون الأشياء إلى أنواعها وهم لايعرفون كلمة المنطق ، فكل الناس منطقيون إلى حد ، ولكن أكثر منطقهم خطأ » .

والفرق بين المنطق الغريزى والمنطق الإكتسابى . أن الأول قد يجرنا إلى سلسلة من الأغلاط لا نهاية لها . فالعلوم العقلية — بل أدقها وأثبتها — عرضة الخطأ ما لم تتهيأ لها قوانين تضبطها . وهذه القوانين يستخرجها العقل البشرى بعد تجارب عديدة ، فى أحقاب طويلة . ومع ذلك تظل تلك القوانين غير معصومة عن الخطأ وقابلة للترقى . لأن العقل البشرى غير معصوم عن الخطأ .

فالبشرية لخيرها تحتاج عقلا معصوماً عن الخطأ ، يهديها إلى نفعها ، ويوفر عليها مشقة التجارب وعناء المحاولات . ثم إن دراستنا لعصور بعثات

الأنبياء ، تدل على أنهم جاءوا ليحلوا مشاكل ، عجزت عقول البشر عن الاهتداء إلى حلول لها .

فلم توجد لدى عقول الإسرائليين قبل رسالة موسى عليه السلام طريقة للخلاص من اضطهاد الفراعنة ، ولا لتوفير رخاء الشعب إلى آخر الحالات المستوجبة للعلاج .

ولا وجد قبل بعثة المسيح عليه السلام ، طريق لإدخال الأمل على النفوس اليائسة ، فى عصر كانت تتألف فيه الجماعات السرية لتنظيم الانتحار ولقتل المترفين .. لأن الشعوب كانت تئن من الحرمان والفقر وكان الملوك وبطاناتهم يمضغون الذهب ! وكانت المادية تطغى على الفضيلة .فلذلك بعث عيسى مخلوقاً روحياً ،فجاء عيسى بحل عجيب ،ليس من صنع العقل البشرى ، جاء يقول للناس ، لايلزمكم مزود للطريق ولا اقتناء ثوبين ولا عصا : فالمستغنى عن هذه الضرورات ، لن يحتاج شيئاً بطبيعة الحال ، فلن يشعر بألم الحرمان . وجاء يزهد الناس فى الغنى بل ينفرهم منه ، فيقول لهم : « لايدخل غنى إلى ملكوت السموات » وهذا هو الحل لما استعصى على عقولهم حله .

ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت لتعالج كل جوانب الحياة العمومية للناس جميعاً .

والتعمق فى دراسة تاريخ الأمم القديمة ، يدل على أنها حين كانت محرومة من الديانات أو حين اندرست من بينها تعاليم الديانة ، عاشت على حالة اجتماعية منحطة لا ضوابط لها ولم يستطيع عقل زعمائها أن يخرجها إلى ماكانت عليه فى ظل التعاليم الدينية وهذا منطق واضح ،فضلا عن أنه حقيقة مفروغ منها . بل أن العقل الفلسفى لايستطيع أن يتغذى إلا بتعاليم الديانة ، وإن توهم غير ذلك ..

والفلسفات المختلفة فى الأمم المختلفة والعصور المختلفة ، إنما هى أولا مجرد نظريات مثالية ، لا تعقلها إلا فئة من أتباع الفلاسفة فلا تنتشر بين

العامة . ولا توضع للتطبيق العملي ؟ فأين هي الأمة التي أقامت (جمهورية أفلاطون) وأين التطبيق لمبادىء أرسطو الأخلاقية ولنظريات جان جاك روسو الاجتماعية ؟

بل أين صلاحية الفلسفات وتعاليمها ، من صلاحية الأديان وتعاليمها ؟ !

إن المقارنة العارضة بين أحلام الفلاسفة وتعاليم الأديان كفيلة بتوضيح الفارق البعيد بين الاثنين ، وخفايا الأحكام الدينية وأسرار كيفياتها ، مما لا يتسنى للعقل الفلسفي إدراكه ، شاهد صريح بأن الديانات فوق مستوى الإدراك العقلي وأنها تسيطر على العقول سيطرة تعاليم وإرشاد وتنبيه . وأن التعاون بين الناس لايتحقق بالتعاليم العقلية ، وإنما لابد فيه من التعاليم الاعتقادية.

ثم إن الفلاسفة ليست لهم سلطة نشر تعاليمهم . وللأنبياء سلطة روحية تدفع إلى التفاف الشعوب حولهم ؛ وعليهم بغير استثناء ، واجب المجاهدة لبسط سلطانهم ، وحتى عيسى عليه السلام أمر بالدعوة والجهاد في سبيل نشرها .

ومن غرائز الفطرة البشرية ، الأنانية ، وهي غريزة تدفع الجماهير إلى التمرد على النظام الموضوع . فكم ثورات سياسية وثورات اقتصادية أريد بها قلب الأنظمة الموضوعة ، وليس داعي قلبها الأول عدم صلاحيتها . ولكنه باعث نفسي خفي يسيطر على الجماعات ، يوجه إيحاء أفراد بارزين هم زعماؤهم ، وتعليل هذا الباعث النفسي أنه رفض الانقياد لنظام وضعه رجل أو رجال مثلهم . والحجة للجماهير الثائرة هي دائماً ، عدم صلاحية النظام المرفوض ، وقد يكون ذلك صحيحاً في كثير من الحالات . ولكنه ليس الباعث الأول كما قررنا .

بينما نجد أشد المجرمين إيغالا في الإجرام . تصيبه نوبات استغفار ، وتردعه العقيدة الدينية كثيراً عن البغي ، وكثرة هؤلاء المجرمين ، من أهل الاعتقادات الدينية ، يتوبون عن حياة الجريمة قبل موتهم بزمان . وذلك بوازع المعتقد وسلطان الدين .

ولا تقوم فى الدنيا ثورة على الأديان بينما تقوم الثورات ضد كل نظام لأن الباعث النفسى الخفى الحافز إلى الثورة مفقود . فقد أثبتنا فى فصل (الإسلام يلائم الغرائز البشرية) أن التدين غريزة فى الفطرة فلا تثور الفطرة على نفسها إذن .

ولا يرد على هذه القاعدة ، ثورة روسيا على الدين . فإنها ثورة حكام أفراد لا ثورة جمهور وهى ليست ثورة على الدين نفسه ولاهى ثورة مباشرة ضده . وإنما رأى الزعماء الشيوعيون أن الأديان تبعث الناس على الرضا بما هم فيه . فثاروا على هذا المظهر الدينى . وهذا المظهر ليس من الدين أو ليس من الإسلام على الأقل . فقد أمر المسلمون بالعمل مع الإيمان وبالاجتهاد فى الارتقاء بأنفسهم ، والحصول على حظهم من متاع الحياة . ثم هى ثورة اقتصادية أصلا استلزمت تمرداً سياسياً ، وأصابت مظاهر العبادات لا جوهر الاعتقادات . فليس فى الدنيا إذن ثورة على الأديان .

ولهذا يحتاج الناس إلى النظام المنزل من السماء لكل ماتقدم .

وبفرض أن تلك الاعتبارات المانعة من الاستغناء بهدى العقل البشرى غير متحققة . فإن من المحقق أن العقل البشرى فى ذاته ليس معصوماً عن الخطأ . ولا يسرى هذا القول على عقول الفلاسفة وحدهم ولكن ينطبق على طائفة الملهمين وهم أرقى فى مراتب الإدراك من طبقات الفلاسفة وأدنى من الأنبياء .

وذلك ثابت لا يحتمل الإفاضة فيه .

فضلا عن أن الملهم فى شىء من الأشياء لايكون ملهماً فى سواه ، فالإلهام إفاضة على النفس وإشراق لحقائق خاصة تنشغل النفس بها وتتجرد لها . فالموسيقى المبتدع بإلهامه . لايستطيع أن يبتدع فى المنطق بإلهامه ولا أن يبتكر فى أى فرع آخر سوى ما انشغلت به نفسه فأفيض عليها خافيه .

وقد يكون الملهم أصم . وقد يكون أبكم ، وقد يكون أعمى وتلك أسباب عدم عصمة العقل الملهم . أما النبى فلا يكون إلا كامل التكوين صحيح

العقل مفاضاً عليه فى كل جانب من جوانب الحياتين . معصوماً من الخطأ فى الفهم والتأويل والتبليغ ، مزوداً بقوة إيحاء لاتكون لغير نبى ، يقذف بها مع تعاليم دينية فى قلوب قومه فينقادون لها .

وبذلك نستطيع أن نجزم بأن العقل البشرى لايهدى إلى الله على ماينبغى ولا يهدى إلى صالح البشر ولايقبل الناس هدايته لو استكمل أركان الهداية فثبت حاجة الناس إلى الأنبياء .

وكل جانب من الجوانب الستة لهذا الفصل يتسع القول فيه إلى مدى بعيد . ولكننا نضع رؤوس مواضيع توجه القارىء إلى الاستكمال الذاتى العقلى ، بجوانب الرأى خضوعاً لمذهبنا فى الإيجاز والوضوح .

***

الباب الثانى

أنا مسلم لأن :

١ – شخصية النبي محمد أعظم شخصيات التاريخ كله .

٢ – نبوة النبي محمد قامت الأدلة على صدقها .

٣ – رسالة النبي محمد تحمل فى أطوائها عوامل النجاح .

٤ – نظرات فى القرآن .

٥ – القضاء والقدر .

شخصية النبى محمد

أعظم شخصيات التاريخ كله

تمهيـــد :

أحب أن أتحدث عن شخصية محمد صاحب التعاليم والأنظمة الإسلامية، لا باعتباره نبياً مرسلا من السماء . ولكن محللا خلقه وخلقه ، وقوله وفعله ليتبين القارىء معى أنها شخصية تفردت عن شخصيات التاريخ كله، بميزات لم يلحق بها أحد من شخصيات التاريخ على اختلاف جوانب العظمة فيها .

وهو تحليل لهذه الشخصية العظمى يوجب على منكرى نبوته ،أن يعترفوا بنبوته !. فإن تعاليمه وشرائعه ليست آثاراً إنسانية .

وإذا قلنا إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو مجرد رجل زعيم مخلص وحاولنا دراسة شخصيته على ضوء ما وضعه من نظم وتعاليم ، وما قال وما فعل ، يثبت لدينا أن النبي محمداً ، أعظم شخصية فى التاريخ ، وأولى بكثرة الأتباع من كل زعيم سواه ، فإنها تبعية تفيد التابع الذى ينشد الكمالات الاجتماعية والارتقاء النفسى والذهنى .

نشأ محمد فرداً أمياً يتيماً من أبويه ، فقيراً وحيداً فى أمة سكيرة ، تسجد للأصنام . ويلهو أشرافها بالقمار ، وتغشى مجتمعها غمرة من الفساد والانحلال والعصبية والجاهلية .

وكانت الكتب السماوية السابقة تبشر بأن نبوة ستجىء . وكانت كل أمة تتمنى أن تجىء النبوة لرجل منها . وكان كل عظيم فى قومه يرجو أن يكون هو النبي الموعود . . . كان يرجوها من العرب أمية بن أبى الصلت ، وأبو سفيان بن حرب ، وعمر سيد ثقيف وغيرهم .

معاصروه وأهل جيله جميعاً ليس منهم إلا من اجترح موبقاً أو أكثر من موبقات مجتمعهم ، أما هو فقرر التاريخ وأكد أنه باعد كل مجتمعات جيله ، واعتكف فى المغارات (غار حراء) يفكر ويتأمل .والفكر والتأمل عنوان صفاء النفس وشفافية الروح .

ومع هذا التميز الروحى عن كافة معاصريه ومع أن كهان العرب : بحيرى النصرانى ، وورقة بن نوفل تنبأ له بالنبوة ، فإنه لم يتطلع إليها ولا انتظرها . بل فزع من التكليف وشكا أمره إلى خديجة فامتحنت هى الوحى النازل عليه — كما ذكرنا تفصيله فى غير هذا الفصل — فهو إذن لم يتطلع إلى النبوة ولا سارع إلى فرضتها حين واتته بل تريث وتوقف .

قال خصومه إنه مصاب بمرض نفسى وعلم النفس الحديث يقول : « إن الأمراض النفسية تنشأ دائماً من عدم إمكان التوفيق بين مطالب الحياة ورغبات النفس » .وهو لم يكن صاحب مطالب فى الحياة ولا رغبات نفسية كما يقرر ذلك تاريخه المعروف فقدثبت أنه نشأ زاهداً المال، زاهداً الترف، زاهداً الجاه ، زاهداً ما عليه قومه من التناظر والمفاخرة .

وقالوا — جحوداً وحسداً —إنه مجنون،وقد قال هو فى حديثه الصحيح : « عجباً لقريش تزعم أنى مجنون وأنا أزكم فى الشهر مرتين » .

والجنون ينشأ عادة عن الجفاف الدماغى أو يقترن به . وينشأ الزكام عن الرطوبة الدماغية ، فالمجنون لا يزكم، والرجل الذى يزكم فى الشهر مرتين لا يكون مجنوناً . . . هذه ناحية طبية تنفى عنه أكذوبة الجنون .

ومن الناحية النفسية يقول العلامة« فرويد » إن المجنون يرى كل شىء فى الداخل ولا يرى ما هو خارج نفسه .

وحياة النبى محمد وتعاليمه وشرائعه وجهاده وتعليمه أصحابه وقومه . وعنايته بكل شىء شخصى واجتماعى وسياسى وحربى ، كل ذلك ، يدل قطعاً على أنه لم يكن يرى كل شىء فى الداخل بل كانت عنايته بكل شىء فى الخارج .

ولقد قال « ويلز » الكاتب الإنجليزى المعاصر إن محمداً كان مريض النفس ، ونسى أن يقول وبسبب مرض نفسه دان له العرب وسمت حضارتهم على حضارات الدنيا وأخضعوا فى عهده وعهد خلفائه من بعده ممالك الأرض .

بينما قال الرجل الإنجليزى المنصف «توماس كارليل» فى كتابه (الأبطال) عند الكلام عن النبى محمد « الحقيقة الكبرى هى أنه رجل صادق ونبى مرسل » .

ونسى « ويلز » أيضاً أن يقول إن من قواعد علم الاجتماع ، أن يصنع مجنون من مجتمع متخرب وأمم واهنة مصابة بالكفر والبلاء والحيرة وجيل هو أشبه بالحطب اليابس الميت ، مجتمعاً فاضلا وأمة موحدة متماسكة مؤمنة مجاهدة ، فلسفتها تعلو على الفلسفات ، وحضارتها تكسف الحضارات . ويصنع من أحطاب الرذائل والوثنية ، نوراً وطهراً وتقوى .

الواقع أن من الظلم للقارىء ، ومن القصور فى حق شخصية النبى محمد أن يكتفى كاتب بمقال عن شخصيته ذات الجوانب المتعددة الغنية بسمات العظمة ودلائل السمو . لكنه توجيه يحمل على الاطلاع والتوسع فى قراءة حديثه وسيرته .

وقد أثبت التاريخ وكتب السيرة المحمدية أن النبى محمداً بعد أن دانت له الجزيرة ، وأحل الله له المغانم والفىء ظل هو هو محمداً . لم تتغير أخلاقه المتواضع الحنون العطوف المواسى لعشيرته الرقيق الوجدان والمشاعر ، الوضاء الروح ، الجائع تعففاً ، المحدث الفكه ، المازح لأصحابه وأهله . . . الشجاع . . . الشجاع الذى يكره سفك الدماء .

فإنه مع شجاعته التى تدل على مواقفه الحربية ومواقفه الاجتماعية ونصوصه التشريعية . لم يقتل فى حروبه بيده سوى رجل واحد هو « أبى ابن خلف » لأن أبياً أصر أن يقتل محمداً فطعنه النبى محمد طعنة فارس

خيبر . طعنه فى ترقوته من خلال درعه ومغفره فقتله . وهى فروسية ، أروع فروسية .

كان أول المتقيدين بتعاليم شريعته ونصوص رسالته ولم يكن يفرضها على قومه ، ويتحلل منها هو. بل كان فى شرعه من التعاليم ما التزم به وحده كقيام الليل (التهجد) فقد كان فريضة على النبى محمد ونافلة لسائر المسلمين .

وذكر خصومه الكاذبون أنه عليه الصلاة والسلام كان شهوياً . فإذا عرفنا أنه تزوج خديجة وهو فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الأربعين أم أولاد . عجوز لا تصلح لشاب ، يائسة من النسل وظل معها إلى أن توفيت فى الخامسة والستين من عمرها. ثم تزوج سودة بنت زمعة، تزوجها أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس وسنها ٥٥ سنة . ثم تزوج عائشة وهى البكر الوحيدة فى زوجاته وهى بنت صديقه وناصره أبى بكر ثم أم سلمة تزوجها ذات صبيان بعدما مات زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى وتزوج أيضاً زينب بنت خزيمة زوجة الشهيد عبيدة بن الحارث وهى فى الستين من عمرها .

فكل منصف يدرك أن زوجاته عليه الصلاة والسلام لم تكن — وتلك هى أعمار أكثرهن وظروفهن — لشهوة أو رغبة فى النساء . ولكن كانت ترضية لهن ومواساة عن فقد أزواجهن ، وإيواء وإعالة لمن لا عائل لها منهن وبعض زيجاته صلى الله عليه وسلم كانت لتوثيق الروابط بين القبائل المتنافرة. وتأليف القلوب بالمصاهرة . . وهى سياسة الداعى الرشيد .

***

عناصر الشخصية ومقوماتها ثلاثة أمور :

الخَلق . والخُلق . والذهنية .

وكل عظيم من عظماء التاريخ ، تمكن لنا دراسته مهما بعد زمنه عن زماننا متى عرفنا صفة خلقته وأخلاقه وذهنيته. وهذه كلها تعرف من أقوال العظيم وأفعاله . ومما وصفه به معاصروه .

خلق النبي محمد

روت الكتب المعتمدة أحاديث كثيرة من طرق مختلفة : عن خمسة عشر صحابياً فى وصف خلقته عليه الصلاة والسلام مما رواه أنس بن مالك أنه كان ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، وكان إذا ماشى الطوال طالهم وإن جالسهم كانت كتفه أعلى من جميعهم ، وأنه كان لا بالأبيض الأمهق ، أى الشديد البياض الخالى من الحمرة والنور . ولا بالآدم . أى الشديد السمرة وأنه كان أبيض نيراً مشرباً بحمرة ، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط .

ومن حديث أنس ومطابقة الرواة الصحابيين لروايته ومنهم أبو هريرة وهند بن أبى هالة وهو ربيب النبى محمد وابن زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها . وقد كان أبو هريرة ألزم الصحابة للنبى وأكثرهم مخالطة له . وكان هند ، وصافة مشهوراً ، نعلم أن النبى محمداً ، كان صحيح البدن ، مكتمل الفتوة ، لم تصبه أعراض الشيخوخة فقد بلغ الثالثة والستين وما فى رأسه من الشعر الأبيض غير عشرين شعرة ، فحيوية غدده عليه الصلاة والسلام بقيت على قوتها . ومن وصف هند بن أبى هالة وغيره لمشية النبى محمد نعلم أنه لم تصبه الشيخوخة فى أى مظهر من مظاهر حيويته ، فقد أجمعوا على أن النبى محمداً . كان إذا مشى يتكفأ — أى يمشى إلى قدام — كالسفينة فى جريها كأنما ينحط من صبب ، وأنه إذا زال (أى خطا) زال قلعاً ، يخطو تكفؤاً ويمشى هوناً ، ذريع المشية حين يمشى . أى واسع الخطو . والتقلع هو رفع الرجل من الأرض بقوة وهمة ، . . ومن صفة مشيته ، نعلم أنه لم تكن فيه خيلاء . ولم يكن به ضعف . فصاحب الخيلاء . إذا مشى يتمايل كالغصن زهواً . أو يضرب الأرض بقدمه عتواً ويرفعها ببطء تعالياً ؛ أو يجرها على الأرض صلفاً . وصاحب الضعف أو الخيلاء . كلاهما يجر رجليه على الأرض جراً .

وليس هذا أو مثله من صفات مشية النبي محمد .

وكان رحيب الصدر عريض الكتفين ، وهما صفتان ينفرد بهما الرجل الحليم القادر على ضبط نفسه . وإذا كان الرجل عريض الكتفين وغضوباً فهو غير رحيب الصدر أبداً فما اجتمعتا إلا وتوافر لصاحبهما الحلم وضبط النفس .

وفى حديث أنس بن مالك : ما مسست خزاً ولا حريراً ، . ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت كفه ممتلئة لحماً . وكان رحب الراحة سائل الأطراف — أى طويل الأصابع والأذرع والسيقان — منهوس العقب ، عظيم الهامة .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : لم يكن صلى الله عليه وسلم بالمطهم ، وكان سهل الخدين غير مرتفع الوجنتين . ولا بالمكلثم .

وعن جابر بن سمرة : وكنت إذا نظرت إليه . قلت : أكحل العينين وليس بأكحل .

وكان أدعج العينين أهدب الأشفار . وفى خبر هند بن أبى هالة : إذا التفت إلى أحد ، التفت معاً — أى التفت بكله — فإن الالتفات بناحية من الوجه أو الجسم ، فيه معنى قلة الاهتمام . ولم يكن من خلقه عليه الصلاة والسلام عدم الاهتمام بمحدثه أياً كانت مكانته .

وجاء عن حفيد النبي ، الحسن بن على رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، بادن ، متماسك ، معتدل الخلق ، سواء الصدر والبطن .

من هذه الصفات الشكلية للنبي محمد يتبين أنه كان مترفعاً رفيعاً ، جميل الطلعة مهيباً ؛ يتألف الناس شكله ووسامته ، فيه جاذبية شخصية ، برىء من التنافر الذى تنبو به عيون الناظرين . وفيه تناسق وتناسب تركيب تستملحه مشاعر الناس ، وتجتذب إليه من يلاقيه ، فإذا سمعه اطمأنت نفسه بإيمان صوته وثبات نطقه وبساطة مظهره وصدق عبارته وأدائه .

وروى أنس : أنه كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته .

وروت أم المؤمنين عائشة : أنه كان لا يفارقه فى حضر ولا سفر سواكه ومشطه ، وأنه كان ينظر فى المرآة إذا سرح لحيته .

ورأى رجلا أشعث الشعر فقال « ما كان يجد هذا ما ينظم به رأسه » ؟

ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال « ما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه » ؟

فهذا الحرص منه عليه الصلاة والسلام على أن يكون القدوة لأتباعه فى تعليم النظافة ، والمحافظة على حسن المظهر ولياقة الهندام . مع ما تبين من تناسق تكوينه الجسمانى يعطى أروع صورة يجب أن تكون للزعيم أو رئيس القوم ، فإن أحداً لا يتصور زعيماً أعور أو أعرج أو بارز البطن أو منحنى الظهر أو صغير الرأس قصير القامة ضامراً أو ضيق الصدر عريض الأكتاف أو متهدل اللحم خشن المظهر مهلهلا ، أو متأنقاً مسرفاً إلى آخر الصفات التى تطعن على شخصية صاحبها الشكلية .

ولا يرد على ذلك بزعيم مثل غاندى ، فتلك زعامة روحية ، ليس فيها جانب اجتماعى وهى أيضاً تقوم على المواقف السلبية . لا على إيجابية محمد الكاملة وقيادته الشاملة لكل مرافق الحياة للمؤمنين وللدولة الإسلامية التى أسسها والجيش الإسلامى المظفر الذى أنشأه .

من هذا نستعرض الصفات الخلقية للنبى محمد فنعلم من كتب السيرة ومن كتب الحديث أنه اجتمع له من الأخلاق الإنسانية العالية ما لم يجتمع لسواه من عظماء التاريخ ، فإن عظمة رجال التاريخ تقوم دائماً على جانب بعينه ، فالبطش والتهور الذى يسمى شجاعة ، والقسوة والإسراف فى القتل كانت أساس عظمة هولاكو وتيمورلنك ونابليون ، والحب والطيبة والشفقة كانت أساس عظمة بوذا النبى . أما أن نجد عظمة تقوم على البطولة والشجاعة والحب والشفقة والعفو والحزم . والتكليف والتيسير مثل ما ستقرأون . فلا . . ثم لا .

لقدكان من خلقه عليه الصلاة والسلام أن لا يشق على أصحابه حتى أنه حين يتحدث كان حديثه لو عده العاد لأحصـــاه . أى أنه لم يكن يدغم الحروف ولا الكلمات ولا يسرع فى قوله وكان يكرر ما يقول ثلاثاً حتى يستطيعوا أن يفهموا ويحفظوا ما قال ، وكان ينهاهم أن يشقوا على أنفسهم بالعبادات أو يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم مبالغة منهم فى التدين . وكان يأمر قواد جيوشه بالرفق فى السير بحيث يقدر عليه أضعفهم ،ويحفظ به قواه أقواهم وكان رحيما بأصحابه ، باراً بالإنسانية كلها . صبوراً على الأذى .

روى أنه لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم وقف عمر بن الخطاب يبكى ويقول : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله » . لقد دعا نوح على قومه فقال : « **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً** » (١) ولو دعوت مثلها علينا لهلكنا من عند آخرنا فلقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً : فقلت : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . فهذا غاية الحلم بل فوق غاياته ، حلم وسعة صدر وعظمة نفس ، على قدر حظ العظيم أو الزعيم منها ، تكون زعامته وعظمته وأما رفقه بالإنسانيةوبره بها فقد أصابت قريشاً سنة قحط وكانوا فى حرب معه صلى الله عليه وسلم فجمع الأقوات وأرسلها إلى زعيمهم أبى سفيان . فهل سمع أحد بمثل هذا من محارب لمحاربيه ! ؟

ويتجلى رفقه بالإنسانية فى شريعته فيما يتعلق بالرق فإنه أوصى بالرقيق جميعاً لا فرق بين مصدق به ومكذب ،وجعل عتق الرقيق عاماً ،غير قاصر على المسلمين من الأرقاء ، بل حق شائع لكل مرقوق .

وهذا الذى جمع الأقوات فأرسلها إلى قريش وهو على إبادتهم أوتركهم تقتلهم المجاعة قدير ، هو بعينه الذى منع القرشيون عنه القوت — قبل ذلك

(١) نوح :٢٦

وهو مع أصحابه وأهله فى شعاب مكة، وتعاهدوا العهد المعروف فى التاريخ على أن يتركوه وأهله وأصحابه يموتون جوعاً ، وعلقوا معاهدتهم بالكعبة حتى دفعت النخوة فتياناً من قريش فخرقوا الصحيفة وألغوا المعاهدة . ومع ذلك لم يجزهم على سيئاتهم بسوء بل أحسن إليهم .

وهو الذى جاءه قاتل عمه حمزة ، ليسلم ، حمزة الذى كان أعز شباب قريش وأسماهم مكانة ، ولا ضريب له فيهم والذى قيل له وهو عائد من صيده إن أبا جهل لطم محمداً فمضى إلى الكعبة تواً لفوره فلطم أبا جهل واستعد لحرب تقوم بينه وأتباعه من الشباب الذين يتزعمهم وبين قوم أخيه أبى جهل ، وحمى الرسول ونصره وأعز كلمته ، مع أنه لم يكن قد آمن به بعد . . !

جاءه قاتل حمزة فعرف الغضب فى وجهه ولكنه لم يزد على أن حول جهه عنه وقال: أغرب عنى ، لا ترنى وجهك . وكان على أن يقتله قدير وصاحب حق شرعى وعرفى .

وهو الذى كان يصلى فجاءه عقبة بن أبى معيط ولف ثوبه حول عنقه فخنقه خنقاً بالغاً ، حتى قام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول **« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله »**(١) .

فصبر على عقبة بن أبى معيط وعلى سواه . ولم تثنه وقاحتهم ولا حملته على الاعتزاز بالعصبية الجاهلية ، ولو شاء لنصره قوم من أهله حرباً . وإن لم يكونوا معه على رأى فذلك خلق العرب . ولكن محمداً لا يستعين المشركين على حماية شخصه .

وتروى من وجوه عدة أنه عاد مع أصحابه من غزوة فأدركتهم القائلة فى وادكثير الغضاة فنزلوا ليستريحوا ونام رسول الله تحت شجرة علق بها سيفه . ونام أصحابه متفرقين فإذا النبى يدعو أصحابه وإذا عنده أعرابى مشرك فقال النبى : إن هذا الرجل اخترط على سيفى وأنا نائم ، فقال: من يمنعك منى ؟فقال له النبى : « الله » — ثلاثاً ، فسقط السيف من يده فأخذه النبى

---

(١) غافر : ٢٨

وقال: من يمنعك منى ، فقال الأعرابى :كن خير آخذ، فعرض عليه الإيمان بنبوته فأبى .. فخلى النبى مع ذلك سبيله.ولو قتله لما كان إلا جازياً له بفعلته.

ولا يجهل أحد قرأ تاريخ بعثة محمدوتاريخ العرب ما فعل به أهل مكة وما صبوا عليه وعلى أصحابه من أنواع الإيذاء . وأنه كان يتحرق ألماً لما يصيب أصحابه صابراً على مايصيبه هو .فماذا فعل بعد أن قدر على القصاص منهم — وصار فيهم أميرهم وسلطانهم والقائد الظافر بهم ؟

فتح مكة فى حرب التأديب التى أعلنها على قريش حين نقضت حليفتها بنو بكر عهدها مع بنى خزاعة . حلفاء النبى . فوقف فيهم خطيباً . قال: « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟» وكان طبيعياً أن يظنوا أنه معلق لهم المشانق وموص بالسيوف البواتر تحز أعناقهم جزاء ما قدموا له من إساءات ولرسالته من عقبات . ولكنهم وهم أعلم بخلقه وعلو نفسيته .قالوا: خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم . قال: « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وعفا عنهم بهذه القولة عفواً شاملا أفرادهم جميعاً ، وجرائمهم جميعاً .

وكان محمداً كريماً زاهداً . ولم يكن فقيراً . فهو فى مطلع شبابه يتجر فى مال السيدة خديجة ثم هو زوجها المتصرف فيما تملك ثم وريثها.ثم صاحب الفيء فى الحرب . وكم غنم غنائم كثيرة ، ولكنه مع ذلك كان يجوع يوماً ويشبع يوماً . وكان يرتاح إلى هذه الحياة حتى يضرع إلى الله إذا جاع ويشكره إذا شبع !!! أما كرمه فعليه آلاف الدلائل وحسبك أنه ربح من غنائم الحرب خمس أسلاب الأمم التى غزاها وانتصر عليها وهى كثيرة ثم لم يشبع من خبز الشعير كما اتفق الرواة عليه .وهذا الخمس يساوى ثروة أعظم عربى فى عصره عليه الصلاة والسلام أو يزيد كثيراً . وصفة الكرم فيه ، ضرورة للنبوة لأن النفس تميل إلى أسباب الترف وهى ما يوفره المال والثراء لنفس ذليلة أسيرة الأمانى الكواذب الدنية والمطامع الحقيرة المادية . أما النفس الزاهدة القوية على مطالب الحياة ، والمستغنية عن ضروراتها ، فهى النفس التى لا تقهر ولا تغلب ، ولا يعزها شىء من غايات المجد . فعلى

هذا القالب أراد النبي محمد أن يصوغ المسلمين . فما أتعس المسلم الذى تستعبده شهوة المال ، ويقهره حب الثروة وما أشد مجافاته لسيرة نبيه ، وبعده عن أصل من أصول الإسلام ، وإن حج وصلى وصام . . . ! !

وهذا النبي الذى له فى قومه وأصحابه وأتباعه منزلة التقديس ، كان يخصف نعله ويخيط ثوبه بيده ويحلب شاته ويعمل ما يعمله الرجال فى بيوتهم كما روى عن عائشة أم المؤمنين . . . وذلك لتواضعه وزهده وعلو نفسه وكان لا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى لهم حاجاتهم كما رواه النسائى والحاكم ، وكان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم (رواه النسائى) .

أما دليل شجاعته فهو مقاتل فى حرب الفجار وعمره عشرون سنة .

وقوله «وددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل».

وهاكم دليلا على شجاعته يفوق كل دليل ، حين التقى المسلمون وكفار قريش فى غزوة حنين كان المسلمون يفوقون خصومهم عدداً فظن المسلمون أنهم غالبون وأعجبتهم كثرتهم . فوقعوا فى كمين فانهزموا . وثبت النبي محمد فى عشرة فقط من أصحابه .ومن الطبيعى أنه ثبت محارباً يقوم بمهمة جيش كامل ولم يثبت متفرجاً ولا ثبت ليؤخذ أسيراً أو يقتل . وكان ثباته وإهابته بالمسلمين أن يجتمعوا إليه ، داعياً إلى تجمعهم ثم انتصارهم وفى هذه الموقعة أصابه عليه الصلاة والسلام أذى كثير . هو أبلغ الأدلة على شجاعته الحربية وعظمة قيادته ؟ وهو موقف لو تعرض لمثله نابليون أو شارلمان أو غيرهما لما ثبت دقيقة كاملة بعده ، أو يقتل أو يؤسر .

وهذا الفارس الشجاع الزعيم المطاع جاءه يهودى يوماً يطالبه بدراهم كان قد رهن عليها درعه لديه ، فأمسك اليهودى بتلابيبه حتى كاد يخنقه فسل عمر سيفه وقال : دعنى أقتله يا رسول الله . فأجابه النبي محمد : دعه يا عمر فإن لصاحب الحق مقالة . وقد كان النبي محمد ملكاً فى رأى الفقهاء جميعاً وإنما ينفون عنه صفة الملك المتجبر فهل سمع الناس أن ملكاً أو عمدة قرية

يطالبه أحد رعاياه بهذه القسوة ثم يضبط نفسه حياله ، ويمنع الأذى عنه ويعتذر له كما اعتذر النبي عن اليهودى لمعر !؟

وكان أيضاً من سجاياه النبيلة أن لا يواجه أحداً بما يكره وإذا بلغه أمر يسوءه عليه الصلاة والسلام لا يقول قال فلان . ولكن : ما بال قوم يزعمون كذا . مثلا .. حتى لا يحرج صاحبه أو يسيئه .

إجمال :

يمكن لمن شاء معرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يراجع القرآن فهو كما قالت عائشة أم المؤمنين :كان خلقه القرآن ..برضاه يرضى وبسخطه يسخط . . علمه ربه كيف يمشى وكيف ينام وكيف يحارب وكيف يسالم وكيفية سائر الآداب الاجتماعية كما زخر القرآن بتفصيلها وتوضيحها .

***

ذهنية النبي محمد

رأى القراء من عرض صفاته الخلقية والأخلاقية ، كيف أنه يسمو على كل شخصيات التاريخ ونحب قبل أن نتكلم عن ذهنيته العظيمة المنيرة أن نقول استطراداً كلمة لابد منها ، هى أن النبي محمداً لا فضل لمجتمعه فى تكوين ذهنه . ولا فى أى صفة من صفاته النفسية الممتازة ، فإن محمداً لم يخرج من مجتمع قوم فلاسفة كان فيهم نظراء أرسطو وأفلاطون ، ولابعث من مجتمع قوم مؤمنين ،ولا من بين قوم أهل كتاب . ولا من مجتمع كانت فيه بطولة كبطولة الإسكندر . فتكون بيئته قد منحته تلك الصفات ولم يكن له معلم ولا مرشد فكل مميزاته إذن كانت له بالفطرة لا بالكسب ،وفطرته هى التى عزلته عن شرك العرب وباعدت بينه وبين عباداتهم الوثنية ، وعكفت به فى غار حراء ليكشف ويتأمل ، وما أحسن قول«كارليل»فيه :

« كان عصره وقومه حطباً يابساً ميتاً ، أصابه هذا الشهاب فألهبه وأشعله وأضاء به ناراً مقدسة هادية » .

لم يخلق الحطب اليابس ، الشهاب المحمدى ، ولكن الشهاب خلق من الحطب ناراً وطهراً وتقوى ،وما أحسن قول «كارليل » أيضاً فيه :

« الحقيقة الكبرى هى أنه رجل صادق ونبى مرسل » .

وما أحسن قول فيلسوف الألمان وشاعرهم الأكبر « جوته » . عن شريعة محمد :

« إذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون ! .

ويعلن لنا تاريخ النبى محمد أنه لم يتأثر خطى أحد قبله ، ولا انتهج منهاجاً لعظيم سبقه ولا مضت شريعته على نسق الشرائع القديمة فيكون مقلداً أو ناقلا .

بل جاء لمجتمع متخرب فأقام قواعده على مبادىء الحق والخير والفضيلة ولنفوس محطمة . فشاد فى جوانبها مجد الإنسانية النبيلة .

واعجباً للذين يطعنون على النبى محمد .

رجل محق من المجتمع الذى بعث إليه مفاسد الرق ومفاسد الخمر والزنا ومفاسد الوثنية . ومنح قومه — وكل المؤمنين برسالته من غير قومه — المجد الدولى والكرامة الشخصية . ونشر العدالة الصحيحة . وأقام مكارم الأخلاق بأجمل ما تصورها أحلام الفلاسفة ، وجاء كتابه بتمجيد الله والتحريض على التعاون الإنسانى والترغيب فى الإحسان . وترقية الروح وتحريم مايؤذى البشر فى أجسامهم أو معنوياتهم وبيان أحكام تدبير المنزل وأحكام سياسة المدينة وأحكام سياسة الدولة . وأحكام سياسة الإنسانية ومدح الأنبياء جميعاً بلا تفريق بين أحد منهم وحدث الناس عن الغيب الآخر : القيامة والحشر والجزاء . ودعا إلى الكرم والسخاء وكان قدوة فيها لقومه . والرفق والعفو ومقابلة الإساءة بالإحسان ومحبة الله مع إجلاله .

هذه هى مطالب القرآن ومقاصده . أفلا تشهد للداعى إليها بالنبوة ؟ !

***

ونعود إلى الكلام عن العنصر الثالث من عناصر الشخصية المحمدية وهو ذهنية النبي محمد ، وكان يكفينا أن نقول فى إثبات تفوقها على الأذهان جميعاً أنها قاومت كيد العرب لدعوته ، ومحقت وسائلهم وذكاءهم اللامع المدبر لقتله . وساست دولة الإسلام فى عشرين سنة حتى مات صلى الله عليه وسلم بعد ما حج معه فى حجة الوداع ١١٤ ألفاً من المسلمين !

ولكننا سنذكر وقائع معينة ، من وقائعه الذهنية العديدة بحيث لانطيل :

حين اشتدأذى قريش لأصحابه ، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، لأن ذهنيته رأت أن لقوة الاحتمال النفسية والجسدية حداً ، وأن أذى قريش لهؤلاء المسلمين المستضعفين يتزايد ، فأمرهم بالهجرة حتى لايفتنهم المشركون عن دينهم واختار عقله القوى مملكة الحبشة ، لأن ملكها كان من فريق النصارى المؤمنين بنبوة عيسى ولم يكن من المؤلهين له عليه السلام . وذلك التوافق فى المعتقد بين رأس الحبشة وبين الفارين إليه بعقائدهم كفيل براحتهم وأمنهم . وذلك هو الذى كان . عندما كلم زعماء المشركين النجاشى فى أن يسلم هؤلاء المهاجرين فناقشهم فلما علم بأمر دعوة النبى محمد وأنه ينفى ألوهة عيسى قاس على صدقه فى هذه ، صدقه فى غيرها وعلم أنه الذى بشرت به الأناجيل فأوسع لهم من رحابه وأرسل إلى النبى الكريم رسالة كريمة وآمن به فى بعض روايات أهل الحديث حتى صلى عليه النبى محمد صلاة جنازة الغائب يوم مات .

حين ائتمرت قريش بما مكر لها أبو جهل وهو أن يجمعوا من كل قبيلة شاباً . فيجمعون مائة يقفون على دار النبى فإذا ما خرج قتلوه قتلة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل ، فترضى قومه بنو عبد مناف بقبول الدية . علم بما مكروا إذ أوحاه الله إليه فأمر علياً رضى الله عنه بالبقاء فى فراشه ملتفاً ببردته ليطمئنوا على وجوده فى بيته وأنهم مصبحوه بمكرهم السوء . وخرج عليهم فى الليل وقد عموا عنه . فلو لم يسعف ذهنه بفكرة الهجرة ، ثم أحكمها بترك بديل ملتف ببردته لانتبهوا وهم يرقبونه فى نومه إلى عدم وجوده فلحقوا به قبل أن يخرج من طرقات مكة .

لجوؤه عليه الصلاة والسلام إلى حجاج الخزرج وعرضه الدعوة عليهم واختياره لهؤلاء القوم لعلمه أنهم أوفى العرب جميعاً وأشدهم فى الحروب بأساً وأن اليهود يتوعدونهم بنبى جديد سيظهر فيتبعونه هم ثم يغلبون الخزرج معه ... ثم انتظاره إلى العام الثانى حتى وافى موسم الحج فجاءه الستة الذين قبلوا دعوته بستة معهم من سادة أقوامهم ، ثم بيعتهم له التى وضع الرسول صيغتها وهى « أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم » ثم اصطحابه عمه العباس وهو مشرك ومقالة العباس المشرك لهم « إن محمداً منا حيث قد علمتم قومه منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا — أى الشرك — فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه » .

وسواء أكان النبى هو الذى اقترح على العباس مرافقته أو أنه وافق فقط على اصطحابه . فتلك لاشك من آثار ذهنية عظيمة عمدت إلى أن تبين للأشياع الجدد أنهم لايتبعون مستضعفاً يستظهر بهم . ولكنهم يتبعون عزيزاً منيعاً ، يفضل الاعتزاز والاحتماء بأتباع عقيدته ، على الاعتزاز بالمخالفين له من أهل عصبيته .

وفى سيرة النبى محمد أروع من هذا الذى ذكرت وأمجد . ولكنها أمثلة تحضرنى ولعلها تكفى إلى التوجيه إلى قراءة سيرته عليه الصلاةوالسلام وتكوين الملكة لدى القارىء التى يستطيع بها دراسة ما يقرأ من السيرة دراسة فلسفية واستخراج دلالات ما زخرت به الكتب سرداً بدون أن تستخرج دلالته منه ، أو تجعل الوقائع والحوادث ، وسيلة إلى تحليل الشخصية وتعليل فلسفة محمد وعبقريته فى تطبيق ما أوحى به إليه . فإن من مزايا الرسالة المحمدية . أن الرسول الأعظم علمها لأصحابه وخرجهم فيها أساتذة فاقهين فاهمين .

إنى لأدعو كل شاب يريد المجد ويطمح إليه أن يقرأ ويدرس سيرة النبى محمد لتتأثر بها مشاعره وخلائقه ويحتذيها ... فإذا هو ماجد فى معاصريه .

***

نبوة النبى محمد

قامت الأدلة على صدقها

ذكرنا فى فصل « شخصية النبى محمد » أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو لم يكن نبياً لوجب أن يتخذه الناس كافة إماماً لهم يتبعون شريعته . . لأن عظمة تعاليمه ، تؤدى بالفرد إلى ترقية ملكاته وإلى التسامى ، وتمشى به وفق القانون الأخلاق ، وتكفل له راحة الضمير .

كما تؤدى بالمجتمع إلى الارتقاء ، بدليل أنها كفلت للعرب فى العهود الأولى للإسلام — وهى استمساكهم بالتعاليم وحرصهم على الشريعة — مجداً دولياً لم تنله أمة . وأعظم حضارة علمية وفكرية . لم يلحق شأوها أحد !

كما تؤدى تعاليم النبى محمد إلى التفاهم والتعاون الاجتماعى والسياسى بين الجماعات الإنسانية .

وقد شهد بهذا كثيرون من الفلاسفة ، حتى الذين لم يعلنوا إسلامهم وفيهم «تولستوى» ، و« جيته » شاعر الألمان وأكبر فلاسفتهم .

وفى هذا الفصل نقيم الأدلة على صدق نبوة النبى محمد ، وأن تعاليمه إلهية وشريعته من السماء .

فنسأل أنفسنا بعد الذى ثبت لدينا فى فصل « هداية العقل البشرى » :

١ — للنبوة شروط .. فهل تحققت فيه صلى الله عليه وسلم ؟

٢ — وللنبى الحقيق ، أخلاق خاصة . . فهل كانت له ؟

٣ — هل الوحى الذى نزل عليه تطابق صفته صفة الوحى النازل على غيره ؟

٤ — هل يقبل العلم صفة الوحى المحمدى ؟

٥ — هل توجد شبهة فى أنه ادعى النبوة لغرض ذاتى ؟

٦ — هل جاءت رسالته فى زمن يحتاج الناس إليها ؟

٧ — هل صفاته — عدا أخلاقه — كانت صفات نبى ؟

تحقيق الاجابة :

شروط النبى — فى النبى الحقيقى — أن يصحب إعلانه لدعوته إظهار معجزات خارقة لنواميس العادة .

وقد أظهر للنبى محمد من هذه المعجزات كثيراً . ووقع من التبشير به حين ولادته كثير لم يقع مثله لسواه من الأنبياء ، وقد علمنا نحن أبناء العصور التالية المعاصرة ، صحة هذه الأخبار بالنقل المتوفرة له شروط الصحة والاستدلال .

فأخبر النبى محمد عن الأمور الغيبية الماضية والمستقبلة .

وهذا خرق للعادة من نوع لا يتيسر إلا لنبى .

وفعل من المعجزات الأخرى : كرد العين الضائعة وإبراء الساق المصابة وشفاء المريض بالاستسقاء وشفاء عين على رضى الله عنه من الرمد بأن تفل فيها ، وغير ذلك ، أفعالا كثيرة .

وظهر حين ولادته من البشارات : سقوط إيوان كسرى وتساقط النجوم ، وخمود نيران فارس ، وغيض بحيرة ساوة .وفيض وادى السماوة ببادية الشام . وظللته الغمامة قبل البعثة .

وعرفه بحيرى الراهب النصرانى ، بهذه العلامة الأخيرة كما روته كتب السيرة المعتمدة .

وعرفه رؤساء ديانات النصارى واليهود بما هو مذكور عنه فى كتبهم من الأوصاف . وآمنوا به كما ذكرنا فى فصل « الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية » .

ثم جاء النبي محمد بمعجزة أخرى أقوى من كل تلك المعجزات وأخلد وهي القرآن .

ومن ميزات نبوته أنها لم تستند إلى المعجزات التي هي خرق النواميس وإنما جاء بتلك المعجزات ، لأنه تقرر في أذهان الناس ضرورة مجيء النبي بمثلها ، فمن الثابت تاريخياً أنه كان ينهاهم عن طلب المعجزات للاستدلال بها على صدقه مع قدرته على إظهارها . بل ومع أنه أظهر منها ما لم يظهره سواه وما يكفي جداً للإيمان به .

وكان كلما طالبوه بمعجزة ، صرفهم إلى التفكير واستعمال العقل في تمحيص ما يدعوهم إليه ، واستخراج دلالته على صدق دعوته .

وقول المشركين وقول المبشرين إن محمداً كان يتعلم القرآن وما جاء فيه من قصص ، من أهل الكتاب ، قول مردود لأنه :

كيف كان يتعلم منهم ولم يقع في أخطائهم وخرافات دياناتهم ؟

وكيف لم ينقل عنهم فساد عقائدهم في ألوهة عيسى وصلبه والتثليث ؟

فإن كان معلمه وثنياً فكيف علمه الإقرار بنبوة موسى وعيسى ؟

وإن كان يهودياً فكيف اعترف بنبوة عيسى ؟ واليهود لا يعترفون بنبوته عليه السلام ! ثم كيف لم يعرف أحد تردده على هذا المعلم ؟

وكيف لم يرو عنه أحد من خصومه — على كثرتهم — أنه كان يفضل أحداً من أصحابه على أحد فتقوم الشبهة على أن هذا هو معلمه ؟

ثم لماذا آثر هذا المعلم أن يختفي ، فلا يدعي هو النبوة . ويترك لتلميذه شرف النبوة وشرف الزعامة ؟ ؟

ثم إن خصومه قالوا عنه عليه الصلاة والسلام :

إنه كان يعلمه حداد رومي وإنه مخبول ذو رئي من الجن وإنه شاعر ..

فأي هذه الصفات يصرون عليها ! ؟

إنها شبهات متهافتة ، لا تستند ولا إلى الظن وإنما مبعثها الحقد والجحود وقد قال القرآن لهم : فليأت شعراؤكم بمثل قرآنه بل بأصغر سورة فيه .

وقال لهم : فيكم مخبولون وأصحاب رئى من الجن ، فاجتمعوا معهم وجيئوا بأصغر سورة منه ! وقال لهم : فيكم أهل كتاب من الذين تزعمون يعلمه أحدهم ، فليجتمعوا جميعاً وليجيئوا بأصغر سورة منه ، فلم يستطع ذلك من طوائفهم أحد ! .

وطلب المشركون من النبي محمد أن يكون له بيت من ذهب . وهذا ليس من خصائص النبوة بل من خصائص الملوكية .

فكان طبيعياً أن لا يجيبهم إلى مثل هذا الذى لا إعجاز فيه .

ومن معجزاته ، المعراج والإسراء . وقد قال المبشرون : كيف تؤمنون بها مع استبعاد وقوعها عقلا ؟ ونقول لهم : إن استبعاد حدوث الشيء عقلا لا يطعن فى وقوعه . وإلا فكيف حملت العذراء بعيسى دون رجل ؟ ؟

فثبوت المعجزات للنبي محمد صلى الله عليه وسلم يجعل شروط النبوة متوافرة له . . فننظر فى أخلاقه :

نقل العلامة « سبيل » فى مقدمة ترجمة القرآن عن « اسبان همبس » المسيحى ،عدو محمد ومنكر رسالته، فى الصفحة السادسة طبعة سنة ١٨٥٠ ميلادية ما يأتى فى صفة النبى محمد :

« إنه كان حسن الوجه وذكياً وكانت طريقته مرضية، وكان الإحسان إلى المساكين شيمته . وكان يعامل الكل بالخلق الحسن . وكان شجاعاً على الأعداء . وكان يعظم الله تعظيما كبيراً . وكان يشدد على المفترين والذين يرمون البرءاء ، والزناة والقتلة ، وأهل الفضول والطامعين وشهود الزور .

« وكانت كثرة وعظه فى الصبر والجود وصلة الرحم والبر والإحسان وتعظيم الأبوين وتوقيرهم وتكريمهم . وكان عابداً مرتاضاً حتى الغاية » .

وقد بينا نحن أخلاق النبى محمد عند الكلام عن شخصيته .

فهذه الأخلاق هى بلا شك أخلاق النبى الصادق، لأن عبادته وتعظيمه لله دليل إيمانه برسالته ودليل خوفه من الله ، وضمان على أنه لم يكذب على ربه . ومعاقبته للمفترين وشهود الزور والذين يرمون البرءاء واشتداده عليهم ، دليل على أنه يمقت الكذب . واشتهاره بالصدق استدل به النجاشى على نبوته حيث قال لأبى سفيان : هل علمتم عليه الكذب ؟ قال : لا . قال : « ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

***

صفة النبى محمد

أجمعت كتب السيرة على وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه كان صحيح العقل سليم الحواس قوى التمييز ثاقب الفهم . نافذ البصيرة فى كل حالاته متصفاً بكل الكمالات العلمية والعملية ومحاسن النفس والبدن والنسب والوطن (المراد بمحاسن الوطن الاعتدال الإقليمى) .

ولو وجد خصوم دعوته ، أن فيه صفة تطعن على صحة نبوته لأعلنوها ولا يقال : قد رموه بالصرع ! فذلك ناشىء من الحقد ، فإن المصروع لا يرتضيه أحد قاضياً وقد ارتضته سادة قريش للقضاء بينهم فى أخطر شأن لديهم . شأن الكرامة والسيادة حين تنازعوا على وضع الحجر الأسود وهم يبنون الكعبة . ولولا مكانته وقوة شخصيته ورجاحة عقله ونفاذ فهمه — وهى شروط القاضى — لما قبلوا الاحتكام إليه .

وكان من صفاته كما قدمناه ، أنه لا يعلو صوته عند الغضب فهذه الصفات الطبيعية هى التى يجب توفرها فى النبى ، ليؤمن بسببها أن يسهو عن الذى يوحى إليه ، أو يسىء فهمه ، أو يختلط عليه تمييز مقاصده.

أو يتأوله على غير ما أريد به ، أو يضعف عن احتمال مسئوليته أو ينفر الناس عنه : « **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** »(١) .

فتحققت فيه صلى الله عليه وسلم صفات وأخلاق النبي وشروط النبوة .

فلننظر هل طابق ما أوحى به إليه ، ما أوحى إلى النبيين من قبله ؟

وقد فصلنا ذلك فى فصل « الإسلام مصدق لما بين يديه » .

ثم لننظر هل يقبل العلم صفة الوحى المحمدى ؟

كيف كان يوحى إليه :

روى عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزل الوحى على رسول الله ، يسمع عند وجهه كدوى النحل . وعن عائشة أم المؤمنين ، أن الحارث ابن هشام سأل رسول الله : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى » ونزل عليه الوحى بعد ذلك بغير ذلك . فنزل عليه فى بيت كعب بن الأشرف اليهودى يخبره بغدر كعب وأنه يقصد إلى قتله غيلة (بأن يدحرج عليه صخرة من فوق جدار بيته) . فنهض هو وأصحابه متوجهاً إلى المدينة . ولم يعرف أحد منهم بنزول الوحى لأنهم لم يروا علاماته . وكذلك نزل الوحى يوم بدر .

أما أنه كان يسمع عند وجهه كدوى النحل فهذا مطابق لنظرية اللاسلكى ، فإن الإشارات اللاسلكية ترسل بواسطة الاهتزازات وليست كلاماً ولكن هذه الاهتزازات تعبر عن كلام معين محدد لا يستبدل به سواه ، ولا تسمعها المحطات الأخرى الواقعة فى الطريق بين محطتى

---

(١) آل عمران : ١٥٩

الإرسال والتلقى ، ودوى النحل هو صدى الاهتزازات ، ولا يمكن أن يشبه صوت الاهتزازات شيئاً غير دوى النحل .

فلعل هذا الوحى الذى يشبه دوى النحل . كان الوحى اللفظى الخاص بالقرآن .

وأما أنه كان يتمثل له الملك رجلا فيكلمه، فالكيمياء الحديثة استطاعت أن تبخر أكثف العناصر فتتحول إلى عناصر لطيفة شفافة لا ترى ، واستطاعت أن تحول العناصر الشفافة إلى عناصر كثيفة جداً .

فالملك الذى هو نور شفاف يمكن على هذه القاعدة أن يتكشف، وكل من له أدنى إلمام بالعلوم الطبيعية الحديثة والفلك والكيمياء . يجد أن تمثل الملائكة رجالا ، عمل عادى جداً . سهل جداً . وأما الوحى الذى نزل عليه فى بيت كعب اليهودى وفى يوم بدر فهو الإلقاء فى قلبه ، ونحن البشر العاديين يلقى فى قلوبنا الأمر أحياناً فإذا هو يقع كما أدركناه تماماً . فأولى بنا أن نسلم بهذا للنبى . فالوحى المحمدى يقبل العلم صفته ، ويبرهن على صحته .

هل توجد شبهة فى أن له غرضاً ذاتياً :

الذى ذكرناه فى هذا الفصل مثبت لصدق نبوة النبى محمد وفيه كفاية . ولكننا نزيده فنتساءل هل كانت للنبى محمد غاية ذاتية ؟ ؟

هل كان كذاباً . فكذب بطبيعته على الله ؟ حاشاه صلى الله عليه وسلم فقد عرف القارىء مائة دليل على اشتهاره بالصدق والأمانة .

فهل كان واهماً أنه يوحى إليه ؟ ؟

عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن خديجة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل كما كان يصنع . فقال صلى الله

عليه وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى ،فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم. قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .فتحول صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى . قالت : هل تراه ؟ قال: نعم ! قالت : فتحول فاجلس فى حجرى . فتحول صلى الله عليه وسلم فجلس فى حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم !

فأدخلت النبى صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها .قالت: هل تراه؟ قال :لا .قالت : يا ابن عم.. اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

فتحوط النبى محمد مخافة أن يكون هذا شيطان يتمثل له وعدم مسارعته بإعلان دعوته حين جاءه جبريل أول مرة فى الغار .

ثم مسايرته لنص ما علمه جبريل فى البدء بإنذار عشيرته الأقربين.
ثم الجهر بالدعوة حين أمر من الله بأن يجهر .

كل ذلك ينفى أنه صلى الله عليه وسلم كان واهماً .

ولو كان النبى محمد واهماً لما أيده الله.ولا استطاع إعجاز أهل عصره جميعاً وأهل العصور بعد عصره جميعاً .

ولو كان كاذباً لما كان يخاف الله ويعظمه ، ولما كانت شريعته تسمو على كل الشرائع التى جاء بها الأنبياء ،والتى جاء بها الفلاسفة جبابرة القول .

ثم لنسأل أنفسنا : هل جاءت الرسالة المحمدية فى زمن يحتاج فيه الناس رسالة إلهية ؟ الجواب : نعم !

فقد كان العرب حين بعثته صلى الله عليه وسلم ، على الوثنية وعبادة الأصنام . وكان الفرس على عبادة النار وطائفة منهم تعبد إلهين كما كانوا على عادة وطء الأمهات والبنات والأخوات ، وكان التتار يخربون البلاد ويظلمون العباد ، وكان الهنود على عبادة البقر والسجود للشجر !

وكان اليهود على جحودهم لنبوة عيسى وتحريفهم لكتابهم كما برهنا عليه . وكان النصارى على التثليث وعبادة الصليب وصور القديسين .

فأية حال أدعى من هذه الحالة إلى بعثة نبي ؟

لقد كان من الضروري أن يجيئهم نذير ، تصديقاً للآية القرآنية الكريمة :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، قد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير »(١) .

فمنطق التاريخ ومنطق العلم وحكم العقل ، تتضافر على تأييد صدق نبوة النبي محمد .

***

---

(١) المائدة : ١٩

رسالة النبي محمد

تحمل في أطوائها عوامل النجاح

لو لم تكن رسالة النبي محمد إلهية . . لماتت وئيدة .

ولو لم تكن شرعته وتعاليمه صلاحاً كلها وخيراً كلها . لاختفت وليدة ، وذلك أنه :

١ – بينما ظهرت المسيحية فوجدت تمهيداً لنجاحها في حكومة الرومان التي لمت شعث القبائل المختلفة تحت لوائها فجعلت منها أمة واحدة ومجتمعاً واحداً يسهل طبعه جملة واحدة وتوجيهه جملة وتعليمه في غير مشقة ، وأصلحت طرق المواصلات فيسرت على الدعاة الدعوة ، ويسرت الاختلاط بين الناس ، وهو أول وسائل نشر الآراء والمعتقدات. وأول الأسباب الرئيسية لشيوعها في الأقطار . . بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام بين قبائل متعصبة متنافرة مشغلتها السلب والغزو ، وفقر صحرائها يظلم نفوسها ، والتدابر بينها لا يوحد تعاليمها ولا يوحد مشاعرها ، ولا يسهل للديانة الجديدة أن تذيع .

٢ – وبينما ظهرت المسيحية بعد أن مهدت لها الفلسفة اليونانية والفكر الاغريقي الذي وجه العقول إلى فهم ماهو خاص بالله وبالإنسان وبمعنى الحياة التي لم يقو اليهود–وهم أهل الوحي والكتاب– على التعمق في التفكير فيها ، وانتشرت تعاليم حكماء اليونان لأن لغتهم كانت هي اللغة العامة في ذلك الحين وكانت أيضاً لغة الأناجيل . بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام في بيئة آلهتها صخور منحوتة ، وعباداتها طقوس من الشعوذة ، وفكرتها عن الله منحطة تافهة ، وثقافتها الفكرية منعدمة بالكلية .. ونقض بظهوره كثيراً من أسس الفلسفة اليونانية .

٣ — وبينما ظهرت المسيحية فى قوم أهل كتاب هم اليهود . فكان للمسيح منهم رسلا تعلموا من الناموس اليهودى وتهذبت عقائدهم بشىء من أحكام التوراة . وكان الشعب ينتظر النبى الذى بشر به كتابهم ، لا فرق فى حالة الانتظار بين اليهود المؤمنين بالتوراة ، وغيرهم من الشعوب التى انتقلت إليها البشارة وعلقت بها رجاء الإصلاح من حال الانحلال الاجتماعى المسيطر فى تلك الأزمنة .

وكان تشتت اليهود المنتظرين (للمسيا) فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية من شأنه أن يعمل على نشر رسالة المسيح وإذاعة ديانته . بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام بين أمة وثنية ، عارضت صاحب الشريعة وكفرت به وأذهلتها دعواه . فلم تجد تعليلا لها أول أمرها معه إلا أنه يطلب الملك أو الثروة أو النساء ، فعرضوا عليه كل ذلك مجتمعاً فلما أباه ، علموا أنه ليس الباعث لادعائه ، فاستحسنوا أن يعللوا دعوته بأنه رئى من الجن يتراءى له فيخبله ، فقالوا نشفيك ونجمع لك السحرة لرقيتك ونبذل فى سبيل تطبيبك كل ما نملك ، فلما سخر من اتجاه تفكيرهم ، أذهلهم شأنه وحاروا فى بواعثه . ولم يفهموا ما إلهه هذا ولا ما شريعته ولا ما تعاليمه لأن شيئاً لم يمهد لها فى نفوسهم ، لا وحى فى هذه الأمة ولا كتاب ، ولا فلسفة اليونان ولا حضارة الرومان ، ولا اختلاطاً بشعوب المسيحيين واليهود ينير أفكارهم عن الله والرسل .

***

٤ — وبينما جعلت المسيحية فروض العبادة ورسومها تختلف فى كل مكان باختلاف حالات الجماعات ولم تجعل من رسوم العبادات شائعاً إلا (العشاء الربانى والمعمودية) ؛

كانت تعاليم محمد — لأنها قوية وصالحة — تفرض نفسها على سائر الجماعات ولا تتشكل لكل جماعة بشكلهم ، بل تصوغهم وفق روحها وتترك فى نفوسهم وعقولهم آثارها .

٥ – بينما كان المتنصرون من اليهـــود لا يستطيعون الانفكاك من تقاليدهم اليهودية ، وكانت الكنيسة تحاول التوفيق بين المبادىء لترضى نزعات هؤلاء ؛

كان الإسلام – وما زال – إذا دخل قلباً طرد كل ما عداه من تقاليد وتعاليم بحكم قوته وسيطرته وروحانية مبادئه وسمو شرائعه وحسن توجيهه للعقول وإنارته للبصائر .

٦– كان الفلاسفة منذ القرن الثانى والثالث للمسيحية يرون فيها ديناً لا ينطبق فى شىء على رغائب الناس الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أى أنها ليست إلا تمهيداً لديانة تحقق للبشر أفراداً وأسراً وجماعات، ما يصبون إليه من أغراض الارتقاء وغاياته .

بينما أقر مؤتمر الأديان الدولى بلاهاى صلاحية الإسلام لكل العصور :

٧ – كان المسيحيون فى عهد حكم « تراجان وأدريان » (١٠٤ – ١٣٨ م) مضطهدين يعدمون إذا لم يقدموا الخمور للأصنام . ويتهمون بالتآمر على الدولة ويأمرون بعدم الكتابه بتاتاً فى شئون الدين ومن يفعل ذلك منهم يلقه الحكام طعاماً للأسود الجائعة .

وفى عهود الأباطرة : أنطونيوس وبيوس وأورابيوس وكومودوس منذ (سنة ١٣٨ م إلى أول عهد قسطنطين ٣٢٤م). اتخذت المسيحية – أو الكنيسة القائمة على شئون العقيدة – نفس الوسائل فى محاربة خصومها حين أصبحت ذات سيطرة ونفوذ سياسى ،وبهذه الوسيلة انتشرت، تصديقاً للآية الإنجيلية : « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً » !

بينما كان محمد يرجمونه بالحجارة ويتصايح به غلمانهم بإغراء أعدائه ويضعون جلود الماشية المذبوحة على ظهره وهو ساجد لربه .

فلما فتح مكة وتمكن من رقابهم وأموالهم خطبهم فقال: ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا — معرفة منهم بأخلاقه ونبالته — : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء . وانتشر دينه بالحسنى والدعوة . وما حارب إلا ليدافع ،وفرق بين حرب يلتقى فيها أنداد أعلنوا بعضهم واستعد كل فريق منهم بكل وسائله . وبين حكومة كنسية تصيد خصومها مجردين وتحرمهم حق الدفاع وتنتزع ألسنتهم بآلات التعذيب ، وأظافرهم، وتكوى جباههم بالحديد المحمى ، وتفتك بزوجاتهم لترغمهم على الاعتراف بما لم يفعلوا ، تطبيقاً لما تعلمته من الحكومات الوثنية التى اضطهدتها !

٨ — انتشرت المسيحية لأن الملوك من عهد قسطنطين كانوا عضداً قوياً لها فألغوا الشرائع التى كانت مسنونة ضد المسيحيين ورفعوهم إلى المناصب الرسمية السامية . وذكر المؤرخون للمسيحية من أنصار الكنيسة أن مربيات الملوك فى ذلك العهد اعتنقن المسيحية سراً ، واعتنقها الأباطرة كذلك .

بينما انتشر الإسلام لأن الوافد إلى محمد ليحاجه ويفحمه ، كان يسمع الآية من قرآنه إذ يسأله عن تفاصيل دعوته ، فيقول : والله ما هذا كلام بشر ، أو : والله إنك لتدعو إلى أمر عظيم .

فالتعاليم ذاتها كفلت لنفسها السيطرة والذيوع والتمكن من نفوس من تتعرف إليهم ، والديانة المسيحية لم تتخذ طريق النظام الدولى فى تكوين مجتمعها وأمنها ، وإنما كانت مجرد دعوة إرشادية إلهية لا ترقى إلى إقامة دولة جامعة .

أما الإسلام فهدم الإمبراطوريات وأقام نظامه الدولى السامى مكانها .

٩ — جرؤ أتباع المسيح على أن ينسبوا إليه ما لم يقل وتركوا أصل كتابه يضيع !

وكان أحد أصحاب محمد يرتاع من مجرد تصور الكذب عليه وإنما كذب علية اليهود والمنافقون . فوضع أهل دينه قواعد دقيقة وموازين

علمية ، لتبين الصحيح من المكذوب من أحاديثه حتى يأمنوا الزيغ فى دينهم أو عقائدهم .

***

١٠ — فسر الأحبار أقوال المسيح ، بقدر ما فهموها ، وحرموا على غيرهم تفسيرها ، واحتفظوا بمنهاج خاص فى فهم الكتب المقدسة ؛

بينما فسر المسلمون القرآن ، وأباحوا لكل ملم بأسرار لغته أن يأخذ منه ما يتجه إلية فكره ، ووضعوا أصولا لفهمه ،وقواعد تكفل عدم الحيدة عن مقاصده ، لم يخلقوها من عندهم مشابهة لأصول اللاهوت المسيحى ، ولكنهم أخذوها من علم العرب أصحاب اللغة التى نزل بها القرآن .

انقسام الطوائف المسيحية وانشعاب الشيع أدى إلى تغيير فى جوهر العبادة المسيحية حسب طريقة كل فرقة ،ويقول صاحب الدرة النفيسة : إنه مما ساعد على ذلك ، رغبة المسيحيين فى مجاراة اليهود والوثنيين فجعلوا الهياكل والمذابح فى الكنائس جوهراً من جواهر الديانة الرئيسية... وهذا ومثيله صدع لأصول الديانة يقوم به أهلها مختارين ! !

وليس كذلك شيء فى عبادات الإسلام .

١١ — بينما كانت المسيحية يفرضها الأباطرة على الرعايا لأنهم يستمدون تأييد الكنيسة التى كثر أنصارها بتأثير ما ذكرناه من العوامل ؛

كان محمد وخلفاؤه من بعده يتركون لأهل كل دين — حتى بعد أن يفتحوا بلادهم — حرية الاعتقاد ، وكان دخول هؤلاء فى الإسلام نتيجة تعرفهم إلى التعاليم الإسلامية واقتناعهم الخاص بصحة العقيدة .

١٢ — كان الملك المسيحى يستمد جزءاً من سلطته ، ثم سلطته كلها فى العصور التالية ، من البابا ، الذى إذا لم يتوجه ويباركه ، لم يصر

ملكاً معترفاً به . ولا يزال هذا التقليد قائماً فى تتويج أسقف كنتربرى لجلالة ملك الإنجليز ؛

بينما الملك المسلم يستمد سلطته من البيعة الشعبية ، لا من الرياسة الدينية. لأنه هو نفسه حارس الدين باعتباره أليق الزعماء الدينيين لمهمة الحكم .

١٣ — أصول الديانة الإسلامية ونظامها ، بقيت إلى اليوم وستبقى كما جاء بها النبي محمد ؛

أما أصول الديانة المسيحية فتطورت — على ما ذكرناه استطراداً فى بعض فصول هذا الكتاب — فكانت الرهبنة فى أصل نشأتها فراراً من الاضطهاد الرومانى ، ثم صارت عبادة فردية ، ثم صارت أصلا من أصول الكنيسة . وكذلك القداس، كان فى أصله إكراماً للموتى ، ثم تطور فصار جزءاً من العبادة .

١٤ — مضت سياسية الكنيسة فى طريق اعتيار الديانة صورة لإشباع العين والحس ، وبقيت الشريعةالإسلامية على أن الديانة رياضة لتهذيب العقل والنفس .

١٥ — جعلت المسيحية تعذيب خصومها ، من تقاليد العبادة ومن أصول الشعائر ؛

بينما قال الإسلام « **لا إكراه فى الدين** »(١) . و « **لكم دينكم ولى دين** »(٢) . « **وجادلهم بالتى هى أحسن** »(٣) . و « **لست عليهم بمسيطر** »(٤) .

١٦ — ادعى البابوات من عهد أدريان الرابع سنة ١١٥٤ميلادية أنهم نواب الله على الأرض فتحكموا بهذه الصفة فى ضمائر الناس وأموالهم ورقابهم ، وباعوا الجنة لدافعى أثمانها ، حتى أن أحد سراة اليهود اضطر

---

(١) البقرة : ٢٥٦ — (٢) الكافرون : ٦
(٣) النحل : ١٢٥ — (٤) الغاشية : ٢٢

إلى مقابلة هذه المساخر بمسخرة مثلها فاشترى من البابا جهنم فباعها له بثمن بخس لأنهـا غير مرغوب فيها . فأعلن اليهودى جميع المسيحيين أن لا يشتروا من الجنة لأنه هو قد اشترى جهنم وسوف لا يدخل أحداً فيها !! فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به ! !

١٧ — وتنزهت شريعة الإسلام ورؤساؤها عن هذا الجبروت وعن هذا السحت وعن العبث الفاسق .

١٨ — سلك المعلمون المسيحيون ، مسلك المنطق والفلسفة فجعلوا كل شيء غامضاً ، فأعطوا الأحبار فرصة لجعل رياستهم فوق الحق وطقوسهم الخاصة أساساً للتعليم ؛

بينما الإسلام نشر كل شيء بمنطق الفطرة وروح الحق وجعل الكتاب المقدس (القرآن) وسنة النبى محمد صلى الله علية وسلم ، مرجع كل مسلم ، ولم يعط فقيهاً ولا عالماً امتيازاً دينياً يبيح له ابتداع التعاليم ووضع الأصول ، وأباح لكل إنسان أن يأخذ الأحكام من غير واسطة عالم أو رئيس دينى ، فليس فى الإسلام وأحكامه تعقيد يستلزم احتكار التفسير والشرح لفئة دون فئة .

١٩ — صار الدين المسيحى سلطة وتخويفاً ، والعبادة خالية من كل وعظ وتعليم ؛

أما تعاليم الإسلام فصانت نفسها بما فيها من خصائص عن مثل هذا الانحدار والانحراف عن الغاية من التدين .

٢٠ — قانون الإيمان فى الديانة المسيحية ، الذى يشترط على المتنصر ، الإقرار به متكلف وغامض وحشو كله ، وكلام سخيف ؛

بينما قانون الإيمان الإسلامى جملتان : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله » .

***

نظرات فى القرآن

الناس فى التصديق بالقرآن والإيمان به ، على أربع فرق ، فريق صدق به لأنه تلقى التصديق به وراثة ، وفريق آمن به دراسة ، وآخرون ينكرونه ويؤمنون من الكتب السماوية بما سواه . وغيرهم ينكرونه وينكرون معه ما عداه .

فأما فريق الذين تلقوه وراثة ، فلابد لنا من أن نضع أصابعهم على ميزاته ونواحى قوته وعظمته ، ليكون إيمانهم إيماناً يشترك فيه العقل ويدعم الشعور الفطرى باستدلالاته ومنطقه ، حتى لاتكون عقائدهم عرضة للتلبيس والزيغ . وهؤلاء بين قوم يكفى أن نوضح لهم محجة التقليد التى نهجوها ، ليكونوا على بصيرة . وآخرين اكتملت فطرتهم ونضجت ملكاتهم واستوفوا شرائط البحث والتخريج والتأويل ، تكمل لهم موهبتهم الاجتهادية ، ليأخذوا من القرآن مباشرة ، ولا عليهم من اختلاف السابقين مادام لهم من الفهم العقلى والاستدلال العلمى مرجح لما يرونه من الأحكام ، وأما فريق الذين ينكرون القرآن وحده ويؤمنون بغيره من الكتب السماوية فالسبيل إلى إقناعهم بسماوية القرآن . سبيل معبد ممهد واضح المعالم ، فأكثرهم أو كلهم قد انتقل إليهم جحود القرآن وراثة لا أثر للعقل فيه ، فما علينا إلا أن نسلك لهم سبيل العرض الحسن لمزايا القرآن وإعجازه ، فإذا هم له مصدقون. وأما الذين يلحدون ولا يؤمنون ، فمنطقهم ذاته سيكون حجتى عليهم وتصحيح هذا المنطق لهم ، وسيلتى إلى إقناعهم ، ولا يكلفنى ذلك من الجهد إلا قليلا ، هو تسديد هذا المنطق وتنقيته من الأغاليط التى دخلت عليهم من بعض المذاهب الفلسفية المدخولة بفساد الجدل وعقم المهاترات . سواء من علوم الفلسفة القديمة أو الحديثة ، فلا شبهة عند أحد فى أن الحقيقة واحدة لا تتعدد ولا تكون الحقيقة يوماً باطلا ، ويوماً حقاً ، ولا تكون عند أهل رأى بينما هى كذلك عند مخالفى هذا الرأى .

وإذن فالحقيقة واحدة وعند فريق واحد فلنبحث عنها فحيثما وجدناها تبعناها ، وأنا أستعذب مدارسة الملحدين لأنهم فى رأيى أصحاب فكر حر ، لا أثر فيه للتعصب . فهم أسرع انقياداً إلى الحق الذى يؤدى إليه البحث. وهم أهل البحث ، وأسرع إلى قبول نتائجه الفاصلة المبرهنة علماً وعقلا ومنطقاً .

***

هل القرآن فى طوق البشرية ؟

ونبدأ بالنظر فى القرآن من حيث هو كتاب ونسق وأسلوب ...ثم من حيث هو حكمة وتشريع وتعاليم وحضارة ... ثم من حيث هو ألوان صورة اجتماعية . . ثم من حيث أثره فى جمع العرب على صفة من الجنسية والقومية وجمع المصدقين به — أى الذين يسلمون — على ذات الصفة ؛ وإن اختلفت لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم وأقاليمهم ، بما يفعل فى مشاعرهم وأعصاب نفوسهم من توحيد وتجانس ومشاكلة .

ثم من حيث هو كتاب كونى ، اشتمل على أسرار الحقائق الكونية والعلمية وحواها ، وفصل فيها وأجمل وقد كتب المتصدرون للحديث عن إعجاز القرآن مؤلفات كثيرة نافعة . ولم يعقم التأليف فى التدليل على إعجازه ، فترة من فترات التاريخ الإسلامى : ولكنهم كانوا يبرهنون ويؤلفون بروح العصور التى عاشوا فيها فتناول أكثرهم القرآن من حيث هو كتاب ونسق ونظم واستدلوا على إعجازه بما يأتى :

١— ثبوت واقعة تحدى القرآن للعرب أن يعارضوه أو يشاكلوه . . وثبوت عجزهم عن هذه المعارضة .

٢— استعلاء القرآن من الوجهة البلاغية اللفظية وسموه البيانى على أساليب العربية فى أوجها إبان نزوله .

٣ــ أن فى آيات القرآن من قوة المعانى أكثر مما فى العقل العربى خاصة والعقل البشرى عامة من قوة الفهم وقوة التصوير وقوة التعبير .

٤ــ سلامته وبقاؤه على الزمن وتتابع الحقب .

وللمؤلفين القدامى فى تبسيط هذه الأدلة سعة باع وقدرة مشهودة فى تواليفهم وتدليلاتهم . وإنما نوجزها إلماعاً هنا . فنؤكد أن القرآن بنصوصه التى لا تزال باقية بيننا ، قد تحدى العرب أن يعارضوه فلم يفعلوا عجزاً منهم بطبيعة الحال عن المعارضة ، وهم ملاك أعنة البيان وأصحاب مقاليد الإفصاح والتعبير . وكان هذا العجز طبيعياً ، فإن القرآن شب فى أساليبه عن أطوار العرب ، ففيه معان لم يألفوها ، وألفاظ لم يعرفوها ، معرفة تداول واستعمال فيما وضعها له القرآن ففى القرآن ٧٠٠ كلمة نقلها القرآن عن مدلولها فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية ، وفيه استعمال للكلمة الواحدة بمعان مختلفة كلفظ (الهدى) فإنه ورد فى القرآن على سبعة عشر وجهاً بمعنى الثبات والدين والدعاء .

وألفاظ الصلاة والرحمة والسوء والفتنة وغيرها .

فإنها استعملت بمعان عديدة مختلفة تنبه عليها القرينة . والقرينة معمول بها فى فهم الأساليب العربية وتحديد معانى الألفاظ ولكن استعمالها فى نقل اللفظ إلى معنى آخر لم يعرفه العرب أبداً . أو هم على التأكيد لم ينقلوا الألفاظ القرآنية التى أشرنا إلى بعضها ، إلى ما نقلت إليه من المعانى . قبل أن نقلها القرآن .

فالقرآن إذن أتى بما لم يجيئوا به فى متن اللغة وأساليبها ، ومن أسباب العجز البيانى وأدلته أن القرآن استعمل اللفظ فى غير المعنى الذى وضع عادة دون أن ينقله ودون قرينة عليه كقوله تعــالى : « **فلما آسفونا انتقمنا منهم** »(١) أى أغضبونا ، والمعنى الأصلى للأسف هو الحزن . ولم يكن ذلك ونحوه أبداً فى أساليب العرب .

---

(١) الزخرف : ٥٥

ويجيء الدليل الثالث من أدلة الإعجاز وهو أن فى القرآن من قوة المعانى أكثر مما فى العقل البشرى من قوة الفهم وقوة التصور وقوة التعبير فلو كان من نسج محمد صلى الله عليه وسلم لطابق طبيعة العرب وآدابهم ، لأنه لابد وأن يكون رجلا منهم ، أثرت فيه البيئة ،وورثها كما ورثوها ، ونفسيته من نوع نفسيتهم ، ولو خالفتها فى بعض نواحى التسامى الشخصية فإنها لا يمكن أن تشذ عن طبيعة النشأة الاجتماعية والعقلية والشعورية ، هذا إلى أنه لم يكن قارئاً ولا كاتباً . وقومه مستيقنون هذا ، عارفون به . ولو كان القرآن من عمل محمد صلى الله عليه وسلم لكان عجباً أن يجيء كتابه المصنوع صورة اجتماعية لأمة بلغت فى الحضارة مبلغاً لم يكن العرب قد خطوا إليه حين ابتدأت الرسالة المحمدية ، ولا كانوا بمتصوريه . ومع كل هذه البراهين أريد أن ألفت نظر الفاهمين للغة العربية . وعلى الذين لا يعرفون أسرارها من المتشككين أن يسألوا العارفين من المحايدين — إلى أن نسق القرآن فى صياغته ومعانيه ، فوق طوق البشر ،وأقول إن نسق القرآن فى تركيبه يستحيل أن يكون من مقال محمد فإنه قد تعدد فى القرآن فى آيات كثيرة جداً خطاب من الله لمحمد ،فلو كان محمد يفتعل هذا ويتكلفه لما جاز أن ينجو من الخطأ ولو مرة ،وهو ينسب إلى الله صيغة الخطاب كقوله تعالى: **« أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد »** (١) فإن مقتضى تهديد خصومه له كان يستلزم منه كما يستلزم من أى رجل مكانه أن يقول لهم — لو كان المتكلم هو — كان يتحتم فى نظر الفطرة — فطرة كل إنسان وأى إنسان — أن يرد عليهم لو كان هو منشىء القرآن ، موجهاً الخطاب إلى مهدديه بدل أن يوجهه إلى نفسه ، يرد عليهم إما معتزاً بنفسه أو معتصما منهم بقبيله ،أو مستليناً لهم ،أو مهدداً بمثل تهديدهم. ولكن مدلول الآية أنه صلى الله عليه وسلم كاد أن يفزعه تهديد المشركين حرصاً على رسالته ، فأوحى إليه ربه هذا التقرير المتحدى . تحدياً نفذ بالدقة الكاملة فهذه الآية ليست دعوى بشر ولا زهو خائف يطمئن نفسه.

---

(١) الزمر : ٣٦

ولكنه إرغام لأنوف خصومه ، تبع القول فيه العمل فنجاه الله من تهديدهم ، وفرق قوتهم ، وخيب مؤامراتهم لقتله . فاتجاه الخطاب إلى الواقع عليه التهديد ، ومثل ذلك من خفايا النسق القرآنى . قاطع قاهر فى أن محمداً لم يصنع من القرآن ولا مخرج صوت ! وكيف يقول على ربه ما لم يقل مع أن قرآنه يقول « **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء . . .** » (١) إن المضى فى استقصاء البراهين على أن القرآن ليس فى قدرة بشر لا يتسع له العمر ، وهى براهين العقل والمنطق والعلم. ولكنا نضرب الأمثال وعلى من يريد أن يعرف الإسلام الحق أن يفهم القرآن الفهم الواجب له ولا يقنع فيه بالنظر السطحى ولا بأقوال غيره من الناظرين .

بعض نواحى المخالفة بين القرآن وأساليب العرب :

ومن القواعد البلاغية أن يكون الكلام نصاً فى معناه . ثابتاً فى حيزه تجمد الكلمة ، أو الجملة منه على معنى معين . بينا أسلوب القرآن من المطاوعة على التقليب والمرونة فى التأويل – مع فصاحة وبلاغة – أمره غريب فإنه يفهمه أهل الفطرة وأهل العلم بمعنى هو من معانيه .

فلكل عقل فهم صحيح فيه . ثم إن القرآن الذى يصف العلم والجهل والحضارة والبداوة ، ويتحدث عن الصلاح والفساد والعادات الاجتماعية المنحطة ، والارتقاء والتسامى بالنوع البشرى ، لا يمكن أن يكون هذا صورة لأمة ، لأنه لا توجد أمة فى أى عصر ، ولن توجد أمة تتناقض حياتها وتشمل كل هذا الاختلاف والتضاد ، والحسن والقبح ، والسمو والانحطاط ، ولو أن صانعه بشر لكان صورة لبيئته ومرآة آداب أمته . أما إعجاز القرآن من حيث هو حكمة وتشريع وتعاليم حضارة فحسبى وحسب كل قارىء أن أنقل له قرار المؤتمر الدولى للقوانين فى « لاهاى » بهولاندا ، والمؤتمرات تجمع خاصة المتخصصين فيما تبحثه ، من أعلام الفكر الإنسانى ، وهذا هو

---

(١) الأنعام : ٩٣

نص القرار « إن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » وهذا القرار لهيئة دولية متخصصة فيما تبحث ، له بلا ريب قيمته النظرية ، ودلالته على ألوهة القرآن وصحة الوحي وإلا فأين البشرى الذى وضع قانوناً وشريعة وتعاليم ، بقيت على تطاول الزمان ؟ ! وثبت أنها تصلح للتطور مع حاجات الزمن والمدنية ؟ لم يوجد هذا البشرى ولن يوجد . فينتفى بهذا الاستدلال أن يكون القرآن من حيث هو تشريع وحكمة وتعاليم حضارة . من وضع محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما دعوى « هانكور » الفرنسى أن محمداً حاكى فى القصص القرآنى شعر أمية بن أبى الصلت فأكذوبة جاهل ، وليست سقطة عالم ، لما سبق أن قدمناه من وجود الإعجاز، وأين شعر أمية بلاغة واستيعاباً للقصص الدينى من القرآن ؟ وأين شعر أمية وصدقه من صدق القرآن؟ وأين شعر أمية ونسقه من نسق القرآن ؟ وإن العرب أنفسهم قوم أمية لم يزعموا هذا . وإنما زعم كفارهم أن « بحيرى » النصرانى يقص على محمد ، فهذا التناقض بين المنكرين والزاعمين يهدم وجوه دعاويهم بلا داع للاطالة . ثم إن كان شعر أمية مصدراً للقصص القرآنى فأين مصدر التعاليم الأدبية ؟ وأين مصدر الأحكام التشريعية ؟ وأين مصــــدر التقريرات العلمية القرآنية فى حقيقة الكون وأصل الخلق ؟ !

ولابد أن نؤكد الحقيقة التى يعرفها من يقف على تاريخ جمع القرآن معرفة تيقن ، وهى أن القرآن انتقل إلى كل عصر من الجيل الذى سبقه انتقالا متواتراً لا انقطاع فيه ، وأن جمعه فى مصحف واحد وقع على أتم صور الدقة والتحرى فى عصر قريب من نزوله . فالكتاب الذى بين أيدينا هو هو الكتاب الذى أنزل على محمد ، وليس فى الكتب المقدسة السابقة على القرآن كتاب حفظ من العبث والتبديل ، ومن أن يدخل فيه ما ليس منه . فكل تلك الكتب المتداولة إنما هى (جمع وتأليف) القسس والأحبار والرهبان وليست تبليغ السماء !

* * *

ولا ريب فى أن الكتاب الذى ينزل على قوم فلا يطابق أخلاقهم وعاداتهم الموروثة وإنما ينتزعها من نفوسهم وشيكاً بتأثيره السحرى فى أعصاب نفوسهم بعد أن يزلزها بأساليبه ومصادمته لها ، ثم يبدلهم من كل هاتيك النقائص ما لا حياة للأمم إلا به من فضائل الأخلاق الفردية والاجتماعية ، ثم يكون هذا التبديل لنفوسهم بعيد الأثر مكين القرار فى أقصر فترة زمنية حتى لتبدو هذه الأمة العربية بأخلاقها القرآنية ، وكأنها ورثتها مع الدم من أبعد العصور ، ليس إلا كتاباً إلهياً محفوظاً وآية تأثيره فيهم ، أنهم اجتمعوا على أكمل أصول الاجتماع وأنظمته ، وكانوا قبله فرقاً ، ثم أسسوا الملك المؤثل . وفتحوا العالم ، ونشروا آداب دينهم ، فكان لها فى غيرهم من الأمم عين ما كان لها فيهم من الأثر ، وألف القرآن من كل هذه الأمم وإن تباينت ألسنتها وألوانها وأقاليمها ، جنسية واحدة حتى لتجد من أعلام المفسرين والمتكلمين ومتقدمى الفقهاء ، الفارسى والتركى والحبشى ، وغيرهم من أصحاب اللغات المعجمة والجنسية المتباينة والإقليم النائى واللون المختلف وما بعد هذا دلالة على عميق تأثيره فيهم !!

هذا شىء فى إعجاز القرآن وفى التدليل على أنه أثر إلهى دلالته الألفاظ ، كما لغيره ، من الآثار الإلهية دلالة ، كدلالة المخلوقات على قدرته تعالى على الإبداع والخلق وحسن الصنع ، فالمخلوقات من – القدرة على الخلق – بمثابة الألفاظ من القرآن الكريم دلالة على الأثر . على أنى أرى أن الإعجاز يتخذ فى كل عصر مظهراً ملائماً ، فإعجاز القرآن فى عصر البلاغة والفصاحة ، هو فى نسقه ونظمه وفصاحته . وإعجازه فى عصرنا هذا الذى يتحدى به أهل الجيل الحاضر المتمدينين المتسامين ، هو أنه كتاب كونى أحاط بنظام هذا الكون جملة واشتمل عليه تفصيلا فقد ثبت أن العلماء الكونيين جهدوا فى كشف خفايا النظام الكونى ، وجدوا فى تفهم أسراره ، فلم يصلوا بعد الجهود العنيفة والأزمان المتطاولة إلا إلى قليل ! ولم يقفوا من محجوب الأسرار الكونية إلا على النزر الضئيل ، وكذلك تظل الأفهام الإنسانية عاجزة عن إدراك سر القرآن الذى هو سر الكون . وإنما تتكشف لها فى كل عصر ،

جزئيات من الحقائق لتنهض دليلا على ألوهة الكتاب الكريم وتفتح المغاليق الكونية والحقائق الأزلية عن مصداق آياته القديمة الصادقة . فنخرج من ذلك بأن العلم الكونى الذى اشتمل عليه القرآن مفصلا ومجملا ، ليس إلا علماً إلهياً لأن العقول البشرية لم تكن تعرفه ، ولا تزال لم تعرف منه بعد تطاول الأزمان وإجهاد الفكر إلا قليلا وقليلا جداً .

وسيجىء بيان ذلك كله فى تطبيق آى القرآن على مكتشفات العلم الحديث وعندها يطرح المارى كل مماحكة جدلية . ويتعطل منطق اللسان للمثبتين والنافين ، فإن الحقائق العلمية وحدها برهان لا يدفع ، والوقائع الكونية تأييد وتوضيح يرى ويسمع ، والرؤية والسمع دلالات اليقين وليس أقوى منهما دلالة .

***

تكرار الآيات القرآنية

وهم البعض أن تكرار آيات من القرآن فى مواضع مختلفة ، إنما هو عيب بلاغى . وردنا على ذلك من مزاج العرب أنفسهم أصحاب الصنعة وأساليبها ، ومن خواطر دراسة عصر الوحى . فأما التكرار فليس عيباً بلاغياً . وإلا لعابه به مخاصموه ، بعد أن عجزوا عن معارضته وانهزموا أمام ما تحداهم به . بل إنه مذهب معروف فى أساليب العرب ، أكثر ما يكون عند إرادة التخويف أو التأكيد أو التفجع أو التهويل ، وكذلك يراد به المبالغة فى التحدى ، بأداء المعنى الواحد على صورتين مختلفتين نظما وترتيباً ووجهاً وعبارة ، وكذلك يثبت منه أن الله تعالى غير عاجز عن تكرار ما قال فهو يكرره ويثنيه فى قوالب مختلفة وما لغيره تعالى أن يفعل تلك المماثلة . مع وقوع الفعل — أى المشابهة والمماثلة — التى وقعت منه تعالى من تكرار الآيات المتشابهة فى أكثر من موضع وعلى أكثر من نسق . وليكون ذلك دليلا على أن النسق القرآنى لا ينحصر فى ترتيب بذاته .

فيقال عجزوا عن مجاراته لأنه محدد الوضع ، محمول على تركيب خاص. فهذه التراكيب وهذه الأساليب المختلفة ترتيباً ونظماً — وإن اتخذت نوعاً وكيفاً — هى النسق القرآنى ، ففيه — لو استطعتم — فرصة لكم وفسحة تمكنكم ، فما هو على أسلوب محصور ولا وضع محظور .

ومن حكمة التكرار استعمال منطق أهل اللغات المختلفة فتجىء الكلمة فى الآيتين على وجهين (براء وبرىء) فالأولى لأهل الحجاز والثانية لتيم وسائر العرب . وذلك فى معنى الإعجاز والتحدى ، أبلغ وأدل ، لأنه نزل بألسنة القبائل ، وما كان لقبيلة أن تتكلم لسان أخرى ، فكيف يتفق لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بأساليب القبائل جميعاً ؟ !

***

القضاء والقدر ايمان وعمل

كثير من شباب المسلمين يتواكلون ، فلا يسعى أحدهم إلى ما فيه صلاح شأنه زاعماً أن الله تعالى أراد له ما هو فيه ، ولو قضى سبحانه عليه بغيره لهيأه له .

ولا شك أن الإسلام يبرأ من هذه الأوهام ،ولا شك أن من علل تأخر المجتمع الإسلامى والأفراد المسلمين ، سوء فهم عقيدة القضاء والقدر .

ولست أعرض للقراء خلافات الفرق الإسلامية فى هذا الشأن ولا ألخص لهم آراءهم ،فقد انشغل المتكلمون فى الإسلام بموضوع القضاء والقدر فأخذ من وقتهم وجهودهم ، وملأوا مؤلفات عديدة بالجدل وإفساد آراء غيرهم ، كل يستعين المنطق فيجد فيه نصيراً ، وقد تناول هذا البحث كذلك ، رجال الفلسفة ، شرقيون وأوروبيون . قدامى ومحدثون .

وخلاصة ما فى مبحث القضاء والقدر من وجهة النظر الإسلامية الصحيحة ، أن للعبد مشيئة واختياراً . وأن الله تعالى خالقه وهو خالق مشيئته ، أما علاقة القضاء والقدر بالعباد ، فهى علاقة علمه تعالى بما سيكون من أمرهم ، فكتب على هذا أنه شقى لأنه علم سبحانه وتعالى بسابق علمه القديم ، أن هذا العبد سيتجه بما فيه من قوى الفعل إلى فعل الشر فيشقى ، وكتب للآخر أنه سعيد لأنه سبق فى العلم الإلهى أنه سيتجه بقواه إلى الخير ولتوضيح ذلك نقول :

إن الله تعالى أودع فى الإنسان قوة الفعل ، أى القدرة على الأعمال ، وألهمه وبين له : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » (١) . « وهديناه النجدين » (٢) ، أى طريقى الخير والشر .

---

(١) الشمس : ٧ ، ٨ (٢) البلد : ١٠

وترك الله تعالى للإنسان حرية الاختيار ، بعدما منحه قوة التوجه والعمل ، وبين له الطريقين ، فتكون قوتا فعل الخير والشر مخلوقتين فى الإنسان من أمر الله وقدره . ويكون الاختيار للإنسان وحده . ولا تنافى بين هذا وبين قولة تعالى : « **والله خلقكم وما تعملون**»(١) . ولا يتعلق قضاء الله تعالى وقدره بالمستحيلات فلا يدخل فى قدرته تعالى أن يجعل السماء أرضاً ولا الأرض سماء ؛ لاستحالة ذلك بمقتضى النظام الإلهى للنواميس الكونية . ولا يدخل فى قدرته تعالى أن يتخذ ولداً ؛ لمنافاة ذلك لواجب الوحدانية .

***

فكل إنسان مقدور عليه فى العلم الإلهى — لا تقدير إيجاب وقسر — أنه سيفعل كذا بمقتضى القوة التى له ، ووجود السبب الفاعل فيه. ولكن طريقة الفعل هى التى له اختيارها .

ومثاله : أن فى اليد قوة الحركة ، وعضو اليد سبب فاعل لها . وهذا من خلق الله تعالى . لكن هل تتحرك اليد للإحسان أو للأذى ؟ هذا متروك اختياره للعبد نفسه . والله تعالى جعل العبد مريداً ، وجعل ناموساً كونياً لحركات الأفلاك وغيرها من الكائنات الكونية ، فلا تلزم مشيئة إلهية خاصة لكل إرادة من العبد .

يستبين من ذلك أن الوهم بأن الإنسان مجبور ومقسور ، خطأ وسوء فهم. وأن الله تعالى قدر عليه الشقاء بإرادته تعالى ، خطأ كذلك وسوء فهم.

والقرآن حافل بالحض على العمل والسعى ، وإصلاح الناس لأمور دنياهم وأخراهم فليأخذوا بأسباب ذلك فمن لم يأخذ بالأسباب فهو غير متخلق بخلق الإسلام . وليس بمعقول أبداً — والإسلام دين العقل — أن يثيب الله العبد أو يعاقبه على فعل قضاه عليه ولا اختيار له فيه !

فلهذا أنا مسلم

***

---

(١) الصافات : ٩٦

الباب الثالث

انا مسلم لأن :

١ – الإسلام دين القوة والتسامح .

٢ – الإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة الإنسانية .

٣ – الإسلام دين يتطور وفق مطالب الأمم والعصور .

٤ – الإسلام يلائم الغرائز البشرية .

٥ – الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية .

الاســــلام

دين القوة والتسامح

لا يجد الباحث فى الديانات . ديناً يتسم بخصائص القوة ويتجمل بغاية التسامح غير دين الإسلام . والذين يدرسون أحكام القرآن ويفقهون تفصيلها ويقرأون السيرة المحمدية قراءة ترو ، يدركون هذين المعنيين اللذين أشير إليهما .

فحين تفخر المسيحية بأنها دين محبة وأنها تأمر من يضرب على خده الأيسر بأن يدير الضارب خده الأيمن ، يقول القرآن « **وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين** »(١) فهذه الآية بشقيها مصداق صريح لما قررناه ، فشقها الأول فيه القوة غاية القوة ، من أساء إليك فعامله بالإساءة .. الإساءة بالمثل .

قوة فى عدل وانتصاف فى غير بغى . . . وشقها الثانى تحريض على التسامح والاستمساك به وعلى العفو والإصلاح . وترغيب فيه بأن أجره يتكفل به الله . وهذا أشد المرغبات تأثيراً فى نفس المؤمن .

ولولا أن رائدنا فى كتابنا أن نأتى بالأمثلة على ما نقول دون الذهاب فى الاستقصاء إلى ما يطول على القارىء ، لجمعنا من آيات القرآن وسيرة النبى صحائف كثيرة فى هذا الصدد .

الإسلام دين متسامح مع خصومه ، ومتسامح مع أهله . أما تسامحه مع خصومه فنى أنه لم يفرض نفسه عليهم بالسيف والحرب ولكنه خيرهم حين انتصر عليهم . بين أن يحمى أنفسهم وبلادهم بالمال (الجزية) وبين اعتناق تعاليمه . فتجب حمايتهم بدون جزية .

---

(١) الشورى : ٤٠ .

ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام بعث خالداً رضى الله عنه فى سرية فنزل خالد بماء لجذيمة فدعاهم إلى الإسلام فتكلموا بكلام فهم منه عدم الانقياد فقتلهم ، فلما جاء الخبر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، غضب وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، ثم أرسل علياً رضى الله عنه بمال أدى به ديات القتلى (ذكر هذه القصة المؤرخ الفرنسى سديو فى كتابه : تاريخ العرب ص ٥٦) .

فمن هذه القصة يتبين أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ولا بالبطش فقد قلنا إنه كان يخيرهم بين الإسلام وبين الجزية ، ولم ينتشر بالسيف إلا المسيحية .

وفرض الجزية على الدول المغلوبة ليس بدعاً أتى به الإسلام ولكنه قانون حربى له مشروعيته . فلقد عرفته الدول القديمة كمصر الفرعونية وبابل ونينوى والأشوريين والفرس . وقد كان أهل سهل فيليستيا يحملون إلى الفرعون الجزية قبل أربعة آلاف عام . وكانوا يدفعونها لقيصر الرومان فى عهد المسيح . وهذا سبب قول عيسى عليه السلام « يامراءون.. ادفعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » عندما سألوه أيدفعون الجزية لقيصر أم لا يدفعونها ؟ فقال : أرونى بم تدفعون . فأروه قطعة من العملة الذهبية على أحد وجهيها صورة القيصر وعلى الآخر اسمه .

كما أن هناك نوعاً آخر من الجزية يعرف باسم تكاليف الحرب. كالمئتى مليار فرنك من الذهب التى فرضتها ألمانيا على فرنسا المنهزمة فى عام ١٨٧١ أيام نابليون الثالث . ونوع آخر من الجزية يعرف باسم التعويضات ، كالتى فرضها الحلفاء المنتصرون فى الحرب الكبرى على ألمانيا المنهزمة ووردت فى الملحق المالى لمعاهدة فرساى ، تعويضاً لفرنسا عما خسرته فى الحرب من التكاليف . وكذلك عن تخريب بلادها حين اجتاحتها الجيوش الألمانية عند انتصارها .

ومع ذلك فالجزية فى الإسلام كانت لها مشروعية أعظم من ذلك وأسمى فقد كانت تدفع للمسلمين فى مقابل حمايتهم البلاد المفتوحة من غزو الأعداء ، فضلا عن أنها كانت مشروطة بشرط القدرة عليها بنص القرآن . قال الله تعالى : « **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**»(١) ورأى المفسرين هو أن المعنى : حتى يعطوا الجزية عن قدرة على أدائها وسعة مالية تمكنهم منها .

والذى يؤكد أن الجزية كانت فى مقابل حماية بلاد الدافعين لها ، كتاب بعث به خالد بن الوليد قائد جيوش المسلمين إلى صلوبا بن نسطونا (فى الجزء الثانى عشر من صبح الأعشى) ونصه : « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » – أى أن الجزية مقابل المنعة ، وهى منع أموالهم ودمائهم وبلادهم من أن تباح لأعدائهم . فإن منعناكم فلنا الجزية وإن شغلنا عن حمايتكم فلا جزية لنا عليكم .

* * *

كان أعداء المسلمين وأعداء محمد يجهزون الجيش تلو الجيش للقضاء على دعوته فكان يهزمهم ويأخذ بلادهم ، ومع ذلك كان يحميهم مقابل الجزية ! ! فإن أسلموا وجبت حمايتهم بغير جزية ولم يكن يفرض عليهم عقوبات تأديبية مع مشروعية هذا العقاب فى قوانين الحرب .

والمتتبع لغزوات النبى يعرف أنها كانت دائماً دفاعاً لا هجوماً . فقد كان صلى الله عليه وسلم يوصى السرايا بعدم البدء بالهجوم ، ودليلنا على ذلك أن الله يقول لنبيه : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين** »(٢) فهو ينهى عن قتال غير

(١) التوبة : ٢٩ (٢) البقرة : ١٩٠

المعتدين حتى ولو كانوا أعداء للمسلمين وليس هذا فقط بل إن القرآن يقول: « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين** »(١)

فالتعاليم الإسلامية تندب إلى الإحسان إلى غير المسلمين من الذين لم يعتدوا عليهم ولم يقاتلوهم ليصدوهم عن دينهم ، وتندب إلى الإقساط وهو تأدية العدل والحقوق لهم .. وليس بمعقول أن يحيد الرسول عن قانون رسالته وهو القرآن وتعاليمه .

صحيح إن بعض الغزوات النبوية كانت ابتداء . ولكنها كانت على حالها من البدء ، اقتضاءاً للسياسة العامة للدفاع . وهذا أمر مفهوم فى الأنظمة الدفاعية الحربية فالمناوشات يبدأ بها فريق محارب يعلم أنه مهاجم من عدوه إذا بدأ وإذا لم يبدأ ، وتحتم عليه فنون الحرب أن يضمن النصر فى البدء . أو يؤمل فيه . ففى البدء بالهجوم فى مثل هذه الحالة تقوية لمعنوية الجيش البادىء وإضعاف لمعنوية العدو المتربص .

وكيف كان الأحرار الأبرار من الأوروبيين الذين اختصموا الإسلام وادعوا عليه أنه انتشر بالسيف . كيف كانوا يرجون أن يبقى محمد وأصحابه ودعوته هدفاً لعدوان قريش وحلفائهم ، يخرجونهم من ديارهم ويلجئونهم إلى الهجرة بعد الهجرة ، ويستبيحون كل محرم منهم ويضطهدونهم ويحاولون الاستبداد بعقائدهم ووجداناتهم ، وينقضون عهودهم . ثم لا يدفعون هذا ولا يثورون علية ، وهم أولو العزم وأولو القوة بإيمانهم وصدق اعتقادهم . وهذا الذى قلناه عن القتال للمشركين دفاعاً عن حرية الرأى وحرية الاعتقاد ، إنما كان بعد نزول الإذن القرآنى للمسلمين فى الآية الكريمة : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** »(٢) .

---

(١) الممتحنة : ٨ (٢) الحج : ٣٩ ، ٤٠

فهم أمروا بالقتال انتصافاً لدينهم ولحرياتهم من ظالميهم المخرجيهم من ديارهم . أفترون هذا عدواناً ؟ ، أفترونه نشراً للإسلام بالسيف؟ لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما خير المسلمون أعداءهم بين الجزية والإسلام ولألزموهم به وأرغموهم عليه . ولما أطلق المسلمون أسراهم من المشركين تكرماً كما سبق ، إنما جاء إسلام هؤلاء بعد ذلك ، نتيجة لما شهدوا من عدل ولاة المسلمين وعدالة شرائعهم التى يحكمون بها بينهم ، وقد جرى الإسلام على منحهم حرية التقاضى فقد كان لهم فى أحوالهم الشخصية أن يتقاضوا إلى رؤساء أديانهم ولهم غير ذلك . وإن الإسلام الذى يقول قرآنه « **لا إكراه فى الدين** »(١) ويشترط لصحة الإسلام صدق الاختيار ، لا يرضى بأن يكره الناس على أن يعتنقوا تعاليمه وهم لها كارهون . ولقد كان محمد وأصحابه وخلفاؤه يقاتلون الوثنيين وفى مقاتلتهم لهم حماية لليهودية والمسيحية ، لأن خصومة أولئك لها ليست دون خصومتهم للإسلام . وأول ما يستشهد به على أن الحرب لم تكن عند الإسلام إلا ضرورة عارضة ، هو تشريع الإسلام الحربى وقد جاء فيه « **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** »(٢) ومن تشريعه الحربى تنديده بناقضى العهد « **أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم** ! ؟ »(٣)

والإسلام الذى يحرص على حرية الرأى وحرية الاعتقاد حرصاً تاماً كاملا يقول فيه قرآنه « **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** »(٤) لا يمكن أن يجبر الغير على اعتناقه ، ولا أن يفرض تعاليمه على عقائدهم بدون اقتناعهم !

* * *

فمن هذا العرض المجمل يتبين للقارئين : أن الإسلام كان متسامحاً مع أعدائه غاية التسامح ، أما تسامحه مع أهله ففى الرخص الشرعية فى تجاوز

---

(١) البقرة : ٢٥٦ — (٢) الأنفال : ٦١

(٣) البقرة : ١٠٠ — (٤) الكهف : ٢٩

أحكامه . وحين استعراض مظاهر تسامحه ، نحتاج إلى عرض أصول الأحكام القرآنية فنستشهد فى الدلالات الإجمالية لهذا القصد بقوله **«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »**(١) . **« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »** (٢) . **« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »**(٣) و **« لا تغلوا فى دينكم »**(٤) قال صلى الله عليه وسلم « ألا إنما هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » وقال « إياكم والغلو فى الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين » ويدخل فى هذا النهى المبالغة فى العبادات وإرهاق الناس أنفسهم بها ، وإرهاقهم غيرهم كذلك : والمغالاة فى الآراء والمعتقدات .

فهذه الدلالة صريحة فى أن الواجبات الشرعية التى يشق على المسلم أداؤها تسقط عنه إما إلى بديل عنها وإما سقوطاً مؤقتاً إلى أن يستطيع الأداء ، كالصوم يسقط عن المريض الميئوس من شفائه سقوطاً نهائياً ولكن ببدل هو الفدية التى تصرف فى البر بالفقراء وإطعامهم . ويسقط سقوطاً مطلقاً ، عن الذى لا يملك فدية ، وإن أفطر بالكيفية الموجبة للفدية : فقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله..أدركنى فقد هلكت ، واقعت امرأتى فى رمضان وأنا صائم، فعرض عليه الرسول عتق رقبة فأبدى عجزه ،فصيام شهرين متتابعين فاعتذر عنها، فالتصدق على الفقراء بمدين من الشعير أو التمر ، فعجز عنها فأعطاه الرسول قيمة ما يتصدق به ، فقال الرجل : والله يا رسول الله ما بين لابتيها أفقر منا . فضحك النبى وقال : اذهب فتصدق به على أهل بيتك .

***

وليس سقوط الواجبات الشرعية هو مظهر تسامح الإسلام مع أهله وكفى ، ولكن المحرمات أيضاً تباح عند الضرورة بنص القرآن « **إنما حرم**

---

(١) البقرة : ٢٨٦ — (٢) البقرة : ١٨٥

(٣) الحج : ٣٨ — (٤) النساء : ١٧١

عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم »(١) .

مع أن تحريم هذه المحرمات إنما قصدت به حكمة سامية ولم يكن عقوبة كما كان التحريم فى الديانة الموسوية عقوبة لبنى إسرائيل على تمردهم ؛ فتحريم الميتة وشرب الدم وأكل لحم الخنزير أريد به المصلحة الصحية للمسلمين فقد ثبت حين تقدم الطب فى العصور الحديثة أن هذه الأغذية الثلاث مفسدة لصحة البدن .

أما تحريم ما أهل به لغير الله فهو صالح اجتماعى واعتقادى يستلزم مخالفة المسلمين لأهل الوثنية فى مظاهر عبادتهم .

***

فسهولة الإسلام ويسره ، أمر يدل عليه أنه كان الإعرابى يجىء إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم من البادية فيسلم ، فيعلمه النبى ما أوجب الله وما حرم فى مجلس واحد . كما ذكر الغزالى .

وقد يقول بعض خصوم الإسلام عن سوء قصد أو غير سوء ، فما بال أحكامه قاسية متناهية فى القسوة . ما بال الزانى يرجم أو يجلد ، وما بال السارق تقطع يده ، وشارب الخمر يجلد . ؟ وهم يجهلون كيف كانت هذه العقوبات توقع على المرتكبين للمآثم فليسمعوا مثالا من قضاء رسول الله ، وليسمعوا آراء المجتهدين بعد ذلك فى كيفية الحدود : فقد جاء ماعز الصحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله .. لقد زنيت ، فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم فكررها ثلاثاً فقال له رسول الله : لعلك قبلت . قال : بل زنيت ، قال : لعلك فاخذت ، قال : بل زنيت ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : هل دخل فيها كما يدخل المرود فى المكحلة؟ . قال : نعم .. كما يدخل المرود فى المكحلة . فأشار الرسول بيده وقال : خذوه فأقيموا عليه الحد ، ثم قال : ادرأوا الحدود بالشبهات . فهذا رجل يعترف .. من نفسه اعترافاً صريحاً بوازع وجدانه الإسلامى فيراجعه

(١) البقرة : ١٧٣

الرسول مرات ويهيء له الفرصة للفرار من الحد بالشبهة والتثبت من الجريمة وما اشترط من شهود عدول عليها . أربعة فى حالة الزنا وشاهدان فى غيرها كما هو فى المعاملات مثلا .

وإباحة رد الشهود باللعن الذى يسقط الحد ، كل ذلك معناه أنه يشترط فى جريمة الزنا والسرقة ونحوهما ، تلبس وثبوت قطعى بشهود لهم ضمير إسلامى ينهاهم عن الزور ويعلمون أنه إن ظهر كذبهم رجموا حتى يموتوا فتحل بهم العقوبة التى تآمروا على إيقاع غيرهم فيها . ومع ذلك كله فقد رأى الشافعى أن حد الزانى يجوز بالجلد بالأكف (ذكره المرحوم الخضرى بك فى كتابه : تاريخ التشريع الإسلامى) .

شروط حد السرقة

وحد السرقة وهو قطع يد السارق يشترط فيه توافر الأركان الآتية :

أن يكون السارق غير محتاج إلى ما سرق ، ثم أن يكون المسروق نصاباً (خمسة وعشرون درهماً فأكثر) وأن يكون أيضاً فى حرز . . وأن ينقب السارق الحرز ويسرق ، فإن نقب ولم يسرق وسرق سواه فلا قطع . وإن سرق مائة درهم عن حاجة إليها فلا قطع . (تلخيص من تفسير القرطبى — المؤلف) .

تلك أحكام الإسلام وصرامتها ، أفترونها أسهل وأيسر من أحكام العصور الحديثة والقوانين الفرنسية والإنجليزية أم لا ؟

من كل ذلك الإجمال نخرج بنتيجة حتمية وعقلية هى أن « الإسلام دين القوة والتسامح » .

وأن كل ما يوجد فى الإسلام من عسر أو عنت وإرهاق ، فإنما هو خطأ بعض الفقهاء فى فهم آيات الأحكام أو تعسفهم فى فهم السنة أو قصورهم عن الإحاطة بكل ما ورد فى المسألة الواحدة ، وأخذها من وجه من وجوهها وأولئك هم الذين غلوا فى الدين ففرقهم التغالى وصرف أهل الأجيال الحديثة عن فهم سماحة الإسلام .

***

الاســـــلام

دين الحرية والاخاء والمساواة الانسانية

هذه الحضارة الأوروبية الداعية إلى المساواة وأكل مبادىء الإنسانية لا تزال تبعث الفوارق الملية والمذهبية والقومية واللغوية والإقليمية . وتعتبرها في المكان الأول حين تضع التقسيمات السياسية والاجتماعية في المعاهدات الدولية .

وفوارق اللون في نظر الحضارة الأوروبية لا يمكن التسامح فيها حتى في أمريكا !

وإنجلترا التي تتزعم أوروبا في الجانب الأخلاقي ، تعامل الهنود وتعامل العرب معاملة تتأثر في صميمها بفوارق اللون والجنس والدين .

والثورة الفرنسية التي قامت لتسويد الحرية والإخاء والمساواة ، لم تفلح في تحقيق غرضها لأنه كان مجازاً سياسياً لغاية سياسية دفعت إليها ظروف اقتصادية ولم تكن عقيدة وجدانية روحية تحمل في ذاتها وسائل تسويد نفسها ، فاتخذت هذه المساواة المنشودة مظاهر عديدة مكذوبة، يستيقنها ويستنبطها كل من قرأ تاريخ الثورة الفرنسية. فتتكشف له مبادىء الحرية والإخاء والمساواة عن أشنع أكذوبة خدعت شعباً عظيما لزمان طويل فقدم لها ولدعاتها قرابين من القوت والمال والدم ! .

أما الإسلام فقد اتجهت شريعته إلى تحقيق الاخوة الإنسانية بين الأناسي وجمعهم على عادات واحدة واتجاهات روحية وعقلية واحدة ، ولغة واحدة وتلك هي دعائم بناء الاخوة الإنسانية في رأى علم الاجتماع قديماً وحديثاً ولا يمكن أن تتكون أمة تكوناً اجتماعياً صحيحاً من فئات مختلفة

الجنس واللغة والاتجاهات ، وإن أمكن أن تتكون الدولة من تلك الفئات — ومع ذلك فكل أمة لا تربط بين فئاتها الأواصر التى ذكرتها ربطاً وثيقاً لا تثبت على التاريخ بل تتفكك وكذلك الدولة .

تتجه الحضارات الحديثة إلى إقامة الامبراطوريات السياسية من مختلف الشعوب فتلاقى فى سبيل ربط أجزائها عناء شديداً ونفقة كثيرة، وتبذل من دماء أبنائها أكثر ، ثم تنتهى بأن تتفكك .

أما الإسلام فكان اتجاهه إلى امبراطورية دينية لأن الدين رابطة أوثق من كل رابطة ، هى رابطة تحرك دم الإنسان وتوجه عقله وتسيطر على تصرفاته ، والحروب الصليبية واجتماع المسيحية على محاربة الإسلام — على تباين لغــات أهلها واختلاف دمائهم وأقاليمهم ومطامعهم السياسية وغيرها شاهد بقوة العقيدة الدينية فى الربط الاجتماعى وتوحيد الاتجاه .

والإسلام بخصائصه المعروفة ، أوثق من غيره من الديانات فى صفة الربط الاجتماعى ، فبذلك نعلم أن اتجاه الإسلام إلى تحقيق الاخوة الإنسانية عن طريق ضم الناس جميعاً . إلى لوائه إنما كان الخطة الواحدة لهذه الغاية العظمى ،الخطة التى يؤيدها العلم الاجتماعى ولايعترف لغيرها بالقوة عليها.

ثم اتخذ الإسلام لتحقيق خطته الناجحة منهاجاً منطقياً يؤدى الغاية تأدية سريعة ميسورة .

أولا : صدق رسالات المرسلين قبله جميعاً ، إلى الأقوام جميعاً واعتبر التصديق بهم وبكتبهم شرطاً لإسلام المسلم لا يتحقق إيمانه بدونه فلم يعمل لجلب عداء طائفة من الناس له ولتعاليمه ، بل تودد إليهم بهذا التصديق برسلهم والاعتراف بعقائدهم .

ولم يكن ذلك من الإسلام مخادعة ليضم الأقوام إلى صفوفه بل كان ذلك هو روح الرسالة المحمدية بدليل أن الإسلام آخى بين المسلمين والكتابيين الذين فتح الإسلام بلادهم ، وبيان ذلك فى كتب التاريخ الإسلامى.

ثانياً : كما ترك لهؤلاء بعد أن تسلط عليهم وتمكن من أرضهم ورقابهم وأموالهم ، حرية عقائدهم بل حماهم كما ذكرنا فى فصل « الإسلام دين القوة والتسامح » من غزو الغير لهم وعدوانه عليهم .

ثالثاً : ساوت شريعة الإسلام بين جميع المسلمين فى جميع الحقوق والالتزامات على اختلاف أنواعها ودعت الناس جميعاً إلى الاستمتاع بأكمل صور المساواة والاخوة بدخولهم فى الإسلام فلا يمتاز منهم عربى على عجمى ولا قرشى على حبشى .

وقال القرآن فى تنبيه الناس إلى أنهم سواء « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** »(١) ولم يقل يا أيها المسلمون . . بل عمم القاعدة بين الناس إذ ناداهم بيا أيها الناس وقرر لهم بهذه الآية أن قاعدة وحدة الأصل ، تستلزم قيام المساواة بين الفروع .

وندد القرآن بعمل فريق من الأمم على استضعاف فريق فقال « **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين** »(٢) فالإخلال بالمساواة إفساد فى الأرض فى نظر القرآن كتاب محمد وقانون رسالته .

رابعاً : عمل الإسلام بمختلف وسائله العملية المثمرة على خلق التجانس بين أهله فبعد أن ربط بين قلوبهم بمعتقد واحد قوى التأثير على مشاعرهم كما يثبت لدى الباحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، أضاف إلى هذا العامل الأكبر ، وحدة التعاليم والقوانين . ولا شك أن من قواعد علم الاجتماع أن أخلاق الأمم وقوانينها تتفاعل مع بعضها فيؤثر كل فى كل .

فوحدة الشرائع وسيلة إلى وحدة العادات والأخلاق ، ودراسة المجتمع العربى تنبىء عن قوة تأثير التعاليم الإسلامية فى أهله وتحويلها لهم عن

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) القصص : ٤

عاداتهم المرذولة المشهورة فى التاريخ . وعـــدم تأثرها بتلك العادات والأخلاق .

دعا الإسلام إلى نفسه باللسان العربى ،وألزم المسلمين أن يعرفوا كتاب الله وسنة رسوله (فهى مفصلة ومفسرة للكتاب) ولا يتحقق كمال هذه المعرفة إلا بتعلم لغة الكتاب والسنة ، وقد أمكن لجماعة من الفرس والهنود والأحباش وغيرهم أن يتعلموا العربية بل صاروا من أئمة اللغة ذاتها ومن أئمة التفسير والفقه وأئمة رواة الحديث ، كالزمخشرى والرازى والفيلسوف كرامة حسين الهندى وحجة الله الدهلوى والزيلعى وغيرهم .

وبهذه الوسيلة ، وسيلة توحيد اللسان تتأكد الرابطة بين أعضاء المجتمع الإنسانى .

ومنح الإسلام الجنسية العربية لكل من تكلم العربية ولو من غير أهلها فقد روى الحافظ ابن عساكر ، قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى أنهم نصروا النبى لأنهم قومه) فما بال هذا وهذا ؟ .. فقام إليه معاذ بن جبل (رضى الله عنه) فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبى محمداً صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته ، فقام النبى مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودى : الصلاة جامعة (فاجتمع الناس) وقال محمد صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم (أى أنها ليست ميراثاً يتصرف العربى فيه) . وإنما هى اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

وتلك التعاليم المحمدية تحقق كما هو ظاهر أكمل صورة للمساواة الإنسانية .

***

الاســـــلام

دين يتطور وفق مطالب الأمم والعصور

فى أحكام القرآن (كتاب الإسلام) مرونة ومطاوعة تجعله ملائماً لاحتياجات كل زمان، وموافقاً لأهل كل، جيل فهو لايجمد ولا ينعقد مرتبطاً بظروف أناس معينين . ولا بحاجات إقليم معين ولا بطبيعة شعب معين ، ولكنه مسايرة للتطور فى الغرائز ، وفى الرق العقلى ، وفى البيئة الاجتماعية، وفى الحالة الاقتصادية ، وغيرها من الظروف والملابسات الخاصة والعامة.

فالإسلام يسمو على الجمود بل قد جاء لمحاربته . واستعمال العقل فى فهم الأحكام شرط لصدق الإسلام . فتطور العقل يتكفل بتطور التطبيق للشرائع الإسلامية .

أما جوهر الشرائع فلا يتغير وإن لان وطاوع على تغيير الانطباق . وجمود المسلمين وتقليدهم لآراء الفقهاء دون تطور ولا تحوّل عنها برغم تحوّل الزمن وتطور العقول ، لايحسب على الإسلام .

هذا الجمود الذى صرف أهل الدين عن دراسة أصول الإسلام والنظر المستقل فى القرآن وشغلهم بجدليات سخيفة هى من صنع من سبقوهم ، ومصطلحات معقدة (كالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والأبنية) تنافى بساطة الإسلام وسهولته ووضوح مقاصده وجمال توجيهاته.

هذا الجمود سبب تأخر المسلمين ولو انصرفوا إلى التعرف إلى حقائق دينهم واستخلاصها من كتابهم . وتعريف العامة بها وإرشادهم ، لكفلت لهم تعاليم الإسلام المجد والنصر ، وأينعت فى ظلها حضارتهم .

من العجيب أن يظل المسلمون قروناً طويلة يقلدون مذهب الشافعى أو أبى حنيفة مع أن أحد هذين الإمامين لو بعث من قبره فى هذه العصور لغير بعض آرائه . ولتبينت له وجوه أخرى فى الأحكام فقد يختلف العصر والبيئة اختلافاً يوجب تغيير الأحكام والعدول عن بعض الآراء وما وقع للإمام الشافعى (رضى الله عنه) من العدول عن المذهب القديم إلى المذهب الجديد يلقى ضوءاً على هذه الحقيقة . ويؤخذ منه الدليل على جواز الاجتهاد إذا توفرت فى الشخص مؤهلاته وهى ليست بالأمر العسير .

وفى اليواقيت والجواهر أنه روى عن أبى حنيفة (رضى الله عنه) أنه قال : لاينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى . وكان إذا أفتى يقول : هذا رأى النعمان بن ثابت — يعنى نفسه — وهو أحسن ماقدرنا عليه . فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب . وكان الإمام مالك (رضى الله عنه) يقول : ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعى يوماً للمزنى : يا إبراهيم .. لاتقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين . وكان رضى الله عنه يقول : لاحجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كثر . وكان الإمام أحمد ابن حنبل يقول : ليس لأحد مع الله ورسوله كلام . وقال هو نفسه يوماً لرجل : لاتقلدنى ولا تقلدن مالكاً ولا الأوزاعى ولا النخعى ولاغيرهم . وخذ الأحكام من حيث أخذوا ، من الكتاب والسنة .

فهؤلاء الأئمة أصحاب المذاهب ، وهذه أقوالهم فى النهى عن الجمود على آرائهم والتمسك بها وتقليدهم .

وقد جاء رجل إلى سعيد بن المسيب وهو من أعظم فقهاء المسلمين ومن رجال الصدر الأول للإسلام (توفى سنة ٩١ هـ) فسأل الرجل سعيداً عن مسألة فألقى إليه بجوابها فكتبه الرجل ، فأخذ سعيد منه ماكتب وأحرقه . وقيل

لجابر بن زيد الفقيه ومن رجال الصدر الأول (مات سنة ٩٣ هـ): إن الناس يكتبون مايسمعون منك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون.. يكتبون رأياً قد أرجع عنه غداً .

فهذه الروايات التاريخية عن أعاظم فقهاء المسلمين ،وهذا النظر العقلى فى مسألة التقليد يحرم على المسلم الجمود على القديم واتباع آراء الفقهاء وتعطيل عقله عن النظر والاستنباط من آيات القرآن .

فالقول بعدم صلاحية تعاليم الإسلام للعصور الحديثة خطأ وإنما الذى لايصلح هى آراء الرجال المفسرين والمشرعين . كانت تصلح لأزمنتهم ولكن تغير الأزمنة حوّل صلاحيتها إلى عدم الصلاحية .

إن جميع الكتب السماوية لايجوز أن تبقى على الفهم المحدود بعد أن اتسعت آفاق الطاقة العقلية للبشر فى هذه العصور ... فإنه لم يثبت — ولايجوز أن يحدث هذا — أن المجتمع الإسلامى قد عقم عن عقول تأخذ من كتاب الله وهدى رسوله ما يوافق حاجات العصر الذى يعيشون فيه ، أخذاً مباشراً لايتوسط فيه مالك ولا ابن حنبل رحمهما الله تعالى .

وإن اختلاف الأئمة الأربعة فى أصول الأحكام ، معناه أن عقل كل منهم وهم متعاصرون ، يختلف عن عقل الآخر فى النمو والاتجاه والقدرة على الفهم ، فكيف نقلدهم ونثبت على آرائهم مع أنه قد يكون فى المسلمين اليوم من العلماء الذين قرأوا مكتشفات العلم الحديث ، من يفتح الله عليه بسبب ما علم وما قرأ ، بآراء جديدة ، أليق بعظمة الإسلام وأحسن من آراء من سبق ؟!!

ولو وسع المقلدون على أنفسهم ولم يحصروا الإسلام بين الأئمة الأربعة لكانت نكبة الجمود أخف أثراً فى حياة المسلمين وأقل إعاقة لازدهاره ، فمن أئمة المجتهدين الذين لاينقل عنهم أحد سعيد بن المسيب ، وسليمان ابن يسار وأبوسلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وعطاء ومجاهد وعكرمة وطاوس وابن جرير ويحيى بن كثير وسالم بن خالد وعلقمة وعبيدة وشريح ومسروق والشعبى وإبراهيم النخعى وابن المبارك وجابر بن زيد وإياس

ابن معاوية وسوار القاضي والأوزاعي وزيد بن جابر وكثيرون جداً غيرهم يساوونهم في الفضل .

والدليل على أن الإسلام دين يتطور مع احتياجات الزمن وظروف الأحوال ما ورد في صحيح الآثار من أن عمراً (رضى الله عنه) أمر بأن لايحد السارق في المجاعة فهذا أصل من أصول التشريع في الإسلام ألغى بتاتاً إلغاء مؤقتاً لظروف استدعت هذا .

ومن أسباب جمود مشايخ المسلمين ووقوفهم بشرائع الإسلام أنهم يعيشون في دنيا خاصة بهم من الكتب والجدل ولو عاشوا في دنيا الناس لساروا بدينهم مسايرة للمجتمع وموافقة لروح هذا الدين ومطابقة لحاجات العصر .

ولأراحوا الناس من التعصبات المتعادية المبغضة التي تقسم المسلمين فرقاً . فإن من الناس في هذا الزمان من يرفض الصلاة خلف إمام على غير مذهبه الفقهي . وهؤلاء لايعرفون أن الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من يقنت في الفجر ومن لايقنت ، ومن يتوضأ من الحجامة والقيء ومن لايتوضأ منهما ، ومن يتوضأ من لمس النساء بشهوة ومن لايتوضأ . ومع هذا فكان بعضهم يصلي خلف بعض مثلما صلى أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما خلف أئمة المدينة من المالكية .

وكان الإمام أحمد يرى وجوب الوضوء من الرعاف والحجامة ومالك يرى الوضوء منهما غير واجب ، فقيل للإمام أحمد : إن كان الإمام (يقصدون بهذا اللفظ عند إطلاقه الإمام مالكاً) قد خرج منه الدم ولم يتوضأ ، هل تصلي خلفه ؟ فقال : كيف لا أصلي خلف الإمام مالك ؟ مع مخالفته له في الرأي الفقهي واعتبار ابن حنبل أن الصلاة بلا تجديد الوضوء في تلك الحالة صلاة باطلة ، ولكنه يصلي واثقاً من صحة استدلال الإمام مالك ومن صحة صلاته !!

فهل يفهم المتعصبون من المتعادين والمتمذهبين والمتشيعين ، أن جمودهم يصم الإسلام . وأن الإسلام دين يتطور وتساير أحكامه كل حالات الزمن وحاجات الأمم ؟

***

الاســـــلام
يلائم الغرائز البشرية

الذين يظنون أن الإسلام يصدم الفطرة البشرية فتكثر فيه الأوامر والنواهى . تقيد الفطرة وتمنع انطلاقها على ما جبلت عليه ، يخطئون لأنهم لا يعرفون !

إن أوامر الإسلام ونواهيه إنما تتجه إلى تهذيب الفطرة لا إلى مصادمتها ، وتهذيبها يؤدى إلى كمالها وإسعادها .

فمعنى الإنسانية الراسب فى الفطرة البشرية .هو سمو على عوالم المخلوقات الأخرى فى الأقوال والأفعال ، وهذا السمو موجود فى فطرة الناس جميعاً وجوداً كامناً ، فلا يظهر من تلقاء ذاته ، ولكن مؤثرات خاصة إما أن تخرجه إلى الوجود وإما أن تكتمه فى الأعماق .

فالإسلام وضع التعاليم والشرائع الكفيلة بإبراز هذا المعنى فى أبهى صوره ، وأبهر مرائيه . ولأول وهلة يرى المتأمل للآيات القرآنية التالية ، أن الإسلام يساير الفطرة ولا يصدمها .

« خذوا زينتكم عند كل مسجد» (١) «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) .

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » (٣)«وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً» (٤) « فإذا

---

(١) الأعراف : ٣١
(٢) الأعراف : ٣٢
(٣) الأنعام : ١٤١
(٤) المائدة : ٨٨

وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر »(١)«يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات » (٢) .

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » (٣) .

وغير ذلك مما يؤيد أن الإسلام أباح الزينة للمسلمين . وهى إحدى مطالب الفطرة . وأباح لهم لذات الأكل والشرب والحلى بل ندب للاستمتاع بهذه اللذات وحث عليها .

والإسلام حين ينبه أهله إلى ملاذ الأكل والشرب والزينة يخشى عليهم طبيعة الفطرة البشرية وهى الأنانية والاستئثار ويحذرهم منهم لأنها لا تبنى المجتمع ولا تقيم التعاطف والود فيقول لهم « **وأطعموا البائس الفقير** » (٤) ويقول لهم : « **وآتوا حقه يوم حصاده** » (٥) أى ادفعوا زكاته للفقراء (وهى زكاة الزروع المفروضة) فهذا تهذيب للغرائز الحيوانية وترقية للغرائز الإنسانية . فإن البشرى مركب من طبيعة الحيوان وطبيعة الملائكة . وإقامة التعادل بينهما ، تكفل له انسانيته ، وكلما سمت طبيعته الثانية على الأولى . كلما قرب من المثال المنشود وهو الإنسان الراق . اا (سوبرمان) الذى يحاول فلاسفة العصور الحديثة أن يبتكروا الوسائل لإيجاده . بينما شريعة الإسلام قد تكفلت بأن تصنع من هذا السوبرمان ، ملايين عديدة بأقل جهد.

أما النواهى الإسلامية عن أطعمة وأشربة معينة . ولذات تماثلها كالقمار والمراهنة وسواهما . فإن أقل تدبر فى مراميها ، يشهد للإسلام بالعظمة والسمو والحكمة ، وينطق بأنه دين الله الذى يدبر مصالح مخلوقاته وهم لها جاهلون .

---

(١) الحج : ٣٦ (٢) المائدة : ٤ (٣) فاطر : ١٢
(٤) الحج : ٢٨ (٥) الأنعام : ١٤١

فقد حرم الإسلام على المسلمين أن يأكلوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . وأمرهم النبي بأن يغسلوا الإناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب .

وهذه التعاليم هى غاية التدبير للصحة الإنسانية ، وتدبير صحة الناس من مقاصد الإسلام ، فإن الطب فى عصر رسالة محمد لم يكن يعرف أن لسان الكلب يحمل ميكروب ديدان كثيرة منها (تينيا ايكينوكوكس) وأن هذا الميكروب لا يقتله إلا الكافور . وأن التراب يحتوى ضمن عناصره مادة الكافور ! !

ولم يكن الطب يعرف أن آكل لحم الخنزير عرضة لأن يصاب بالدودة الوحيدة (تينيا سوليم) ولكن الله كان يعرف كل هذا وسواه . والميتة تتوالد فيها لفسادها ميكروبات أمراض متعددة تنتقل إلى آكلها ، وما أهل به لغير الله ، فيه إرجاس للعقائد ، فإن قرابين الأصنام ليست مشروعة النحر ، وطريقة ذبحها موجبة لفساد لحومها ودمائها . فالأكل منها يعرض صحة الآكلين للتلف والأمراض ، ونظن المعنى الأدبى الآخر المقصود من التحريم منكشف لأصحاب المشاعر الحساسة ، فلو أن الناس رفضوا تعاليم الإسلام والأديان ، منتظرين حتى يتعلموها بحواسهم ، ويدركوا مقاصدها بعقولهم ، لهلك النوع الإنسانى هلاك الأجساد ، وهلك هلاك العقول ، وانحط إلى أدنأ المراتب ! وليس الدين مضطراً إلى أن يشرح للمرسل إليهم كل جزئية من أوامره ونواهيه والحكمة منها ، لأن عقولهم ليست — حين التبليغ — مستعدة لادراكها ، كما يظهر من الأمثلة التى قدمناها .

ولما كانت الغريزة الجنسية هى أقوى اللذائذ الحيوانية فى النفس حتى اعتبرها (فرويد) سيد علم النفس الحديث ، الباعث والدافع لكل تصرفات الإنسان ، فنريد أن نرى موقف الإسلام منها .

***

الغريزة الجنسية تنطلق بالإنسان (رجل أو امرأة) نحو الوطء والمباشرة بدون نظر إلى أى اعتبار ، فلو تركنا الناس فى هذا وشأنهم لتواقعوا فى

الشارع ولواقع الرجل أمه أو أخته لأن الغريزة الجنسية المندفعة ، لا تبالى إلا بنفسها وبتحقيق وظيفتها العضوية .

ولكن هناك أشياء يجب أن يبالى بها ويلاحظ شأنها . هناك غريزة الحياء وغريزة حفظ النوع وغريزة التملك والاستئثار ، هذه لا يجوز أن تطغى عليها الغريزة الجنسية فتميتها أو تضعفها ، فلذلك نظم الإسلام اتجاه الغريزة الجنسية تنظيما يحقق لغيرها من الغرائز عملها .

فأباح الوطء والمباشرة ،مسايرة ومواءمة للغريزة ، ولكنه حرم وطء الرجل امرأة لا تربطه بها صلة الزوجية ليساير الإسلام غريزة حفظ النوع . وغريزة الاستئثار ، التى تطلب امرأة خاصة غير مباحة للآخرين ، وحرم تزوج نساء أخوات ليرضى غريزة الحياء . ويصون المجتمع من اختلاط الأنساب ويحمى غريزة الأمومة ، وعاطفة الاخوة ، وما فى حكمها من حيث الوضع الوجدانى أو الوضع الاجتماعى .

حرم الإسلام على الرجل أن يتزوج زوجة أبيه ، أو أمه أو أخته أو عماته أو خالاته أو بنات أخته أو بنات أخيه أو المرأة التى أرضعته أو أن يجمع بين زوجتين أختين (ليرضى غريزة الحياء فى المرأة الأخت فإن حياءها حيال أختها أشد كثيراً منه حيال غيرها) .

وليس التشريع الإسلامى — فى أى جانب من جوانبه — متناولا بشريعته وتعاليمه مقصداً واحداً : ولكنه يحقق بالحكم الواحد مقاصد كثيرة .

فإن التنظيم للغريزة الجنسية لوحظ فيه (فضلا عن المحافظة على الغرائز البشرية الأخرى) اعتبارات طبية ، هى التى بعثت على التحريم أو الإباحة ، وهذه الاعتبارات التى تصون الصحة هى من أصول الدين الصحيح .

ومن الاعتبارات الطبية الملحوظة فى تشريع الزواج ، أن ينشأ النسل قوياً وهذا لا يتوافر فى زواج الأقرباء ، لأن وحدة نوع الدم وحالة الحياء الناشىء عن العشرة ، الأول لا يسمح فى الدم الضعيف بإمداده بدم قوى غريب عنه ، والثانى يمنع حال المضاجعة من التلذذ الجنسى الكامل الذى يلزم معه حتما ضعف النسل كما يقرر الطب الحديث .

ومن أسباب التحريم لزواج من حرم الإسلام زواجهن — **فضلا عن الأسباب المتقدمة — سبب الاضطراب الاجتماعي باختلاط الأنساب فيصبح الولد ابناً وزوجاً وأخاً وأباً وهكذا . وذلك ولا شك ضد الفطرة .**

ومن مسايرة الإسلام وتعاليمه للغرائز البشرية ، أنه يوصى الأبناء بآبائهم وأمهاتهم ، ويترك الأبوين لا يوصيهما .لأن غريزة الأمومة والأبوة لاتحتاج إحداهما إلى مزيد من التوصية بالأبناء .

***

وساير الإسلام فى منهاجه التعليمى ، فطرة الناس . فتدرج بهم من المعلوم إلى المجهول ، ولم يفرض عليهم العقائد الغيبية . بل اتبع مقتضى فطرتهم .

ومن أمثلته قول القرآن « **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** » (١) فذكر لهم فى التدليل على ما يجهلون من وجوده وصفاته . ما يعرفون من آثاره . وهو أنه يميتهم ويحييهم ويكرر ذلك . فهذا المعلوم من آثاره يوصل إلى تصديقه فى ما أخبر عنه من غيب ، وكذلك سائر آيات القرآن الوعظية والتعليمية تنحو هذا النسق .

***

والفطرة البشرية تطلب بغريزتها ، الأمان والعدل والسلام . والإسلام يمكن لهذه المطالب ويحث عليها ويحميها . فليست فى الإسلام عقوبة تنكيل أبداً ، إلا عقوبة المفسدين فى الأرض أى العابثين بالأمن من قطاع الطرق والقتلة المتربصين ونحوهم وهذه العقوبة تقضى بأن تقطع الأيدى والأرجل من خلاف أو بالصلب . وقد أريد بهذه الطريقة التنكيل والردع حتى يتحقق للناس ما تنشده الغريزة من الأمن والسلام والعدالة .

ومن روائع القرآن فى هذا الصدد قوله : « **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** » (٢) والمفسرون متفقون على أن المعنى أن الله لا يهلك

---

(١) البقرة : ٢٨ (٢) هود : ١١٧

البلدان حتى المشركة ، ما دام أهلها قائمين بالإصلاح ناشرين العدل والأمن والسلام ،وقالوا فى قول القرآن : « **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** »(١) أنهم المصلحون ولو من غير المسلمين لأنهم يكونون إذن على أخلاق الإسلام.

* * *

فمن كل هذا ترى أن القرآن يلائم الغرائز البشرية ولا يفرض عليها تعاليمه مع مضادة بينهما . وإنما يتجه بها بوسائله الموفقة إلى الكمال ويرشدها إلى خيرها ، ليس مجرد إرشاد وعظى ، ولكن إرشاد يمكن لغاياته فى أصل الفطرة . فهو يمشى بالعقل الفطرى — والفطرة عاقلة يرسب العقل فى مطاويها وإن لم يظهر إلا بالتنمية والتهذيب — إلى استكمال قواه ، ويرشده إلى استعمال هذه القوى ، ويرقى به بتشريعه وقصصه وتهديده ووعده من المحسوس إلى المعقول ، ثم من المعقول إلى المتخيل ، فيوسع للعقل آفاقه ويناقش بالبرهان ، ولا يلزم بالقهر .

فللناس عبادات فطرية — كما هو ثابت من تاريخ الاجتماع البشرى — واعتقادات فطرية هداهم إليها عقلهم الفطرى . اتجه بها الإسلام إلى المعقول والواجب . ولم يتأثر الإسلام بها كما تأثرت بها المسيحية واليهودية فنهاهم عن عبادة الكواكب والنار والحيوانات . وبين لهم أن رقى فطرتهم وعلوهم الذاتى عن هذه المعبودات ، يقتضى أن لا تكون آلهة لهم .

وهذا هو معنى قولنا إن الفطرة البشرية عاقلة ولكنها تحتاج التوجيه والإرشاد .

فالوجدان والشعور الإنسانى يحس وجود الله . ولكنه إذا لم يرق بالتهذيب والتوجيه وتكميل قواه ، يتخبط فى فهم الحقيقة الإلهية ، ويقف جامداً عند غرائز الفطرة وعقلها الناقص فيرى النار إلهاً لأنها تحرقه ويجسم الإله فى صورة حيوان يرهبه .

---

(١) الأنبياء : ١٠٥

ويؤيد قولنا إن الفطرة عاقلة وإن من مظاهر عقلها التدين قول الفيلسوف الفرنسي الأشهر « أوجيت سباتييه » فى كتابه (فلسفة الأديان) :

« أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فإن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى ، وإن الفكر الفلسفى وتجاريب الحياة المؤلمة . تجعلنى متمسكاً دائماً بالتدين » .

فالتدين لا يمكن أن ينفك عن الفطرة وغرائزها . وكل محاولات الإلحاد إنما هى مقاومة للفطرة الراسبة فى كيان الملحد ولن تنتهى بانتصاره ، وإن ظن أن أوهام عقله وأخطاء إدراكه ، هازمة للفطرة .

بهذا يثبت أن الإسلام تسام بفطرة التدين الغرزية ، وأنه مساير للغرائز الإنسانية وفيه تكميل لها وتهذيب .

* * *

الاســـلام

نسخ اليهودية والمسيحية

قلنا فى فصل آخر إن التدين غريزة فى الفطرة البشرية، وأنه أيضاً لازم اجتماعى لا ينفك عن طبائع الجماعات . وإذن فلابد لكل من دين .

وقلنا أيضاً : إن اليهودية والمسيحية المنزلتين على موسى وعيسى عليهما السلام . ديانتان سماويتان .

وأثبتنا فى فصل «التوراة والإنجيل مفقودان» ضياع أصول الديانتين .

فهل إذا اهتدى الناس إلى أصول إحدى هاتين الديانتين ، يغنيهم اتباعها عن التدين بالاسلام ؟

الجواب المستمد من العلم والعقل هو أن الإسلام نسخ أصل الديانتين وأنه لا يقبل عند الله ، من أى متدين ، دين سواه .

إن طبيعة البشر هى الرقى الفكرى ، والديانات تتبع هذا الرقى مرحلة فمرحلة وتؤثر فيه . وتعد الناس للتطورات المتعاقبة فى مدارج الرقى .

فليس من المقبول أن تكون أمة فى حال من البدائية وسذاجة الفطرة ، ثم ينزل عليها دين فيه أصول الحضارة وفى شرائعه كل غايات الكمال إذ أن عقولهم لن تتسع لإدراكه ، واتجاهاتهم لن تتسق مع تعاليمه . عجزاً عن احتمال أدبياته وشرائعه .

وهكذا مشت الديانات مساوية لمستوى الفكر الإنسانى وتطوره ، وحالات الطبيعة البشرية ، وما كان لها عقلا أن تمشى على غير هذا .

وقد نبأ الله آدم أبا البشر ، فإن إله الناس لا يجوز عليه أن يترك الناس بدون شريعة ، وقد اقتضى إعدادهم الطبيعى أن تكون لهم علاقات وصلات

متعددة ، واقتضت إرادته تعالى أن يحاسبهم ويثيبهم أو يعاقبهم . ثم تعاقب الأنبياء بعد آدم حتى لا نعرف أسماء أكثرهم ولا أزمنتهم ، لأن علم التاريخ لم يتناول عصورهم بالتسجيل . ولكن قدماء المصريين كانت لهم ديانة ، والصينيين والهنود تنبأ فيهم كونفوشيوس وبوذا وبراهما فبعث الله فى كل أمة نبياً ملهماً ، بشرائع تتفق أصول العقائد فيها جميعاً ، وتختلف أحكامها باختلاف حاجات الأقوام وحالاتهم . وبعث فيمن بعث من النبيين موسى وعيسى .

وهذه الرسالات كان مقصودها — فيما نراه — أن تهيىء استعدادات الناس بالوسائل المناسبة لهم حتى تتقارب اتجاهاتهم الروحية والعقلية تمهيداً لشريعة عامة باقية تسوى بينهم ، كما سوى بينهم اتحاد أصلهم ، وتوافق الارتقاء الاجتماعى (الذى هو من سنن الطبيعة) فإنهم — كما شاهدنا — لم يبقوا على حال التفرق الأول بل اندمجت أمم فى أخرى وتقاربت بهم وسائل المدنية ، فما أحوجهم إذن لشريعة واحدة ، تجعلهم أمة واحدة .

ووفق هذه القاعدة مشى تشريع الديانات وتعاليمها ، فأمة بنى إسرائيل المتجبرون العصاة لأنبيائهم ، فرضت عليهم شريعتهم الحرمان من كثير من اللذائذ البدنية ، ترويضاً لنفوسهم وتهذيباً للملكات الحيوانية فى كيانهم .

فلما أدى موسى عليه السلام رسالته . بعث الله عيسى ليجدد شريعة موسى ، فكان إنجيله إحياء للتوراة ومسايرة لارتقاء الناس ودواء لحالة المجتمع فى عصره .

والشريعتان كانتا شرائع لزمان معين . لأنهما لم تتناولا كل شىء من مرافق الجماعة وحياة الأفراد ، وقد أحس الفلاسفة هذا بعد انقضاء زمن على شريعة موسى (طبق ما ذكرناه فى فصل : رسالة النبى محمد تحمل فى أطوائها عوامل النجاح) فكانوا ينتظرون نبياً علقوا على بعثته آمالهم فى الخلاص من حالة عصرهم .

أما شريعة النبى محمد فشريعة عامة جاءت للناس جميعاً توحدهم وتربط بينهم برباط العقيدة والتعاليم . وخالدة ، فإن القرآن نزل على الرسول صلى

الله عليه وسلم مقسطاً فى زمن مدته ثلاث وعشرون سنة ونزل بعضه أو أكثره لمناسبات تشريعية ونحوها . فحياة الأمة العربية فى ثلاث وعشرين سنة بعد الاسلام الذى أنهضها وارتقى بهـا ، تعتبر أنموذجاً لحياة الأمم . وما يعترضها من المسائل والأنظمة والشئون والأحكام يعتبر صورة مجملة على الأقل لمـا ينتاب غيرها من الأمم . فلهذا صلح الإسلام نظاماً لكل مجتمع . ودستوراً لكل أمة . وليست صلاحيته راجعة إلى هذا السبب وحده ، ولكنه سبب رئيسى ، يزاد عليه أن الإسلام يقيم شريعته وأحكامه على أساس العرف القائم بين الناس ويعتبره قانوناً يعترف به فى قوله (خذ العفو وأمر بالمعروف) والعرف (١) أى المتعارف عليه إنما هو قانون الفطرة المنفعل عن أطوارها المختلفة والمتطور تبعاً لتطورها . وقد ضمن الإسلام بتعاليمه وأحكامه الفطرة وصبها فى قالب يرضيه . فارتضى آثارها وانفعالاتها حكماً بين الناس وارتضاها جزءاً من شريعته ، وبهذا يقوم البرهان على أن سنة الارتقاء ومسايرة الأديان لتطور الأمم ، تقف عند شريعة القرآن . لأنه شامل سائر مرافق الحياة ومتكفل بإقامة الأنظمة المناسبة لكل جيل وكل أمـــة .

ومن مميزات القرآن كما يفهمه القارىء من فصل (نظرات فى القرآن) أن فيه آيات محكمات وهى أصول العقائد ، وآيات أخرى فيها وجوه للناظرين ، ودلالات مختلفة تلائم كل عقل . فاختلاف الأئمة الأربعة فى كثير من أحكام الشريعة ، مصدره هذا ، وكل منهم مصيب صحيح النظر ، ونظرتنا فى القرآن التى خرجنا منها بتحريم الإسلام للرق صحيحة ، ونظرة الذين قالوا بإباحته صحيحة .

فيا لسمو هذه الأحكام ، ويا لروعة هذا القانون ، الذى يستمد قوته الباهرة ، وتفرده بهذه الخاصية ، من ألوهته ولا شك ، والذى لا تجمد نصوصه على معنى وما فى كلام البشر كافة كلام فصيح يحتمل المعانى المتعددة ولكنه كلام الله !

---

(١) صواب الآية : «خذ العفو وأمر بالعرف» (الأعراف : ١٩٩) .

جاءت شريعة النبي محمد لتحقيق غايات الإنسانية المجيدة فأنكرت ألوهة عيسى وكان من مقاصد الإسلام رد الديانتين إلى أصلهما . ولولا شريعة النبي محمد لجحد كل عقل ديانة عيسى وأنكر نبوته ، لأن العقل ينشد في شريعة تجيء بعد شريعة موسى ؛ أن تكون أكمل منها ، فكيف تدعو شريعة موسى إلى التوحيد ، وتدعو شريعة أرقى منها إلى الأقانيم الثلاثة والبنوة ؟!.

ومن المسيحيين طائفة تنكر خرافة ألوهة عيسى هم الأريسيون ، يعتقدون أنه بشر رسول ، لا يزيد على ذلك شيئاً وهم مضطهدون من الكنيسة . . .

ومنهم طائفة اليعقوبيين (الأقباط الأرثوذكس) يرون أن اللاهوت اتحد بالناسوت عند التكوين ، ولكنهما صارا ناسوتاً فقط بعد الولادة ويسمى رأيهم (بالقول بالطبيعة الواحدة) وهؤلاء أيضاً مضطهدون من الكنيسة البابوية مع فساد فكرتهم وإن تكن أقل مغالاة من فكرة غيرهم فإن الأصول العلمية تقرر أن اتحاد شيء مع غيره واستحالتهما شيئاً واحداً لابد فيه من انقلاب حقيقة الشيئين إلى حقيقة ثالثة . ومثاله اتحاد الأوكسجين والإيدروجين فإنه يكوّن الماء . والماء شيء غير هذين العنصرين المكونين له . فكيف يتحد الله مع الجسد فيصير جسداً ، مخالفاً في هذه الاستحالة قواعد العلم الطبيعي ؟!

وقد ذكرنا في فصل آخر بعض ماقيل إنه مصدر الدعوى بألوهة عيسى عليه السلام ونذكر هنا أن طوائف المسيحيين يستدلون على ألوهته بإحيائه الموتى وهذا الاستدلال خطأ ، ويستدلون بأنه ولد من غير أب . وهــذا أيضاً خطأ .

فإن آدم ولد من غير أب ومن غير أم . ولم يكن هذا مبرراً لأن تنسب إليه الألوهة ، وإبراهيم عليه السلام أحيا أربعة من الطير . وموسى أحيا بقرة بني إسرائيل والسبعين الذين اختارهم من قومه لما هلكوا من الصاعقة ، وأرميا أحيا حماره . وحزقيل أحيا ثلاثين ألف إنسان بعد موتهم بستين سنة (على ما تذكره التوراة) وخلق عيسى للطير ليس أعظم من طيران بساط سليمان . ولا ضرب موسى البحر بعصاه وفرقه .

والنبي اليسع أبرأ الأكمه والأبرص . ولم يستلزم ذلك نسبة الألوهة إلى أحدهم .

وليس غلو المسيحيين فى تعظيم عيسى عليه السلام أمراً غير مألوف فإن طائفة كبيرة من المسلمين غلت فى تعظيم الإمام على حتى زعموا له ما يقرب من الألوهة وسجد له أحدهم فقتله . وقالت فئة أخرى إنه رضى الله عنه كان المقصود بالوحى والنبوة ، فأخطأ جبريل عليه السلام ونزل بالوحى على النبي محمد .

وإن عمر بن الخطاب وهو من أعاظم الصحابة تديناً وتوحيداً خرج على الناس فخطبهم يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهددهم بأن يضرب عنق من يزعم أن محمداً قدمات ، تنزيهاً منه للنبي عن الموت ، لولا أن خرج أبو بكر فقال : أيها الناس..من كان يعبد محمداً فإن محمداً قدمات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . وذكرهم بقول القرآن : « **إنك ميت وإنهم ميتون** » (١) فثاب عمر إلى الرشد .

فهذا وسواه يعطى أن غلو الناس فى تعظيم أنبيائهم وزعمائهم ، أمر مألوف متكرر فى التاريخ . فتلك « جان دارك » القروية الساذجة قال عنها الفرنسيون أهل الحضارة إنها قديسة ملهمة من السماء .

***

نحن نؤمن بالتوراة والانجيل

ونؤمن بأنهما منسوخان

فنحن نؤمن بأنه كان هناك كتابان سماويان نزلا على النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، ومصدر إيماننا بهما هو قرآننا ، ولكن قرآننا يقول لنا أيضاً إنهما غيرا وبدلا ، ويقول لنا إنهما مع كل ذلك منسوخان .

صحيح أن القرآن ذكر أن من أحكام الكتابين بعض وصل إلينا كما أنزل ولم يبدل لفظه ، وإن كان اليهود قد عطلوا تطبيقه كرجم الأشراف الزناة

---

(١) الزمر : ٣٠

فإن الحكم برجم الزانى عام فى التوراة ، ولكن أحبارهم استثنوا بلا نص زناة الأشراف .

والرجم الذى فى التوراة ، ومثله من الأحكام التى نسلم بصحتها منسوخ بالرجم الذى فى القرآن مع أنهما كيفية واحدة . . فما معنى هذا ؟

معناه ومثاله أن يلغى قانون جديد ، قانوناً قديماً مع اشتماله على بعض مواد القديم ، فالحكم فى هذه الحالة لا يكون باعتبار القانونين قائمين ولكن ببطلان الأول وقيام الثانى مكانه .

***

النسخ فى الشرائع القديمة

وليس ما نقوله عن نسخ الإسلام لما سبقه ، بدعاً من القول فقد نسخ الإنجيل من شرائع التوراة . ونسخت التوراة ما قبلها ، إذ كان الزواج بالاخوة والأخوات مباحاً فى شريعة آدم ونوح وإبراهيم كما ذكرته التوراة (سفر التكوين الإصحاح العشرون آية ٢١ —ترجمة عربية طبعة سنة ١٦٢٥) عن لسان إبراهيم عليه السلام متحدثاً عن زوجته سارة (إنها أختى بالحقيقة ابنة أبى وليست ابنة أمى وقد تزوجتها) . فنسخت التوراة الإباحة واعتبرت الزواج من الأخت مساوياً للزنا « سفر الأحبار ، الإصحاح الثامن عشر آية ٩) . (لا تكشف عورة أختك من أبيك كانت أو من أمك ، التى ولدت فى البيت أو خارجاً من البيت) وآية ١٧ من الاصحاح العشرين من السفر نفسه (أى رجل تزوج أخته ابنة أبيه ، أو أخته ابنة أمه ورأى عورتها ورأت عورته ، فهذا عار شديد فيقتلان أمام شعبهما) .

والنبى يعقوب جمع بين الأختين بنص قصص التوراة .وشريعة التوراة حرمت الجمع بينهما (سفر الأحبار الإصحاح ١٨ آية ١٨) .

والأناجيل المختلفة نسخت من أحكام التوراة ، تحريم السبت (ولهذا أراد اليهود قتل عيسى عليه السلام) فكل شريعة تنسخ الشريعة التى قبلها .

حكمة النسخ :

هذه أمثلة قليلة من شيوع النسخ بين أحكام الديانات ، فكل دين ينسخ ما قبله ، وقد ينسخ الدين حكماً من أحكامه الخاصة ، ملاحظة لصالح المشروع لهم . فإن تلك المصالح يجوز عقلا اختلافها باختلاف الأقوام واختلاف الأزمان .

ونسخ الإسلام لليهودية والمسيحية ، أصر عليه القرآن (الذى يحتجون به علينا) فقال : « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** » (١) .

***

اعتراف التوراة والانجيل

بأن نبوة محمد ناسخة لشرعها

والتوراة والإنجيل يبشران بالنبى محمد باسمه وصفته ويصرحان بأن شريعته تنسخهما . فقد حقق السابقون أن التوراة قالت فى السفر الخامس (قال موسى لبنى إسرائيل : لا تطيعوا العرافين والمنجمين ، فسيقيم لكم الرب نبياً من إخوتكم مثلى فأطيعوا ذلك النبى) . والمقصود بهذا النبى هو النبى محمد للأسباب الآتية :

أنه ليس لبنى إسحاق إخوة بعث الله منهم نبياً بعد موسى ، إلا بنى إسماعيل ، ولو كان المراد من الآية أنه نبى منهم لما جاز هذا التعبير . ولوجب أن يكون « نبياً من أنفسكم »

فإخوة بنى إسرائيل هم بنو إسماعيل والنبى محمد من بنى إسماعيل . والأخ لغة فى جميع اللغات يطلق على المتولد من أبوى إنسان أو من أحدهما

---

(١) الأعراف : ١٥٧

فهما أخوان ، وهذا هو الأمثل فى الاخوة ويطلق على الواحد من القبيلة لأنه من ولد أبيهم الأعلى كقولك : يا أخا قريش ، ويطلق على الواحد من الجنس كقولك : يا أخا العرب . ويطلق على أهل دين واحد ، وتطلق الاخوة على قبيلة بالنسبة إلى قبيلة أخرى لاتحاد الجد الأعلى .

فـ «من إخوتكم» الواردة فى الآية هذه معناها على التفسير اللغوى الدقيق: من غير بنى إسرائيل وكذلك كان النبى محمد لأن عيسى عليه السلام كانت أمه مريم إسرائيلية .

وقد اعترفت التوراة بأن الله وعد إبراهيم الخليل أن يبعث من نسله رسولا بشرع وكتاب ولم يبعث من نسله بهذين إلا النبى محمد .

وقد ذكرت التوراة اسم النبى محمد صراحة وصفته، وذكرت وجوب اتباعه فهذا تسليم بتوقع قيام شريعة تنسخ الشرائع .

وذكر الإنجيل قول عيسى عليه السلام (إن لى كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تستطيعون حمله) دليل على أنه ترك الشريعة غير كاملة ليكملها نبى بعده ، وبقية الآية قوله :

(لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه بل يتكلم بما يسمع ويخبر بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للآب) .

هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على محمد . ولم تصدق على غير شريعته . فإن القرآن يقول فيه :

« وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » (١) . وشريعته هى التى وضحت الحدود والآداب جميعاً وتكفلت بحاجات البشر جميعاً كما أثبت الزمان ذلك .

---

(١) النجم : ٣ ، ٤

وتصديق النبي محمد للأنبياء قبله ، وموافقة علماء اليهود وأحبارهم ورؤساء المسيحيين فى عهده ، على صحة البشارات ، وإيمان كثير منهم برسالته حين احتج عليهم بما فى كتبهم ، دليل على صدق نبوته . فكتب السيرة التى بأيدينا تصلح للاستدلال باعتبارها كتباً للتاريخ ولا يضرها أن يكون عليها بعض المآخذ كغيرها من مثيلاتها ، ما دمنا قادرين على إدراك قيمة الصحيح منها المتوفرة له شروط الصحة العلمية . قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله ابن سلام قال : « كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان حبراً عالما . قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته وزمانه الذى كنا نتوكف له ، فكنت مسراً (١) لذلك صافتاً عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل « بقباء » (٢) فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخل لى أعمل فيها وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة .

فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله . . والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً مازدت ! — فماذا قال ؟ — قال : فقلت لها : أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : يا ابن أخى . . أهو النبى الذى كنا نبشر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ . . فقال عبد الله بن سلام قلت لها : نعم ؛ قالت : فذاك إذن ، قال : ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامى عن اليهود ثم جئت رسول الله فقلت : إن اليهود قوم بهت (٣) وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك فتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى فإنهم إن علموا ذلك بهتونى وعادونى . قال : فأدخلنى بعض بيوته ، فدخلوا عليه فكلموه وسألوه فقال لهم : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . قال : فلما فرغوا من كلامهم ، خرجت

---

(١) مخفياً . (٢) موضع قرب المدينة ومن ضواحيها .
(٣) أى أهل بهتان وضلال .

عليهم فقلت لهم : يا معشر اليهود.. اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته فإنى أشهد بأنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه . قالوا : كذبت ثم وقعوا فى (١) فقلت: يا رسول الله .. ألم أخبرك بأنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟ قال فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى وأسلمت عمتى ابنة الحارث فحسن إسلامها » .

والقصص فى كتب السيرة عن كيفية إسلام أحبار اليهود والنصارى صريحة الدلالة على أن التوراة والإنجيل ذكرت مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ولا نريد أن نطيل فى سردها ، فإسلام عدى بن حاتم وجبلة بن الأيهم ملك دمشق ، وسلمان الفارسى أعلم النصارى بالإنجيل فى زمانه ، وابنى الجلندى ملكى عمان . وإسلام نجاشى الحبشة حتى صلى عليه النبى صلاة الغائب حين مات ، وأخبر النبى بساعة موته حين مات وبإسلامه ، سيرة هؤلاء وإسلامهم مبسوطة فى الكتب المختلفة للسيرة والتاريخ الإسلامى . وفيها الإقناع الكافى بأنهم يعلمون بأن عليهم اتباع شريعة محمد وأن كتبهم أمرتهم بذلك .

وهل يمكن أن يقول القرآن لأهل الكتابين مقالات التحدى ويكون ذلك بغير أصل ، ثم لا يردون عليه وينكرون ما قاله ؟!

قال القرآن فى تحديهم بنبوة محمد وأنها فى كتبهم «**ويقول الذين كفروا لست مرسلا، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم، ومن عنده علم الكتاب**»(٢).

وقال : «**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**»(٣) وقال : «**والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون**» (٤) .

---

(١) أى سبوه

(٢) الرعد : ٤٣

(٣) المائدة : ٨٢ ، ٨٣

(٤) القصص : ٥٢

وقال : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » ؟ ! (١)

وغير ذلك فى القرآن كثير . . .

***

وجوب النسخ عقلا

يسلم معنا أصحاب الكتابين بأن التوراة والإنجيل بشرنا بنبى ، ولكنهم لا يؤمنون بنبوة النبى محمد ، فإذا وافقناهم على عدم نبوته . كان معنى ذلك أن التوراة والإنجيل كذبتا . . . لأنه مضى قرابة الألفين من السنين على بعثة عيسى (وهى ألفان من سنى الارتقاء والحضارة) وعدم قيام نبى مصداقاً لبشارته وبشارة موسى . مبطل للبشارتين ومكذب للكتابين . أما انتظارهم لهذا النبى فعبث لأن الغرض من الرسالات والديانات هو التهذيب .

وفى شريعة الإسلام كل التهذيب وكل ما يكفل صلاح أمور الناس على ما بينته الفصول التى يحتويها هذا الكتاب . فبطل عقلا ، الحاجة إلى نبى ، وبطل قطعاً ، توقع ظهور نبى جديد أو شريعة جديدة .

والتأخر الزمنى للشريعة موجب عقلا أنها ناسخة لما قبلها . ولا شبهة على هذه القاعدة أبداً ، وتوسع شريعة الإسلام وتناولها كل شىء ، موجب عقلا أنها ناسخة للشرائع التى تناولت جوانب فقط من العقيدة والأخلاق والمعاملات .

وعموم رسالته وأنها للناس جميعاً مبطل للرسالات الخصوصية للأقوام المخصوصين فإن خصوصية الشرائع السابقة ، واختصاص كل قوم بنبى ، معناه أن الشريعة اقتصرت على أقوام دون أقوام ، تمهيداً لتقريب اتجاهاتهم كما ذكرناه حتى توحد هذه الاتجاهات ، شريعة واحدة التعاليم والأحكام .

فوضوح شريعة محمد وتعاليمها الأخلاقية والاجتماعية عن الشريعتين مع كمالها — أى توسعها — موجب عقلا أنها ناسخة لما سبقها .

فلهذا كله أنا مسلم ! !

---

(١) الشعراء : ١٩٧

الباب الرابع

انا مسلم لأن :

١ — غاية الإسلام .

٢ — حضارة الإسلام أعظم حضارة فى تاريخ العالم .

٣ — الرق فى الإسلام حرام :

٤ — البرنامج الإسلامى لتحرير الرقيق .

غاية الاســـلام

جاء الإسلام والمجتمع الإنسانى فى أركانه من أسباب الانحلال والتدمير ، عوامل متفشية . لافرق فى ذلك بين مجتمع عربى فى بداية نشوئه ومجتمع فارسى أو رومانى فى أوج مجده . فالعقول البشرية مغلولة بالجهالة والوثنية ، العصبية الدينية بين الكتابيين الذين تسلط عليهم رؤساء دياناتهم وصدوهم عن روح شرائعهم تصبغ الأرض بالدماء . والوثنية الجاهلية تنحط بمستوى البشر إلى أدنى درجات الحيوان . والإباحية تسود الجميع وهى إن لاءمت غرائز الحيوان فى الإنسان فإنها تحط قواه الإنسانية المميزة وتفقده خصائصه !

وجاء ، ووأد البنات عادة شائعة فى العرب ، والغزو والنهب والسلب والقتل يقوم لأوهى سبب . والناس يستضعف فريق منهم فريقاً . والعداء يفاقم بين المعتقدات والآراء ، والعصبية القومية الضيقة تثير الفتن فى كل مكان وآن .

وجاء الإسلام ، والرجل يتزوج من أرملة أبيه أو مطلقته ، وله أن يخلع زوجته على صديقه ، وجاء الإسلام والمرأة مهدورة حقوقها فى كل شىء ، والفكر معطل عن النظر والارتقاء والاستدلال ، والعقائد الفاسدة والأوهام تسيطر على العقول .

جاء الإسلام والفطرة البشرية لا منظم لها ولا مهذب لنزعاتها إذ أن الرسالات السابقة على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قد ضاعت نصوصها الصحيحة . ودخل عليها ما ليس منها بفعل الأحبار والرهبان ، مما كان مدعاة إلى سيادة مذهب التسليم وسيطرة رجال الدين على نفوس البشر . فلم تكن المسيحية ولا اليهودية فى الأرض ، إلا مذاهب مستضعفة تضطهدها

الوثنية العربية واليونانية والرومانية والفارسية ، وتمحق روح شرائعها مفاسد أحبار الديانتين !

* * *

وتاريخ تطور الاجتماع البشرى يدل القارىء على عديد المساوىء والنقائص التى أغرقته حتى اتجه إلى الإسفاف فى كل شىء فى معاملاته فاغتال الناس بعضهم بعضاً ، وجحدوا الأمانة وهضموا الحقوق ، وفى معتقداته فعبدوا العجول والأسماك والحجارة ، وفى مشاعره فكانت الوحشية وسفك الدماء عندهم أفخر مظاهر الرجولة ، وكانت اللذائذ الحيوانية أسمى أنواع الترف . فالخمر والميسر وافتراش المرأة وصغيرها عند رأسها (كما فخر امرؤ القيس) والجهر بالشراب والقمار . كل أولئك بعض مفاسد المجتمع البشرى العام قبل الإسلام .

أى أن الغرائز الحيوانية فى الإنسان طغت (بحكم قوتها) على الملكات الروحية فقوى التشابه بين حياة الناس وحياة البهائم .

فجاء الإسلام لمقاصد توجيههم إلى حياة احتماعية راقية تلائم طبيعة فطرتهم فنظم بشرائعه الدينية معاملاتهم ، ونظم بآدابه الاجتماعية علاقاتهم وهذب بعباداته من حيوانيتهم . كما ارتقى بواسطة العبادات بملكاتهم الروحية ووضع لكل ناحية من مرافق الاجتماع البشرى ؛ مناهج تلتئم مع الغرائز الفاضلة . وأخص هذه مايتناول النواحى التشريعية والأدبية والعلمية وكل ماتنشده الفطرة البشرية السليمة من وسائل الطمأنينة الاجتماعية وسبل السلامة من الخطأ ، وانفرد الإسلام بتنشيط غرائز البحث عن علل المدركات الحسية والعقلية وارتقى بالغرائز الفاضلة لتغلب الطبيعة الحيوانية ، فتعلو الإنسانية فى الإنسان على البهيمية . فإن تركيب الهيكل البشرى مشابه فى أكثره لتركيب سائر الهيكل الحيوانى فى أغلبه ، فنتج عن هذا تماثل وتقارب الانفعالات والمعانى الصادرة عن هذا التركيب . فإذا لم تتهذب هذه الانفعالات

ولم تضبطها القوة الروحية (الغرائز الفاضلة) فسدت الحكمة من وجود عالم بشرى ما دام مماثلا لعالم الحيوان !

جرت السنة البشرية أن الدول تتألف محفوزة بالحاجات الحيوية ؛ فقد توحد قبائل متفرقة من جنس واحد تجد نفسها مهددة بعدو قوى مجاور لها فتدفعها الضرورة للتضافر . وغير ذلك .

ولكن الأمة الإسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية ، فقد تألفت على أصول ومبادىء ، هى مثل عليا للحياة الشخصية والاجتماعية ، فهى أمة عالمية محقت فيها القوميات والفوارق الجنسية واللغوية .

لم يزد الإسلام الأديان ديناً جديداً ، بل ضم شتاتها وقضى على خلافاتها ومنازعاتها ، وهو ليس بدين جديد ، بل هو رد الأديان المحرفة إلى أصولها « **إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** »(١) فقد شرع الإسلام لرفع الخلاف بينهم فاعتبر الدين وحدة قوامها الإيمان برسل الله كافة من غير تفرقة « **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** »(٢) .

فهذه الآية تعطى أن مهمة الإسلام هى أن يكون ديناً عاماً . ورفع الديلم وأمم الفرس والتتار لمنار الإسلام، دليل على أنه ليس ديناً للعرب خاصة بل تحس كل أمة تدين به أنها مسئولة عن رفعته لأنها تجد فى ظلاله السعادة والوحدة والقومية العالية . فهو ديمقراطية حقيقية . ولم يكن الناس يعرفون تلك الكلمة ولا مدلولها إذ ذاك . ولو كان الإسلام بشرياً لأثرت فيه الفروق التى تراضع عليها البشر . فالإسلام أوصل عطاء بن رباح وهو رقيق أسود أفطس الأنف ، مفلفل الشعر ، فاقد إحدى عينيه ،إلى درجة الإمامة.

---

(١) آل عمران : ١٩ (٢) النساء : ١٥٠ ، ١٥١

قال إبراهيم بن عمرو بن كيسان « أذكرهم فى زمان بنى أمية يأمرون الحج صائحاً يصيح : لايفتى الناس إلا عطاء بن رباح » .

جاء الإسلام ففعل كل هذا وارتقى بالنوع البشرى كافة ، من آمنوا به ومن جحدوه ، فإن شرائعه غزت أفكار المشترعين فى سائر الأمم فتغلغلت روح تلك الشرائع فى مرافق الحياة الاجتماعية لأكثر الأمم ، بل بعض هاتيك الأمم ، صار أقرب إلى روح الإسلام وآدابه من كثير من الأمم الإسلامية فى هذه العصور ! وغاية الإسلام من ترقية الملكات الروحية ليست غاية تعبدية ؛ وإنما هى أجدى من هذا : غايته إنشاء مجتمع فاضل أركانه الأساسية هى الأنفة والمحبة والإيثار والبر والتقوى . ولن توجد أبداً كمالات أخلاقية تحصل بغير هذه المبادىء المثاليات .

ومتى قامت هذه الأخلاق الروحية ،انبنى عليها كمال الخلق الاجتماعى. ومتى تحقق هذا الكمال الاجتماعى ، قامت المعاملات والحياة الاقتصادية على نهج لا يفضله نهج ، كفيل بإسعاد الذين يعيشون فى ظله .

***

تلك غاية الاسلام

وهذا الدين الذى هو نظام وشريعة وتربية فلسفية لم يفرض نفسه على الناس ، وإنما حرضهم على أن يبحثوا بعقولهم ، ويتفكروا بمشاعرهم ويتحسسوا بوجداناتهم عالم ما فوق العقل ليصلوا إلى الاقتناع بألوهته . وظل يرشدهم إلى مواضع هذه التطبيقات فى مشاهداتهم الحسية ومدركاتهم العقلية والتصورية ... فلهذا أنا مسلم .

***

حضارة الاسلام
أعظم حضارة فى التاريخ
وليس لسواه من الديانات حضارة

على حين أن تاريخ الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها، كاثوليكية وبروتستانتية وسواها من النحل ، حافل بالفظائع التى اتخذها رؤساء الكنيسة باسم يسوع وديانته ضد العلم والعلماء ..

وعلى حين أن الديانة اليهودية لم تنشىء حضارة — فإن حضارة الجنس السامى شىء غير حضارة الدين اليهودى .

نجد الإسلام يقيم حضارة الفن ، وحضارة المال ، وحضارة العلم والفلسفة والعمران ؟

أما أن شأن الديانة المسيحية أن لاتخلق حضارة ؛ فلأنها دين رهبنة وتقشف وتعطيل للفكر من ابتدائها ، فالمفسرون للأناجيل من ابتداء كتابها إلى آخر بابوات الكنيسة ، يفهمون الأقوال فهماً خاطئاً ، ويمنعون العقول الأخرى من الفكر فى مقاصد الآيات الإنجيلية ، وينشرون فكرة أن العقل يجب خنوعه لجهالة كتاب الأناجيل ، وجهالة البابوات .

وإذا عرضنا للقارىء نماذج من اضطهاد الكنيسة للعلم .. جزم معنا بأن روح المسيحية هى أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم . ولهذا انحصر التعليم فى الأديرة . ولاتزال المدارس العلمانية الفرنسية رمزاً لروح المسيحية فى هذا الجيل الذى نعيش فيه .

***

ادعى أحد العلماء أن الموت كان يوجد قبل آدم أى أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالأكل من الشجرة ، فصدر أمر امبراطورى بناء على طلب البابا .. بأن يقتل كل شخص يعتقد ذلك .

فاعتبرت الكنيسة أن الاعتقاد بوجـــود الموت قبل آدم جريمة ضد الإمبراطور .

والبابا « تيوفيل » بطريرك الإسكندرية .. نال أمراً امبراطورياً بإتلاف مكتبة الإسكندرية التى أنشأها البطالسة .. لأن محتوياتها من كتب العلوم تخالف العقيدة المسيحية .

وجاء بعده ابن أخته « سيريل » وكان فى الإسكندرية فتاة رياضية تدعى « هيباتى » تشتغل بالعلوم والفلسفة فلم يحتمل القديس « سيريل » وجودها فأثار عليها الشعب حتى قعدوا لها وقبضوا عليها فى الطريق وجردوها من ثيابها ، وساقوها إلى الكنيسة حيث قتلت هناك ثم أحرقت جثتها بعد القتل !

وجاليلو حين اكتشف دوران الأرض وثبات الشمس ، حوكم وعذب وحبس لكى يعترف بأنه جدف : وغيره من العلماء عانوا أشد مما عاناه من محكمة التفتيش المسيحية ، ومن جهل وغباء رؤساء الكنيسة فى تلك العهود.

وخريستوف كولمب حين استدل بكروية الأرض على وجود دنيا لم تكتشف ، كادت محاكم التفتيش أن تزجه فى قيعانها الأرضية الرطبة وتشد أطرافه بآلات التعذيب . لولا ملوك أوروبا الذين طمعوا فى ضم ممتلكات جديدة إلى عروشهم . ثم إن إنشاء محاكم التفتيش كان لمقاومة العلم والفلسفة والطب بطلب الراهب (توركماندا) وقد قامت بمهمتها خير قيام خلال ثمانية عشر عاماً من عام ١٤٨١ ميلادية إلى ١٤٩٩ — إذ حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا أحياء وعلى ٦٨٦٠ شخصاً آخر بالشنق بعد التشهير وعلى ٩٧٠٢٣ شخصاً آخرين بعقوبات مختلفة ونفذت جميع أحكامها .

وأمرت محكمة التفتيش بإحراق كل توراة عبرية !

وقال « دى رومينيس » إن قوس قزح ليس قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى من انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء. فكان

جزاء هذا التجديف فى حق الأناجيل وعقيدة الكنيسة أن جلبوه إلى روما مقبوضاً عليه وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته أمام محكمة التفتيش وحوكمت كتبه !

فحكم على الجثة والكتب بالإحراق بالنار !

وأنشأت الكنيسة بنفوذها نظام المراقبة على المطبوعات . وحتمت على كل مؤلف وكل طابع ، أن يعرض مؤلفه أو مايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذى عين للمراقبة وذلك لكى لاينشر شىء يومىء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، أى إلى العلم والفكر والفلسفة .

وما من عقيدة فى المسيحية إلا أريقت فى سبيلها الدماء ، وما من نهضة إصلاحية ، دينية أو علمية ، إلا ذهبت الألوف قرابين وضحايا بين يديها.

وكان المظنون أن البروتستانت وهم دعاة الإصلاح الذين عانوا من الكنيسة الكاثوليكية صنوف الغدر والقتل والاضطهاد وكانت أبشع صور الغدر الدنىء . قصة « هنرى دى نافار » التاريخية . يكونون أرحم بمخالفيهم من خصومهم ولكن «كلفن » زعيم البروتستانتية الثانى وخليفة « لوثر » حكم بإحراق «سيرفيت» فى جنيف لأنه كان يعتقد أن المسيحية دخل عليها شىء من الابتداع وشوى على النار حياً حتى مات . وبنفس الطريقة أحرقوا « فاينى » فى تولوز سنة ١٦٢٩ للميلاد !

واضطهدت الكنيسة البابوية اليهود لأنهم كانوا يتعلمون فلسفة ابن رشد كما يعرف ذلك من تاريخ الأندلس ، ولعن « لوثر » صاحب الإصلاح البروتستانتى ، ابن رشد وكان يلقبه بالخنزير ويمنع النظر فى فلسفته .

وخانت الكنيسة قداسة الاعتراف(١) ، فقرر مجمع لاتران المقدس أن يكون من وسائل التحقيق والإدانة الاطلاع على خفايا الناس بواسطة

(١) الاعتراف بدعة كنسية لم تؤثر عن المسيح ولا عن حوارييه ولكنه مع ذلك متفق على سريته وقداسته عند مبتدعيه !!

الاعتراف ، فخالف القسس واجباتهم الكهنوتية وباحوا بهذه السرية المقدسة ، وأخرجوا الاعتراف عن الغاية منه وهى غفران الخطايا والتوبة ، إلى أن جعلوه شهادة من الأبناء ضد الآباء ، ومن الزوجات ضد الأزواج شهادة تذهب بأحبائهم إلى الموت الكنسى وقرر مجمع لاتران نفسه سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد .

وأصدر البابا اسكندر السابع (١٦٦٤) أمراً بمصادرة كل الكتب التى تعلم دوران الأرض وثبات الشمس ومن لطيف مايروى أن الكنيسة ردت على دوران الأرض بمنشور أذاعته جاء فيه :

(للحيوانات التى تتحرك أطراف وعضلات . أما الأرض فليست لها أطراف ولا عضلات . فهى بناء على ذلك لاتتحرك !؟) وكما حاربت الكنيسة أولئك ، حاربت «نيوتن» صاحب ناموس الجاذبية وأعمق العلماء إيماناً بالله . وحاربت « كوبر نيكوس» الفلكى حرباً عنيفة مذكورة تفاصيلها فى مواضعها من الكتب .

ولم يقتصر أذى الكنيسة المسيحية على أصحاب الآراء والمخالفين ، ولكنها تجاوزتهم بانتقامها إلى أبنائهم وأحفادهم فقال البابا «إينوثان الثالث» فى حق مخالفى العقيدة الكاثوليكية : « لايجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة . وترك الحياة لهم من وإحسان » .

ولعل هذا لتبرر به الكنيسة مصادرتها لأموال الذين تنعتهم بالجاحدين ولتبرر حرمانهم لأولادهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية .

والكنيسة تستند فى مثل هذه الأقوال والأفعال الباطشة إلى تعاليم الحواريين والتلاميذ .

فقد جاء فى الإصحاح الخامس من الأعمال ، قصة الرجل الذى باع جميع ما عنده ، ثم جاء إلى بطرس الرسول فأعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه . فاطلع بطرس الرسول على حقيقة الأمر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة . ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على

ما أخفى زوجها ولم تنه، فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هى أيضاً ..

فإذا كان الله يسلب الحياة جزاء عن اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل ، فإذن لايجوز حق الحياة لمن خالف خلفاء الله على الأرض ، ونبذ عقائدهم ، من باب أولى !

ولعل موت امرأة الرجل هو الذى أخذوا منه هتك سرية الاعترافات .

ومن أصول الديانة المسيحية الإيمان بالخوارق وتقديس سلطة الرؤساء الدينيين ، وترك الدنيا تفرغاً للعبادة ، واعتقاد أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاجه البشر ، وأنهامحدودة المقاصد وفق تفسيراتهم لها. والتفريق بين المسيحيين وغيرهم .وكل هذه الأصول لاتبنى حضارة ولا تقيم مجتمعاً ، بل أصل واحد منها كاف ليهدم أعظم المجتمعات ارتقاء !

فإن كل بحث فى النواميس الكونية العامة يخالف الأصل الأول وهو الإيمان بالخوارق ، أى الوقائع المخالفة لنواميس الكون فالقول بأن للكون شرائع ثابتة وأن للأسباب مسببات وللعلل معلولات ، يضاد هذا الأصل المسيحى ، ولهذا عذبت الكنيسة رجال العلم والقائلين بنواميس الجاذبية ودوران الأرض وحركة الأفلاك .

وسلطة الرؤساء الروحانيين تمكن لهـذا الأصل الهادم للعمران : ومصدرها ما جاء فى إنجيل متى الآية ١٦ إصحاح ١٩ « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات » .

والتجرد من الدنيا يجىء تصديقاً للآية الإنجيلية « لاتقدروا أن تخدموا الله والمال . لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون » .

ومن أصول المسيحية الكفيلة بفناء النوع البشرى كله . الرهبنة وأن يخصى الرجال أنفسهم ! فليس فى تعاليم الإنجيل ، مايضع فى بناء المدنية حصاة .

أما الإسلام : ففى ظل دولته خرج الفقهاء المشرعون الذين استعملوا عقولهم فى كل شىء . واختلفوا فى أشياء كثيرة فلم يضطهد أحد منهم أحداً .

وفى ظل دولته خرج أبو بكر الرازى الطبيب أول من عمل عملية الكتاركتا (إزالة الماء من العين) وابن سينا الذى تدرس جامعتا كمبردج وأكسفورد كتابه الطبى « القانون » وغيرهم من مشاهير الطب كثيرون .

وفى ظل دولة الإسلام اخترع جابر بن حيان علم الجبر ، واستأثر دون العلماء كافة بأسرار الكيمياء . وفى ظل دولة الإسلام نبغ العرب فى الفلك فكانوا أول بناة المراصد الفلكية فى العالم وأول صانعى التليسكوبات .

وفى ظل دولة الإسلام نمت المباحث الروحية والنفسية ومن علمائها ابن سينا والفارابى وابن رشد وابن مسكويه وغيرهم .

وفى ظل دولة الإسلام قامت فنون الهندسة المختلفة . وحاول المخترعون الطيران فى السماء وأولهم عباس بن فرناس . ولسنا بصدد تعداد جوانب الحضارة الإسلامية فقد استوفاها المؤرخون والمستشرقون وعلماء أوروبا المنصفون فى كتب مستقلة واعترفوا لها بالتفوق على الحضارات .

وهذه الحضارة منشؤها تعاليم القرآن ؛ الذى يأمر أهله باستعمال العقل والفكر فى الاستدلال على وجود الله . ودراسة أنفسهم ودراسة الظواهر الجوية والطبيعية . ويقول لهم أطوار تخلق الجنين قبل أن يعرفها أى عالم فى الأرض . ويحدثهم عن الصعود فى السماء « **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء** »(١) وآيات كثيرة غيرها فى موضوعها ويحدثهم عن الزرع والثمر والزهر واختلاف ألوانها وخواصها . ويحدثهم عن معادنها إلى آخر ألوان العلم وفنون الحضارة .

ومن الثابت فى تاريخ العلم وتاريخ النهوض الفكرى أن الحضارة الإسلامية هى التى نهضت بأوروبا فقد كانت أوروبا قبل الإسلام قبائل يشن بعضها الغارة على بعض (هذا يعلم من قراءة تاريخ أوروبا فى العصور

---

(١) الأنعام : ١٢٥

الوسطى) وكان تسرب الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ناتجاً عن عوامل كثيرة ، أظهرها فى التاريخ وأشدها تأثيراً ، تجاور المسلمين وأهل أوروبا حين فتحوا غرب أوروبا (الأندلس) وقد وصل المسلمون فى فتوحاتهم إلى حدود جبال كبرينيه . وحملوا معهم حضارتهم كما هو شأن كل فتح حربى فى العالم .

فلولا انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا لما ارتقى الفكر الأوروبى إلى دراسة الذرة واستنباط التليفزيون وابتداع الأمواج الصوتية والأشعة السينية واستخلاص نظرية النسبية وغيرها .

وقد رعى الإسلام النبوغ وشجع عليه .

فمن علماء اليهود والنصارى الذين لقوا رعاية الخلفاء وتكريمهم ، «جورجيوس بن بختيشوع» طبيب الخليفة المنصور الذى رفعه المنصور حتى على وزرائه ، وكان يخرج ماشياً لعيادته إذا مرض .

و«بوبخت» المنجم وولده «أبو سهل» وكانا مجوسيين . و« يوحنا بن ماسويه» النصرانى من المقربين إلى هارون الرشيد و«يوحنا البطريق» الذى أقامه المأمون أميناً على ترجمة الكتب الطبية والفلسفية .

و«سهل بن سابور» وابنه «سابور» و«سلمويه بن بنان» النصرانى طبيب المعتصم .

و « حنين بن اسحاق» أشهر المترجمين وكان الخليفة المتوكل يعطيه وزن ما يترجمه ذهباً ! وأقطعه إقطاعات واسعة . وغيرهم كثير فى جميع أدوار العهد الإسلامى .

فمن هذا كله يثبت أن الإسلام يبنى الحضارة العلمية والفنية والعمرانية والأخلاقية بتعاليمه الصريحة ، وأن سواه من الأديان تحظر على الفكر أن يتأمل ، وتحارب العلم والعلماء ، ولا تضع فى صرح الحضارات حصاة واحدة !

***

الرق في الاسلام حرام

الحرية فى الإسلام هى الأصل فى الإنسان كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى عامله على مصر عمرو بن العاص وقد اشتكى عليه قبطى « ياعمرو ، منذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! » وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل : أن الرق لا يثبت بإقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه . حين نزل القرآن وبعث الله نبيه محمداً لتنظيم المجتمع العام ، كان الرق نظاماً شائعاً فى المجتمعات الأربعة التى كانت تتألف منها الحياة المدنية الاجتماعية فى زمن الرسالة ، وهى المجتمع الفارسى ، والإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ومجتمع روما ، ومجتمع الجزيرة ، كان كسرى تحتوى قصوره اثنتا عشرة ألف جارية : منهن ثلاثة آلاف يتسرى بهن ، كما روى التاريخ . وكانت القوانين فى الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) تعتبر الإمبراطور هو المولى المطلق التصرف فى كل شىء حتى فى دماء رعاياه ، ومستبداً إلى أقصى حد ، وبالأولوية فى حرياتهم ! وكانوا فى روما (الإمبراطورية الرومانية الغربية) يتجهون بمعنى الإمبراطور إلى فكرة التأليه . كما كان الفراعنة يستخدمون الشعب استخدام استرقاق صريح فى بناء الأهرامات ونحوها ، وكان العربى مهما تناهى فقره يملك عبداً أو جارية . . !

فتصور أيها القارىء حالة نظام اجتماعى هذا وضعه ووصفه ، فلننظر بعد ذلك فى تعاليم الإسلام نحو الاسترقاق ، ونحتاج فى هذا النظر إلى أن نتفهم روح الشريعة الإسلامية ونستخلص من نظامها بهذا الصدد رأياً هو الذى ذهبنا إليه .

لماذا لم يحرم الإسلام الاسترقاق بنص صريح فى القرآن وينهى عنه ؟ علة ذلك هى أن الإسلام وهو دين التنظيم الاجتماعى كما سبقت الإشارة إليه ،

علم أن تحرير هذه الملايين من العبيد سيصيب المجتمع الاقتصادى بنكسة لاينتعش بعدها . ويشيع الفوضى الصارخة فى جوانبه . فإن هؤلاء العبيد قد تكفل سادتهم بأرزاقهم فهم لو انطلقوا ليكفلوا أنفسهم فلن يستطيعوا ، لأن الميدان الاقتصادى لن يتسع لهم فهم لابد أن يكونوا عمالا أو صناعاً (فليس فيهم ممول يمتهن التجارة مثلا) وليس منهم من يحذق عملا أو صناعة وحتى لوكانوا يحذقون فالنكبة أشر لأن معنى ذلك تفشى العطل بين العمال الأصليين وبين هؤلاء الدخلاء عليهم .

وقد حرمت أمريكا الاسترقاق دفعة واحـــدة دون ملاحظة هذه الاعتبارات الجوهرية فأصيبت فكرة التحرير بصدمة حطمتها ، فهرب الأرقاء المحررون من الحرية إلى الرق من جديد . لأنهم عجزوا عن كسب أقواتهم ، وأسباب العجز فى هذا الظرف كثيرة غير ما ذكرناه .

لذلك وضع الإسلام برنامجاً عملياً إلى الغاية يكفل إلغاء الرق إلغاء تاماً تدريجياً تفادياً من الفوضى الاجتماعية التى نبهنا إليها .

وسنذكر مواد هذا البرنامج ثم نذكر أدلتنا على أن الإسلام حرم استحداث الرق بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

***

البرنامج الاسلامى لتحرير الرقيق

أوجب الإسلام التكفير عن الذنوب الآتية بعتق الرقبة :

١ــ الظهار : وهو أن يقول الرجل لامرأته أنت حرام على كظهر أمى. فإن رغب أن يعاشر امرأته بعد ذلك وجب عليه تحرير رقبة « **من قبل أن يتماسا** » وقد كان الظهار عادة شائعة عند العرب فإيجاب العتق فيه معناه العمل على تحرير عدد كبير من الرقيق .

قال الله تعالى « **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لمـــا قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** »(١) .

(١) المجادلة : ٣

٢ــ اليمين الكاذبة لقوله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة »(١) .

٣ــ القتل الخطأ لمؤمن لقوله تعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله »(٢) .

٤ــ الإفطار فى رمضان بالجماع (الحديث فيه مشهور) .

٥ــ شرع الإسلام نظام المكاتبة أى أن يطلب الرقيق (عبداً أو أمة من سيدة مكاتبته على مال يؤديه له مقابل عتقه . ولتحقيق انتفاع الرقيق بهذا التشريع أوجب الإسلام ما يأتى :

(أ) أوجب على السيد قبول طلب الرقيق بقوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »(٣) . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الأمر فى (كاتبوهم) للندب وليس للوجوب وهذا خطأ ظاهر لأن الأصل فى فعل الأمر الوجوب فلا يحمل على الندب إلا إذا كانت هناك قرينة . والقرينة هنا منعدمة . وقد سأل بعضهم سعد ابن معاذ إمام فقهاء المسلمين : أفإن طلب إلى عبدى مكاتبته ، أفيجب على أن أفعل ؟ . فقال : ما أراه إلا واجباً . أما قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » فمعناه قدرة على الأداء .

(ب) أوجب الإسلام عن بيت مال المسلمين أن يساعد العبد المكاتب على أداء المال الذى تعهد به لسيده مقابل عتقه لقوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »(٤) .

ورأى المفسرين أن فى الرقاب معناه فى تحرير الرقاب . ولا خلاف فى هذا والسنة تؤيده ، حتى فى أسرى الحرب من المشركين وفى قصة سلمان

---

(١) المائدة : ٨٩ — (٢) النساء : ٩٢
(٣) النور : ٣٣ — (٤) التوبة : ٦٠

الفارسى أن سيده كاتبه على غرس ثلثمائة نخلة وأداء أربعين أوقية من الذهب فغرسها كلها رسول الله بيده وفاءاً عن سلمان ، واستكتب المسلمين بالذهب فاكتتبوا به .

(ج) أوجب الإسلام التعجيل بعتق المكاتب إذا أمكنه أن يؤدى ما كوتب عليه قبل موعده ، قال أبو سعيد المقبرى : اشترتنى امرأة من بنى ليث بسوق ذى المجاز بسبعمائة درهم ثم كاتبتنى على أربعين ألفاً فأذهبت إليها عامة المال ، ثم حملت ما بقى من المال إليها فقلت : هذا مالك فاقبضيه . فقالت : لا والله حتى آخذه منك شهراً بشهر وسنة بسنة (تريد استبقاء استرقاقها له مدة أطول هى مدة حلول الأقساط) .

فخرجت إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فذكرت ذلك له ، فقال عمر : ادفعه إلى بيت المال ، ثم بعث إليها : هذا مالك فى بيت المال وقد عتق أبو سعيد . فإن شئت فخذى شهراً بشهر ، فأرسلت فأخذته .

٦- شرع الإسلام نظام التبعيض ومثاله أن يكون العبد أو الأمة ملكاً لعدة شركاء فيجوز لأحدهم أن يعتقه عن حصته وفى هذه الحالة يجب أن يقبل الشركاء الآخرون مكاتبة العبد على مقابل ملكهم فيه ويسمى العبد فى هذه الحالة مبعضاً .

٧- أوجب الإسلام على الشريك المعتق إن كان غنياً أن يدفع إلى كل شريك مقابل حصته حتى ينال العبد حريته كاملة (من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه) .

٨- أوجب الإسلام عتق الرقيق إذا آذاه سيده أدنى إساءة لحديث «من ضرب مملوكه أو لطمه فكفارته عتقه» .

٩- أوجب الإسلام على السيد إذا مازح عبده بالعتق ، أن يعتقه مهما تراجع عن مزاحه .

١٠- حث الإسلام على تزوج الإماء توصلا إلى عتقهن لحديث «من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها ؛ كان له أجران» . وقال علماء الحديث : أى أجر بالتعليم وأجر بالعتق لأن نكاحها يعتقها .

١١ـ ساوى الإسلام فى كل شيء بين العبيد والسادة تفويتاً للفوارق التى ترغب فى الاسترقاق ، فنص على أن الحر إذا قتل عبداً يقتل به ـ ولم يكن ذلك فى أى قانون سابق على الإسلام ، ومن مظاهر المساواة أن الرسول ولى أسامة بن زيد مولاه إمرة الجيش الذاهب إلى فتح فلسطين وكان أبو بكر وعمر أصحاب النبى المقدمين تحت إمرة أسامة يمتثلون أمره . وقد تولى أبو بكر الخلافة فأقر أسامة على قيادة الجيش . وقال الأنصار لعمر : قل لأبى بكر أن يولى أمرنا من هو أقدم سناً من أسامة (فقد كان أسامة فى العشرين من عمره) فلما كلمه عمر ، أمسك أبو بكر بلحية عمر وقال « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، ولاه رسول الله وتأمرنى بعزله ؟ » . ومن مظاهر المساواة أن الرسول تبنى مولاه (عبده) زيد بن حارثة . ومن مظاهر المساواة أيضاً عدم التفريق بين العبيد والأحرار فى نظام الأنكحة .

١٢ ـ شرع الإسلام نظام (الوطء بملك اليمين أى بدون إجراءات زواج ، توصلا إلى تحرير الإماء ، لأن رأى الفقهاء أن ولادة الأمة من سيدها توجب عتقها ولهم فى ذلك قاعده فقهية (الولد يحرر أمه) ولأن رأيهم أيضاً أن مجرد افتراش الرجل أمته يجعلها كالموصى بعتقها فلاتباع فى دينه ولاتورث من بعده . ولاترهن حال حياته .

١٣ ـ حرم الإسلام الاتجار بالرقيق لقوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر . ورجل باع حراً فأكل ثمنه . ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » . (١)

وقد قلنا إن الأصل فى الناس جميعاً أنهم أحرار وذكرنا أن هذا أصل فقهى مأخوذ من قول عمر ومن روح الإسلام .

١٤ ـ شرع الإسلام فى الرقيق الهارب إلى دار الإسلام أنه يتحرر بمجرد دخولها ولو كان غير مسلم .

---

(١) رواه عبد الله بن عمر .

١٥ — حث الإسلام أهله على العتق والتوسع فيه لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار . فقال : اعتق النسمة وفك الرقبة . فقال : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا .. عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها » .

فالحديث لا يأمر الرجل بإحدى الاثنتين ، بل بهما معاً ، ويعتبر تحرير الرقيق قرباً إلى الله يبعد من النار ويكفل الجنة لقوله تعالى : « **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة**»(١) .

***

فهذا القانون الذى وضعه الإسلام لتحرير الرقيق السابق على الرسالة المحمدية يتألف من خمسة عشر مادة لوحظ أنها مؤدية إلى الغاية من القانون أداء منظماً . ومن مزايا الإسلام الإنسانية أنه لم يفرق فى العتق بين رقبة مؤمنة وغير مؤمنة إلا فى حالة واحدة هى قتل المؤمن لمؤمن خطأ. وعدم التفريق هذا يعطى صراحة أن روح الإسلام هى روح مؤاخاة إنسانية لا ترغب فى الاستعباد ولا تقبله لأى من الناس ، لا للمسلمين فقط فمن العجب بعد ذلك أن يقول أحد ، إن الإسلام أباح الاسترقاق .

فالإسلام أبطل الرق السابق عليه بهذا القانون كما ذكرنا . ثم حرم استحداث الاسترقاق بعده لقوله صلى الله عليه وسلم « ما زال أخى جبريل يوصينى بالرفق بالرقيق ، حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم». وقال الراغب فى كتابه : غريب القرآن «ظن» الظن اسم لما يحصل من أمارة ومتى قويت أدت إلى معنى « العلم » فهى فى الحديث بمعنى اليقين لأن السياق والنسق يقتضيانه فى رأى كل بصير بأساليب العربية ولأنه صلى الله عليه وسلم برىء من الوهم (الظنى) فالظن بالنسبة له علم لقوله تعالى :

(١) البلد : ١١ — ١٣

« **الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم** »(١) فى سياق وصفه تعالى للمؤمنين. أى يستيقنون .

تنظيم الإسلام للرق تمهيداً لإلغائه :

وكان لابد أن يضع الإسلام نظاماً لحياة الأرقاء وعلاقاتهم بمالكيهم ما دام لم يعمد إلى الإلغاء دفعة واحدة واختار التدرج فيه ، فقد كانو يعانون فى رقهم من الذل والامتهان ما تأباه إنسانية الإسلام . فقال صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى» وقال صلى الله عليه وسلم « إخوانكم خولكم—أى أن عبيدكم إخوانكم— جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » وقال تعالى موصياً بهم :« **وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم** » (٢).

ومثل ذلك كثير . وهذا هو موقف الإسلام من الرق قبله .

فلننظر هل أباح الإسلام استحداث الرق بعده أم حرمه ؟

رأينا أن الإسلام هو دين إنسانية عامة ، فرحة إنسانية أى أن مقاصدها تتجه إلى خير الإنسانية العام ، ولو كان الإسلام يعنى بتمييز المسلمين على سائر الناس وتفضيلهم لكان مذهبية عصبية ، وهو ليس كذلك .

فالقرآن فى مواضع كثيرة يخاطب الناس عامة ، ويقول « **ولقد كرمنا بنى آدم** »(٣) ولم يقل كرمنا المؤمنين أو المسلمين .

ورأى بعض الفقهاء من أهل العصر أن الإسلام يبيح الاسترقاق لإذلال من تعنتوا فلم يؤمنوا ، وامتهان إنسانيتهم .

---

(١) البقرة : ٤٦ (٢) النساء : ٣٦ (٣) الإسراء : ٧٠

وهذا عندنا مرفوض لأنه مخالف لروح الإسلام ومقاصده ، مخالفة صريحة فقد ذكرنا فيما سبق من صدر هذا الفصل أن الإسلام لم يشترط فى عتق الكفارات أن يكون المعتق مسلماً إلا فى حالة واحدة من خمسة عشر حالة وهى قتل مؤمن لمؤمن خطأ . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أوردناه « ما زال أخى جبريل يوصينى بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن (الناس) لا تستعبد ولا تستخدم» . ووقف صلى الله عليه وسلم عندما مرت جنازة يهودى فقال الصحابة : يا رسول الله هذا يهودى فقال : « أو ليس نفساً » ؟ . فلننظر بعد ذلك هل ورد فى الإسلام أى قرآنه ، نص يبيح الاسترقاق ؟ أم لم يرد ؟

والجواب على هذا السؤال أن الله تعالى قال : « **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**»(١) .

وهذه الآية هى الوحيدة التى فيها شبهة إباحة الرق ، فلننظر ماذا قالوا فى تفسيرها .

إجماع المفسرين قائم على أن الأسر –وهو شد الوثاق – غايته ونهايته أن تضع الحرب أوزارها فيجب متى انتهت الحرب التى أسروا فيها أن يطلق سراحهم ، إما تكرماً وإما بالفدية . والفدية قد تكون المال ، وقد تكون مبادلة أسرى المسلمين بأسرى الأعداء ، فإذا عجز الأسرى المشركون عن الفدية كوتبوا عليها برأى الفقهاء جميعاً . كما يكون وضع الحرب لأوزارها معناه دخول المحاربين فى العهد .

فالتشريع باسترقاقهم الوقتى لا يخرق قاعدة التحريم ، لأنه موقوت (وهو المسمى بالأسر . والأسر غير الرق) ينتهى أجله بانتهاء الحرب . وقد ندب الله تعالى إطلاقهم تفضلا ، وهو ما تقضيه روح الإسلام من

---

(١) محمد : ٤

تسامح ، فإن رأى ولى الأمر الحاجة إلى فديتهم أطلقهم بالفداء، فإن عجزوا فقد سهل لهم استرداد حريتهم بالمكاتبة .

وكذلك الحال فى سبايا الحرب اللواتى وردت السنة باسترقاق أريد به صالحهن وحدهن فقد فقدن من يعولونهن فى الحرب ، فواجب إيواؤهن وإطعامهن وما ذكرناه من توصية النبى بحسن معاملتهن يجعل كلمة الاسترقاق هنا فى غير موضعها إطلاقاً .

فإن السبايا على الخصوص ، كان يتخذهن المسلمون زوجات ولا صلة لهن بوضع الإماء والجوارى . ومنهن السيدة صفية أم المؤمنين من سبايا خيبر تزوجها رسول الله . وقال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام فى كتابه (الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) فى الكلام على المجاز بالحذف : (وما أفاء الله على رسوله منهم، تقديرة: وأى شىء أفاء الله على رسوله من أموالهم ويدل على هذا المحذوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يملك رقاب بنى النضير ولم يكونوا من جملة الفىء) انتهى كلامه، ومعناه : أن رقاب الأسرى لا تملك !

ونقول إن النبى صلى الله علية وسلم أطلق أسرى يوم فتح مكة مناً عليهم فعرفوا فى التاريخ الإسلامى باسم(الطلقاء)،وأطلق المسلمون أسرى بنى المصطلق مناً عليهم بعد أن تقسموهم فى الفىء .

فمن هذا نقطع ونحن محقون بأن الإسلام ليس فيه أبداً إباحة للرق لأن القرآن لم يذكر كلمة (الرق) ضمن مفرداته ، وإنما استعمل كلمة الأسر ، والأسر (رق موقوت) وقد ذكرنا أن رقاب بن النضير لم يملكها محمد صلى الله عليه وسلم ولا رقاب غيرهم .

وأما رأى الإمام أبى حنيفة فى أن لولى الأمر أن يقتل الأسرى أو يسترقهم أو يطلقهم مناً عليهم ، أو بالفداء . فما نحسبه إلا مدخولا على أبى حنيفة فليس فى القرآن ما يوافقه . ولا له من السنة ما يؤيده . ومثل

أبي حنيفة على رجاحة فكره لا يصح صدور هذا الرأى عنه ولو كان ناقله هو الزمخشرى فى تفسيره .

وقد أخذ أبو حنيفة هذا الرأى ، إن صح صدوره عنه من آية بدر وهى « **ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم** »(١) .

ومن أقوال المفسرين فيها أن النبى استشار أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر ما يفعل بأسرى بدر ؟ فكان رأى أبى بكر إطلاقهم ورأى عمر قتلهم ، فنزلت « الآية » وقيل إنها تأييد لرأى عمر .

ورأينا فى هذه الآية أنها خاصة ببدر وليست حكماً عاماً . بسبب ضعف الإسلام فى ذلك الوقت، وأيضاً .. أن اللوم الإلهى للمسلمين فى الآية منصب لا على اتخاذ الأسرى ثم إطلاقهم ، ولكن على العدول عن قتلهم فى ساحة الحرب بعد أن مكن الله للمسلمين منهم إلى أمرهم بنية أخذ الفداء .

وكان قتلهم فى الحرب إعظاماً لشأن الإسلام وإرهاباً لمحاربيه وليس من خلق الإسلام ولا روحه التحريض على قتلهم وهم أسرى مجردون من أسباب الدفاع . بدليل قوله تعالى: « **تريدون عرض الدنيا** »(أى الفدية).

فلأن الإسلام حرم استحداث الرق، ولأنه أتى بأعظم وسيلة عملية لإلغائه..
فلهذا أنا مسلم !!

* * *

(١) الأنفال : ٦٧

الباب الخامس

أنا مسلم لأن :

١ – المستقبل للإسلام

٢ – الإسلام مصدق لما بين يديه من حقائق الديانات

٣ – التوراة والإنجيل مفقودان

٤ – الإسلام جماع الدساتير الاجتماعية والسياسية والدولية

٥ – الإسلام دين التربية البدنية

٦ – شرائع الإسلام تبنى الأسرة وتتمم الزوجية

المستقبل للاسلام (١)

العلم والفلسفة يهيئان العقول والقلوب لقبول الإسلام ديناً عالمياً :

ربما خيل لمن لا يعرف الإسلام أن هذا إعلان جرىء ، ولكنا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم علية الدليل :

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان فإليك :

قذف بالإنسان إلى هذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عمياً عن أسراره كل العماية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات لمات ظمأ وسغباً . ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلاً ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ، حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله . وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادىء الحكمة . ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون وسبر مساتير الوجود واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدث نفسة بالصعود إلى الكواكب ، وكشف(٢) عالم الروح والتحكم فى نواميس الحياة .

---

(١) هذا الفصل بقلم العلامة محمد فريد وجدى (بك) ساهم به معنا .

(٢) نستدرك على العلامة وجدى(بك)بأن كشف عالم الروح قد تحقق بالفعل .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ،وما يكتشفه من مستور ،يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الأداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الإنسان فى هذه السبيل الأدبية تحت ضوء العلم والفلسفة تسقط فى نظره ،الواحدة بعد الأخرى، جميع الأوهام الموروثة والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، معتبراً ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية تأسس الأصول الآتية :

أولا : زوال آثار الوراثات الدينية .

ثانياً : انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

ثالثاً : قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

رابعاً : قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

خامساً : الميل إلى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعاً .

سادساً : الاتجاه إلى نصب العلم فاروقاً بين الحق والباطل بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص عن تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية. وقد تولدت فعلا وصارت جزءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصراً رئيسياً من عناصر العقلية الأوروبية ، إلا أن تنتشر فيها المبادىء الفلسفية

وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لابد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فإذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك ، بقايا أثرية للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الإسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً »(١)الآية. وقد كانوا يعبدون الله سراً ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فآتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهراً على الأديان كلها ، كذلك ستصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »(٢) .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب فى أقوال الكثيرين من علماء الغرب وقد رأى بعضهم ومنهم « برنارد شو » أن أوروبا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام ديناً .

أى شىء يعتبر فى حكمه هذا بعيداً عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هى معناه وروحه والموجب لجعله ديناً للعالمين كافة فى كل زمان ومكان .

---

(١) النور : ٥٥ (٢) فصلت : ٥٣

لقد كلف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجرداً من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال . وأن يقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق . على مثال مايكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ولقن أمور الدين ، أمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونهى أن يأخذ بها تقليداً مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده . وكلف أيضاً أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة التتبع لأسرار الخلق ، مخضعاً كل مايحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل حتى لايتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل مايستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فإليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : « **فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** »(١) وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « وكل مولود يولد على الفطرة . وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور مايغيران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والأوهام : « **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** »(٢) وقال : « **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لايغنى من الحق شيئاً** »(٣) .

---

(١) الروم : ٣٠
(٢) الأنعام : ١١٦ ، يونس : ٦٦
(٣) يونس : ٣٦

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : **« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »** (١) وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : **« أفلا تعلقون »** (٢) وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة ، عشرات من المرات .

وقال فى ذم الذين لايعرفون للعقل حقه **« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون »**(٣) **« صم بكم عمى فهم لايعقلون »**(٤) وقال : **« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير »**(٥) .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير **« كل نفس بما كسبت رهينة »**(٦)وقال : **« وأن ليس للانسان إلا ماسعى. وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى »** (٧) وقال **« واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً. ولا يقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل »** (٨) (أى فداء) .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : **« وقالوا** (أى يوم القيامة) **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »** (٩) وقال : **« إذ تبرأ الذين اتبعوا** (أى يوم القيامة) **من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار »**(١٠).

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليداً ، بغير حجة : **« ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه »** (١١) **« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »** (١٢) .

---

(١) سورة ص : ٢٦ — (٢) البقرة : ٤٤ — (٣) الأنفال : ٢٢
(٤) البقرة : ١٧١ — (٥) الملك : ١٠ ، ١١ — (٦) المدثر : ٣٨
(٧) النجم : ٣٩–٤١ — (٨) البقرة : ٤٨ — (٩) الأحزاب : ٦٧
(١٠) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ — (١١) المؤمنون : ١١٧ — (١٢) البقرة : ١١١

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم من الأباطيل : « **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون**» (١) « **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** » (٢) .

هذا دستور دينى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمن لم يكن فيه للدستور أياً كان نوعه ، دولة فى الأرض ، لامن الناحية السياسية ، ولامن الناحية العلمية . أما من الناحية السياسية فقدكان لايعرف أحد أن للحكومة دستوراً قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى إلى يآفيخهم فى حكومة الفرد لايعرفون لهم حقوقاً ، ولا وجوداً معها .

أما أمر الدين فقدكان دستوره عندهم « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة « لاروس » فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج لدليل . فعبارات كانت تجر إلى النار المحرقة فى تنانير كانت أعدت لذلك !

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الدينى وهو القرآن والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازماً لهم لايتصورون الحياة على حال غيره ، بل لايحبون أن يسمعوا داعياً يدعوهم إلى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبى صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى النور فقال تعالى :

« **وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون** »(٣) وقالوا : « **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** »(٤) ؟ فرد الله عليهم بقوله : « **أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** »(٥) .

---

(١) البقرة : ١٧٠
(٢) الزخرف : ٢٢
(٣) الحجر : ٦٦
(٤) الصافات : ٣٦
(٥) المؤمنون : ٧٠

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى عليها المسلمون فى أول الإسلام ، هى دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تصقلها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لاينطبق على الدستور العلمى فحسب ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغاً أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لاتفلت حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر . **« وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله »**(١).

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله وقد محض نفسه للبحوث المادية . وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينيةمن جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ماكتبه الأستاذ « هنرى بيرانجيه » فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال : « إن المسألة الدينية أهم مايشغل العالم المتمدن اليوم . لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال : « إذاكان النقد التاريخى قد حطم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان . فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية . بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية فى أخس الأديان الوثنية . كما فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور

---

(١) البقرة : ٢٨٤

الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها . ولكنه سينقلها إلى المستقبل .

ثم قال : « إننا نأمل الوصول إلى حل المسألة الدينية . وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام . ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين فجان جاك روسو ولامرتين ولامنييه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا أرنست رينان وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة) انتهى .

نقول : ماهى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

إنا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف الفرنسى « كارو » فقد قال فى كتابه (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) مايأتى :

« وأصول الديانة الطبيعية ، هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح للإنسان متصفة بالإدراك والحرية ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمداً لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ؟ وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم . والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الإنسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين غير

محاولة الرجوع لدين الفطرة ؟ تحت تأثير حوافز من أنفسهم ومن تجلى آيات الله لهم وفى الآفاق المحيطة بهم مصداقاً لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى — أى الطبيعى — آت لا محالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الإسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا أنس الناس تلكؤاً فى التمشى إليه . فذلك أمر طبيعى لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ماورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلون . ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة . والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعاً بينهم فلا يزال الأمر جارياً على هذه الوتيرة حتى لايبقى من الناس من يعتقد فيما لايعقل . وإذ ذاك تحل الروح الإسلامية فى العالم بكل ماقامت عليه من أصول عقلية . ومبادىء علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر .

فى ذلك اليوم لايستطيع مفكر كالأستاذ « هنرى بيرانجيه » المتقدم ذكره أن يقول : لما كانت الأديان ليست بشىء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى الأديان عاجلا أو آجلا ، ككل الآثار الإنسانية ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبداً إلا مع الإنسان نفسه .

نعم لايستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها . كما ينص عليه كتابه فى قوله : « **فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**»(١).

ويجد أن كل ماتستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به إلى حكم العقل والعلم . لا إلى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق . فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو فى شرعته كفر .

---

(١) الروم : ٣٠

هذا هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ديناً عاماً للبشر كافة . فهل تجد محيصاً للبشر عنه ؟؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه . والعقل نبراسه . والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص أو محيد عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصول كلما أمعنت فى البعد عنها ، ازددت قربا منها فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(١) .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً »(٢) .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»(٣).

« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد »(٤) .

***

(١) آل عمران : ٨٣ ، ٨٤
(٢) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥
(٣) الصف : ٨
(٤) سبأ : ٦

الاســـلام

مصدق لمـــا بين يديه من حقائق الديانات

لو اختلفت شريعة الإسلام فى أصول العقائد عن الأديان السابقة عليه والمعترف عند المتدينين بأنها ديانات سماوية ، لكان مبرراً جحود أهل تلك الديانات له ولكن الإسلام يقول أنه جاء مصدقاً لما بين يديه . فهل صدق ما بين يديه فعلا ؟

أهم ما أخذه المسيحيون على الإسلام هو إنكاره التثليث وإنكاره الصلب وإنكاره ألوهة عيسى ابن مريم عليهما السلام وإنكاره بنوته الإلهية !

فهل صلب اليهود المسيح ؟ وهل ادعى هو الألوهية ؟ وهل علمت ديانته تثليث الأقانيم ؟

وهل قال عيسى أنا ابن الله ؟

عن التثليث :

جاء فى دائرة المعارف الفرنسية (لاروس) تحت كلمة تثليث ماترجمته :

«إن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة فى كتب العهد الجديد (الأناجيل) ولا فى كتاب الآباء الرسوليين وتلاميذهم الأقربين ، فإن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانى الواقف عند التقليد يزعمان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمان . برغم الأدلة التاريخية التى تبين لنا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك .

نعم إن العادة فى التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب والابن والروح القدس ، ولكنا سندلك على أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها المسيحيون اليوم . وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين رأوا شخصه وسمعوا قوله . كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المكوِّنة لذات الخالق . كما يدعون .

وما كان بطرس حواريه يعتبره إلا رجلا يوحى إليه من عند الله .

أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى وادعى أن المسيح أرقى من إنسان وأنه أنموذج إنسان جديد . أى أنه عقل سام مقوله من الله مباشرة . وأنه كان موجوداً قبل أن يوجد هذا العالم . وقد تجسد فيه ليخلص الناس من الخطيئة . ولكنه مع ذلك متعلق بالله الآب » .

إلى أن قالت دائرة المعارف الفرنسية :

«وكان الشأن فى تلك العصور . أن عقيدة إنسانية عيسى هى السائدة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين . فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التى تسمى بها النصارى) والأبيبوتيين وجميع الفرق النصرانية التى تكوّنت من اليهود . اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس ولم يكن أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون أو ملحدون .

وقال «جوستن مارتن» وهو مؤرخ لاتينى من أهل القرن الثانى للميلاد : إنه كان فى زمنه فى الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح الموعود به فى التوراة . ويعتبرونه إنساناً محضاً . وإن كان أرقى من سواه .

ولكن حدث بعد ذلك أنه كلما زاد عدد المتنصرين من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل » .

انتهى ما قالته دائرة المعارف الفرنسية .

ونضيف نحن إلى قولها ، إن الرومان كانوا يعتقدون التثليث قبل المسيح وكان الفرس والهنود يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم .

وكان التثليث عند سكان سيبيريا القدماء وعند البوذيين والصينيين .

وقد جاء فى تاريخ (موسيهم) النسخة الإنجليزية ما ترجمته « لم يكن التثليث معروفاً عند المسيحيين حتى أواخر القرن الثانى . وأول من نطق بكلمة ثالوث فى المسيحية كان الأب « اثيناغورس » مراعاة منه لعوائد الرومانيين المتنصرين » (١) .

عقيدة الصلب :

كما كان التثليث فى خرافات الأمم القديمة ، كذلك كان الصلب فى خرافات الأمم الوثنية قبل التاريخ ومنها أهالى (النيبال) الذين كانوا يعبدون إلهاً اسمه (اندرا) وهو عندهم كان مصلوباً وثقب بالمسامير ليخلص البشر من الذنوب . ونجد صورة الصليب فى معابدهم . وقال المصريون القدماء — قبل المسيح بألفى سنة — إن أوزيريس هو المخلص وأنه الفادى والابن الإلهى وأنه قتل ليفديهم ! !

البنوة الإلهية :

ذكر « أدوين جونسون » فى كتابه (نشأة الديانة المسيحية) ما يأتى :

« إن قول المسيحيين بأن عيسى ابن الله ، يرجع إلى مصدر رومانى هو قولهم إن : رومولوس ابن رياسلفيا ، ابن الله ، وريا هذه نذرت العفة وانخرطت فى سلك العذارى فى هيكل الإله (فستا) ولم يقربها رجل على زعمهم ، وولدت « رومولوس » من الإله « مارس » ، إله الحرب .

فلما دخل الرومانيون فى المسيحية وعلموا أن المسيح ولد بهذه الكيفية المعجزة . وشابه مولده الخرافة التى فى أذهانهم استسهلوا تسميته (ابن الله) ! !

---

(١) ذكرنا فى فصل « رسالة النبى محمد تحمل فى أطوائها عوامل النجاح » نقلا عن ميريل دوبينياه وعن كتاب تاريخ الكنيسة مايؤكد قول موسيهم عن تأثر الكنيسة بالعادات والاعتقادات اليهودية والوثنية تأثراً بلغ جوهر العبادة المسيحية ذاته .

وصعود المسيح ثم ظهوره فى الأرض هو صعود «روملوس» وعودته إلى الظهور فى سنة ٧١٦ قبل ميلاد المسيح ، وذكرت المؤرخة الشهيرة «آنى بيزانت» فى كتابها (المسيحية) أن فكرة الوحدة بين الأب والابن هى عقيدة البراهمة فى إلههم (براهما) .

وتكلمت المؤلفة عن الأناجيل الأربعة التى جمعها المسيحيون فى القرن الثانى شارحة مطابقتها لتلك الكتب المنتشرة بين الآسيويين والهندوس والبوذيين والشنتويزميين والسيخ (١) ، منتقلة فى المقارنة من سفر إلى سفر ومن رسالة إلى رسالة ، حتى تكلمت عن الآباء القدماء الذين عاصروا المسيح التاريخى وتلاميذهم من القرن الأول والثانى والثالث .

كما ذكرت المؤلفة أن التجسد الإلهى أو الميلاد ، جاء بالشكل المنسوب للمسيح قبل ميلاد المسيح بأزمنة بعيدة جداً ، منسوباً لأبولو ومثيراس وديونيسوس . .

وأما ما جاء فى الأناجيل من الآيات القائلة بأن الله أبو عيسى فلا تفيد البنوة على فرض صحتها وصدقها ، فإن نفس هذه الأناجيل جاء فيها أن الله أبو الكل(٢) كما جاء فيها أن الله واحد (٣) .

---

(١) آنى بيزانت من زعيمات الفكر الإنجليزى ، توغلت فى سياحاتها الدراسية فى الهند حتى يظنون أنه لم يبق فى الهند مكان مطروق أو غير مطروق إلا زارته وأقامت فى معابده ووقفت على تاريخ أهله .

(٢) جاء فى الآية السابعة عشر من الباب العشرين من إنجيل يوحنا قول المسيح عليه السلام فى خطابه لمريم المجدلية : لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى وأبيكم وإلهى (وإلهكم) فسوى فى الأبوة بين نفسه عليه السلام وبين الناس فى هذا القول ، فلو لزم من هذا التعبير أنه ابن الله للزم أن يكونوا كلهم أبناء الله .

وكان المسيح عليه السلام يعبر عن نفسه بكلمة (ابن الإنسان) ولعل ذلك لحكمة إلهية حتى يقوم هذا التعبير فى وجه دعوى البنوة الإلهية التى أوحى إليه أنه سيكون ضحيتها وذلك يظهر لمن قرأ الآيات ٢٠ فى الباب الثامن و ٦ باب ٩ ، و ١٣ و ٣٧=

عقيدة الألوهة :

ونشأت عقيدة ألوهة المسيح عن عقيدة بنوته الإلهية التى بينا أصلها الخرافى الوثنى ، ولم يدع المسيح لنفسه صفة الألوهة .

شهادة علمية :

فيصدق إذن قول العلامة « جون ينج » :

« إن الدين المسيحى عبارة عن مجموعة من الأديان المصرية القديمة والبابلية والآشورية والبرهمية والبوذية والمثيروزمية وغيرها من الطرق الفلسفية الطبيعية والعقلية ، التى لم تكن نتاج عقل فرد واحد ولكنها مجموع أعمال وأقوال متحدة صادرة عن جملة عقول مختلفة فى مدى أجيال متعاقبة » !!

شهادة أخرى :

والعلامة « كرنيليوس فانديك » وهو أشهر مستشرق معاصر توفى ونحن نؤلف هذا الكتاب ، يقول فى كتابه العربى (كشف الأباطيل فى عبادة الصور والتماثيل) :

إن نحو ثلثين من المسيحيين فى عصرنا هذا ، هم بالفعل عبدة أصنام وإن لم يكونوا كذلك بالاسم .

ويقول عن عصمة باباوات روما ومدى علمهم بالكتب المقدسة :

ينبغى أن نذكر هنا ما كتب به البابا غريغوريوس الثانى إلى الملك لاون الايسورى كاسر الصور حيث يقول « أنت شبيه لعوزيا الذى كسر تلك الحية النحاسية المقدسة التى أدخلها داوود مع التابوت إلى الهيكل »

= باب ١٦ ، و ٩ ، و ١٢ و ٢٢ باب ١٧ ، و ١١ باب ١٨ ، و ٢٨ باب ١٩ ، و ١٨ و ٢٨ باب ٢٠ ، و ٢٧ باب ٢٤ ، و ٢٤ و ٤٥ و ٦٤ باب ٢٦ من إنجيل متى .

(٣) وفى الآية ٣ باب ١٧ يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك . ويسوع المسيح الذى أرسلته » والآية ٢٩ باب ١٢ إنجيل مرقص .

مع أن عوزيا هو الجد الثانى لحزقيا كاسر الحية . ومع أن الهيكل لم يبن فى أيام داوود كما يعرف من له أدنى اطلاع على العهد القديم . فكيف استطاع عوزيا أن يكسر الحية بعدموته بسنين عديدة وكيف استطاع داوود أن يدخلها فى بيت لم يكن قد بنى بعد ؟!

ويقول «فانديك» عن الكنيسة المسيحية (وهذه القصة فى كتاب المجامع الكبير تأليف لاباى اليسوعى مجلد ٨ ص ٦٥٨) :

كما جعلوا المسيح إلهاً فقد جعلوا الصليب الخشبى المعلق فى الكنيسة إلهاً . وهذا نص الترنيمة التى تقال فى السبت الواقع قبل جمعة الآلام (ورد فى كتابى الخدمة اليومية الرومانية. وخدمة العذراء المباركة) : «السلام لك يا أيها الصليب الرجاء الوحيد ، زد نعمة للأتقياء وهب للمذنبين مغفرة الخطايا» ويعقب « فانديك » بقوله :

ولكن كهنة للرومانيين يقولون هذا باللاتينية الميتة . وعامة الشعب لا تفهم ما يبربرون به .

ويقول «فانديك» : إن طلبة مار يوسف عند الطائفة المارونية يقولون عن القديس مار يوسف :

« يا أيها القديس شريك الثالوث الأقدس فى خلاص النفوس » :

كما تقول طائفة الروم . والروم الكاثوليك فى عيد القديس سبيريدونوس مخاطبين إياه :

« لقد ظهرت محامياً عن الجميع وصانعاً العجايب يا أبانا سبيريدونوس اللابس اللاهوت » فالآلهة المسيحيون صاروا خمسة بل ستة ، الأب والابن والروح القدس والصليب الخشبى والقديس مار يوسف شريك الثالوث الأقدس . . والقديس سبيريدونوس اللابس اللاهوت ! ! ومن يدرى كم سيبلغ عددهم على تقدم السنين .

* * *

نخرج من هذا العرض الصريح لأقوال ثقات المسيحيين ومحققيهم وأصحاب الزعامة الفكرية عندهم بأن الديانة المسيحية الحاضرة وعقائدها وطقوسها ، لعبت فى تأليفها الجهالات والأهواء، جهالات البابوات وأهواء الأقوام الوثنيين واليهود . . وليست جماعة البروتستانت بأحسن كثيراً من غيرها، ونخرج بنتيجة ملازمة لهذا، هى أن العقلاء والمحققين لا يعترفون بأن الديانة المسيحية الحاضرة جديرة باسم الدين . وأنهم يجهلون حقيقة أصل الدين وتفاصيل شريعته .

صحيح أن بعضهم قرروا أن عقائد التثليث والألوهة والبنوة لم تكن معروفة عند المؤمنين المسيحيين . ولكن قانون البحث العلمى يلزم فى حالتنا هذه (١) بأن نرفض التسليم بوجود شخصية فى التاريخ تدعى (عيسى المسيح) كما يلزمنا بإنكار هذه الديانة .

فلولا القرآن الذى أكد شخصية المسيح تاريخياً ورد شريعته إلى أصلها، لاعتبر التاريخ الدينى أن تلك الديانة وذاك النبى خرافة من خرافات الأمم القديمة قياساً على ما ذكرناه من العقائد الوثنية والخرافات المماثلة لهذه المسيحية المبتدعة .

ويؤيد قولنا هذا ما ذكره « إدوين جونسون» أيضاً فى نفس الكتاب السابق ذكره . قال : « إن دين اليهود كان قد تلاشى تقريباً قبل ظهور الإسلام . وإن دين النصارى كانت باقية منه مبادىء قليلة جداً فى وسط الأمم الأوروبية حتى كأنه قطعة من السكر فى البحر الملح .

فلما ظهر الإسلام قوى اليهود قوة كبيرة وصار علماؤهم يكتبون باللغة العربية، واكتسبوا أموراً كثيرة من الإسلام حتى أحيوا دينهم بواسطة العلوم الإسلامية » .

***

---

(١) أى حالة وجود أصول فى الديانة ثبت اختلافها وفسادها . ووجود صفات للمسيح يرفض العقل إقرارها

الصلب والألوهة أيضــا

ومما يجب ذكره هنا أن بعضاً آخر من المؤرخين(١) قال إن نشوء القول بألوهة عيسى راجع الى أن الأحبار والكهنة اليهود خافوا اتباع الناس لديانته بعد رفعه ، إذ كان عليه السلام على سنن مقبول وقريب من القلوب فأشاعوا عنه أنه ادعى الألوهة ليزهدوا الناس فيه ويصرفوهم عنه :

وقالوا عن الصلب : إن دعوى الصلب نشأت عن اليهود المكذبين لعيسى ، لأنه لم ينقلها أحد من تلاميذه ولا من المؤمنين باعتباره شاهداً لوقوعها . وإنما أشاعها خصومه المكذبون له . وهذا سبب للتشكيك فى صحتها على الأقل ، إن لم يكن سبباً لرفضها قطعاً .

جاء الإسلام إذن ليرد المسيحية واليهودية إلى أصلهما الإلهى وينفى عنهما التحريفات والأكاذيب . وكان فى زمن الرسالة المحمدية علماء من أهل الديانتين ، أسلموا لأن الإسلام يطابق ما لديهم وبنفى الابتداع عن دياناتهم ، ويجىء مصداقاً لبشاراتها ونبوءاتها ومصداقاً لأقوال النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، أن الله سيبعث من نسل إسماعيل رسولا بشرع وكتاب .

ولو لم يكن هناك دليل على أن الديانة المسيحية الحاضرة غير صحيحة إلا نفى القرآن لصحتها ، لوجب على كل ذى فكر حر أن يقبل هذا الدليل فإن منطق القرآن فى النفى منطق عظيم مقنع لكل عقل . فهو لم يكتف . بأن ينفى عقائد المسيحيين المبتدعين (فى التثليث والألوهة والصلب والبنوة) ولكنه قرن نفيه لها بأن تحداهم بأن يقدموا دليلا على صدقها .

ومنطق العقلاء يقول إن صاحب الدعوى ملزم بتقديم الدليل عليها .

ولكن القرآن قرر وهو يطالبهم بالتدليل ، أنهم عاجزون عن الدليل ولم يكتف بهذا بل تطوع بأن يبرهن على صحة نفيه لدعواهم وهذا أبلغ وسائل البرهنة لأنه برهان يستند إلى أربعة أركان .. قال القرآن :

(١) نقله الامام ابن القيم فى كتابه (هداية الحيارى) .

« **قالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون** » ؟ ! (١)

وقال : « **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** » (٢)

فما أعظم هذا العتاب الإلهى لو كانوا يدركون ، وما أشده على النفوس المؤمنة لو كانوا يؤمنون .

وقال مستدلا بالعقل والعرف على كذب عقائدهم :

« **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** » ؟ ! (٣)

وهذه الآية التالية تفيد أنه ليس عند الله تعالى يهودية ولا مسيحية ، ولكنها شريعة واحدة أنزلها مجزأة حسب استعداد الأمم ومراعاة لمصلحتها فالإسلام هو هذه الشريعة ، والمسيحية الصحيحة هى إسلام ، واليهودية الصحيحة هى إسلام .. والرسالة المحمدية إنما هى تكميل الإسلام وتتميم بنائه . ويقيم القرآن الحجة عليهم من أنفسهم حين تنازعت الديانتان ، فعلماء المسيحية يقولون : كان إبراهيم على شريعة عيسى ، وعلماء اليهودية يقولون : بل كان على شريعة موسى ، فيقول لهم :

« **يا أهل الكتاب** » (٤) — وما أبلغ هذا النداء لقوم يقدرون نعمة الله عليهم بأن جعلهم أهل كتابه — « **لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون** » ؟! (٤) فلو كنتم تعقلون لعلمتم أنه

---

(١) يونس : ٦٨ — (٢) آل عمران : ٧١

(٣) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ — (٤) آل عمران : ٦٥

لا يمكن أن يحسب من النصارى ولا من اليهود لأن اليهودية أمة، والنصرانية أمة، وليستا ديناً ، وقد عاش إبراهيم قبل زمان موسى وزمان عيسى ! .

«ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم»(١) — أي في المسيح الذى تعلمون أنه ليس إلا بشراً وقلتم بألوهيته وقامت الحجة عليكم — **«فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »** (١) .

* * *

وكيف يعقل الفكر أن الإله يصلب ويصرخ ويستغيث بالله (٢) .

إن الله الذى أراد أن تبقى الدلائل على أصل الديانة التى حرفها كهانها، قد زين لهم الإمعان فى الوهم والتحريف بصيغ متناقضة ليكون التناقض دليلا عقلياً على فعلتهم :

فإنهم لو قالوا : إن عيسى نبي وإنسان ، ثم قالوا بصلبه ، لكان جائزاً فى العقل . . ولكنهم سموه إلهاً وصلبوه ! .

فلم يستطع العقل المسيحى المستنير أن يقبل هذا التناقض . فالتمس المتأخرون من كهنة المسيحية مبرراً يسوغ به فى العقل جواز صلب الإله ! فابتدعوا عقيدة الفداء والخلاص . . فأضافوا إلى المستحيل العقلى الأول . مستحيلا ثانياً فاضطروا إلى أن يقولوا : الدين فوق العقل .

ونحن نقول معهم إن الدين فوق العقل، ولكنا نفهمها على غير ما يتأولون، هم يريدون إرغام العقل على قبول ما لا يهضمه .

ونحن نقول إن الدين يوجه العقل ويوسع له آفاقه ، ويشترط عندنا لقبول الشريعة أن تكون مقبولة عقلا ، فالدين فوق العقل — أى أنه أعلم من

---

(١) آل عمران : ٦٦ ، ٦٧

(٢) ورد فى جميع الأناجيل مع اختلاف قليل فى الصيغة قول المسيح الذى نسبوه إليه حين وقع ماتوهموه من الصلب : (إلهى إلهى لم تركتنى) ؟

العقل يأخذ بيده إلى مراميه فيقبلها العقل . ومن أصول ديانتنا أن نرفض من العقائد والشرائع ما يرفضه العقل لأنه حينئذ لا يكون شريعة صحيحة . ولكن تاويلهم لهذه الأصولية جعل عقلاء المسيحيين يتجهون إلى التحرر من الدين ، لأنهم لا يعرفون من الأديان إلا هذه الخرافات التى تأباها عقولهم .

ولما كان الدين ضرورة للفطرة البشرية كما برهنا على ذلك ، فسيبحث هؤلاء المتحررون ، عن دين معقول . . وسوف لا يجدون ديناً معقولا إلا دين الإسلام ، دين العلم والعقل .

***

مما قدمناه فى هذا الفصل وفى غيره يثبت أن الإسلام مصدق لما بين يديه من حقائق الديانتين وأنه أصدق مؤرخ لسيرة عيسى وموسى عليهما السلام وأصدق مقرر لأصول ديانتيهما وأنه حقاً تتميم للشرائع ونسخ للابتداع . ومن القرآن وحده يمكننا معرفة حقيقة الديانتين وليس أمامنا إلى هذه المعرفة سبيل سواه بعد ما اعترف علماء التحقيق التاريخى للأديان (١) بعجزهم عن تبين الصحيح من الزائف من متناقضات مؤلفى الأناجيل وكتب أصول الشريعة .

وبعدما بينا أن الإسلام خالف من العقائد المسيحية ، كل عقيدة لايقبلها العقل ، وأقر ما عدا ذلك يثبت ، أن الإسلام دين صحيح :

فالإسلام ينكر استحالة مليون قطعة من الخبز إلى مليون جسد للمسيح لأن المسيح كان له جسد واحد(٢) وينكر أن الله يلد ابناً بأى طريقة من طرق الميلاد — كما ينكر العقل هاتين الدعويين !

---

(١) يراجع تفصيل ذلك فى فصل « الإسـلام نسخ اليهودية والمسيحية » وفصل « التوراة والإنجيل مفقودان » :

(٢) فإنه إذا قام بقداس الاستحالة ، مليون قس فى ليلة واحدة ، يمكن فى عقيدتهم أن تتم استحالة ملايين كسرات الخبز ، إلى أجساد للمسيح باللاهوت والناسوت !

وينكر أن الله يتجسد . وينكر أن الشيئين المختلفين طبيعة يتحدان فيتحولان إلى طبيعة أحدهما(١) ، وينكر أن الله يصلب .

وينكر أن الله يكون ثلاثة ، مهما أولوا هذا التثليث .

وينكر أن الله ينزل على نبي واحد أربعة كتب مقدسة ، مختلفة متناقضة يكذب بعضها بعضاً ، ويطعن الله فيها على أنبيائه الثابتة نبوتهم ، بأنهم زناة وعبدة أصنام !

وينكر الإسلام أن الديانات خارجة عن معقولية البشر .

هذا هو الإسلام المصدق لحقائق الديانات .

وتلك هي عقائده . ومن عقائد الإسلام أن تفكر بعقلك لتؤمن ولكن المسيحية تعتقد أن عليك أن تؤمن أولا ثم تفكر فيما يقوى إيمانك وأن الدين قد يناقض أحكام العقل . وأن الدين منحة لادخل للعقل فيها !

فأى السبيلين أهدى ؟!

***

(١) وهو اتحاد اللاهوت بالناسوت وتحولها ناسوتاً كما برهنا على استحالته فى فصل « الاسلام نسخ اليهودية والمسيحية » .

التوراة والانجيل مفقودان

لم يبق في نظر التحقيق التاريخي أي شك في أن التوراة التي أنزلت على موسى قد ضاعت نسختها الأصلية تماماً ومحيت من الوجود، وكذلك الإنجيل الذي أنزل على عيسى .

أما التوراة الحاضرة المتداولة بين أيدينا فمن تأليف جماعة من البشر :

وأما الإنجيل المنسوب إلى الحواريين الأربعة . فشأنه شأن التوراة ، وبعض نصوص التوراة الحاضرة مطابق لأصل التوراة .

وبعض نصوص الإنجيل الحاضر مطابق لأصل شريعة عيسى .

وقد اهتدى المؤرخون إلى صحة هذه النصوص بالأدلة العلمية، واهتدى إليها المسلمون بتأييد قرآنهم لها .

أدلة ضياع التوراة :

التوراة كلمة عبرية معناها « التعاليم والشريعة » وتطلق عند اليهود على خمسة كتب يقولون إن موسى كتبها بيده وهي :

١ ــ سفر التكوين أو سفر الخليقة . ٢ ــ سفر الخروج .

٣ ــ سفر الأحبار . ٤ ــ سفر العدد .

٥ ــ سفر الاستثناء .

وعلى كتب أخرى يزعمونها مكملة للتوارة فتصير بها ٣٨ كتاباً .

ومن المسلم به أن شرط التسليم بصحة كتاب ، والإقرار بأنه إلهي ، أن نعلم بالسند التاريخي أن النبي الذي أنزل عليه الكتاب ، كتبه أو أملاه

على ثقة ، ثم أن يثبت أن هذا الكتاب وصل إلينا متواتراً أى معلومة مراحل انتقاله بين الأيدى الثقة ثم أيدينا .

وهذا السند التاريخى مفقود بالنسبة للتوراة بل توجد براهين من التاريخ تنطق بأن التوراة التى كتبها موسى مفقودة تماماً . فإن التوراة ظهرت لأول مرة بعد أن ملك يوشيا بن آمون أحد ملوك بنى إسرائيل بثمانى عشرة سنة . وهذه النسخة أيضاً فقدت فى غزو بختنصر لفلسطين . كما اعتمده جميع المؤرخين وفقدت معها سائر كتب العهد القديم . ثم كتبها عزرا (واليهود متفقون على هذا) معتمداً على حفظه وعلى بيانات ناقصة مغلوطة ، والخلاف بين المؤرخين وبين علماء اليهود ، هو أن عزرا كتب التوراة على أنها توراة موسى ، فالمؤرخون ينكرون هذا لأن الكتابين الأول والثانى من أخبار الأيام ، وقع فيها أغلاط كثيرة تاريخية فحقق المؤرخون أن التوراة هذه ليست إلا مجموعاً من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود فى ذلك العهد ، جمعها الأحبار فى كتاب بغير نقد ولا تمييز ، وسموها توراة . ونسبوها إلى عزرا بعد ضياع ما كتبه .

ولما كان الخطأ الكثير قد تحقق وقوعه فى هذه التوراة قرر المؤرخون أنها لا يمكن أن تكون إلهاماً أو نصاً إلهياً نزل على موسى . فليست هى بتوراة موسى .

ونذكر هنا مواضع خطأ التوراة — كما أثبتها رجال التحقيق التاريخى لنشرك عقل القارىء فى الاستنتاج الصحيح .

ذكرت التوراة العبرية (وهى المعتمدة عند اليهود بخلاف اليونانية والسامرية) أن الزمن من عهد آدم إلى طوفان نوح هو ١٦٥٦ عاماً .

وذكرت التوراة اليونانية أنه ٢٢٦٢ عاماً وذكرت السامرية أنه ١٣٠٧ وقد حقق المفسران العالمان (هنرى . و . اسكات) فى تفسيرهما المشهور للتوراة أن صحة هذه المدة هى ما ذكرته السامرية ، بجلوك

تفصيلى ذكرا فيه أعمار الأشخاص الذين تسلسلوا من آدم إلى نوح . وأيد هذا الرأى العلامة « آدم كلارك » .

واختلطت النسخ الثلاثة فى الإحصاءات العددية فقالت الآية التاسعة من الإصحاح ٢٤ من سفر صموئيل الثانى « بنو إسرائيل كانوا ٨٠٠ ألف رجل شجاع وبنو يهودا ٥٠٠ ألف رجل شجاع » وجاء فى الإصحاح ٢١ من سفر الأيام الأول « بنو إسرائيل كانوا ألف ألف ومائة ألف رجل شجاع ويهودا كانوا ٤٧٠ ألف رجل شجاع) .

فقال « آدم كلارك » فى المجلد الثانى من تفسيره فى ذيل عبارة صموئيل لا يمكن صحة العبارتين، وتعيين الصحيحة عسير .

وفى التوراة الحاضرة أخبار عن سليمان عليه السلام ، تدل على أنها مكتوبة بعد عهده ، أى بعد وفاة موسى بمدة ٥٠٠ عام فضلا عن أن صيغة ما جاء فيها عن النبى سليمان تدل على أن **مؤلفها فاسق ملحد** فى الباب الحادى عشر من الملوك الأول :

« أن سليمان ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها الهياكل » .

وفى سفر التكوين فى الباب التاسع عشر أن لوطاً زنا بابنتيه وحملتا منه ووضعتا ولدين ،وفى سفر صموئيل الأول فى الإصحاح الحادى والعشرين أن داوود زنا بامرأة أوريا وحملت منه فقتل زوجها بحيلة وتصرف فيها .

وقال دكتور «اسكندر كيدوس» فى مقدمة قاموس بايبل—أى التوراة— ما يأتى :

ثبت لى بظهور الأدلة الخافية أمور ثلاثة ، ثبوتاً يقينياً ، أولها : أن التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى ، والثانى : أنها كتبت فى أرض كنعان أى بعد وفاة موسى لأن قومه لم يدخلوا أرض كنعان ولا أورشليم فى عهده . والثالث : أنها كتبت بعد سليمان أى قبل نحو ألف سنة فقط من ميلاد المسيح ، فى عصر هوميروس الشاعر ، أى بعد وفاة موسى بمدى خمسمائة سنة .

وقارن المؤرخ « نورتون » لغة التوراة بلغة غيرها من الكتب الموضوعة فى عصر خروج الإسرائيليين من أسر بختنصر لهم فى بابل ، فوجدها لغة واحدة لا اختلاف بين أساليبها . مع أنه بين الزمن المقول بأن التوراة كتبت فيه وزمن خروجهم من الأسر ٩٠٠ سنة ، ومن المستحيل أن لا تكون اللغة قد طرأت عليها تغيرات فى الأساليب والتراكيب والاستعمالات ؛ لأنه ثابت أن أى لغة فى الدنيا لا تبقى على أسلوب واحد مدى ٩٠٠ سنة.

وأيده فى رأيه المسيو « ليوسلن » أحد المتضلعين فى آداب اللغة العبرية وتاريخها وقال « جون ملز » فى صفحة ١١٥ من كتابه طبعة دربى سنة ١٨٤٣ : « اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ العهد القديم ، ضاعت من أيدى عسكر بختنصر ، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة « عزرا » ضاعت أيضاً تلك النقول فى حادث « أنيتوكس » .

واتفق العلماء أيضاً على أن التوراة العبرية الحاضرة منقولة عن اليونانية مع بعض التحريف فيها وأنها ليست أصلا لليونانية !

والطوائف المسيحية متفقة على أن اليهود حرفوا توراتهم فى سنة ١٣٠ للميلاد ، ولا تعتمد هذه الطوائف إلا التوراة اليونانية . ومما يذكر بالعجب أن الترجمات المختلفة للتوراة غير منسوبة إلى مترجميها فلا تعرف أسماؤهم (١) .

ثم ذكر المؤرخون نصوصاً استدلوا بها على التحريف للتوراة ، بالزيادة عليها وبالنقص منها ، وبتأويل ألفاظها تأويلا تعسفياً ... لا نرى أن نذكرها مخافة التطويل .

***

---

(١) ولو عرفت أسماؤهم لكان ذلك عاملا مهماً فى معرفة زمان التحريف وأسبابه ومواضعه .

أدلة فقد الانجيل وتحريفه

لابد أن نشير إلى أن إجماع المسيحيين على صحة الأناجيل ، إجماع لا قيمة له من وجهة النظر العلمية فقد ثبت تاريخياً :

أن المسيحيين حتى سنة ٣٢٤ ميلادية . كانوا يرفضون التسليم بثمانية كتب من كتب العهد القديم وهى من أصول الإيمان المسيحى وهذه الكتب هى :

(١) كتاب استير (٢) كتاب باروخ (٣) كتاب طوبيا (٤) كتاب يهوديت (٥) كتاب زدم (٦) إيكليز ياستيكس (٧،٨) الكتابان الأول والثانى لمقابيين .

وكان رفضهم إياها لاعتقادهم أنها غير إلهية ، ثم انعقد منهم مجمع فى سنة ٣٢٥ ميلادية فى عهد قسطنطين إمبراطور الرومان ، فقبل هذا المجمع من الكتب المرفوضة : كتاب يهوديت . ثم انعقد مجمع آخر فى سنة ٣٦٤ م فقبل كتاباً آخر هو كتاب استير ، ثم انعقد مجمع آخر فى سنة ٣٩٧ فقبل جميع الكتب التى رفضتها المجامع السابقة ورفضها الشعب ! !

ثم مجمع الإصلاح البروتستانتى فى زمن « لوثر » فقرر من جديد رفض الكتب الثمانية عدا تسعة فصول من كتاب استير (وعدده ١٦ فصلا) .

فمن هذه التواريخ المجامعية تتبين لنا قيمة إجماعهم ، ويسقط اعتبار هذا الإجماع سنداً تاريخياً يصح التعويل عليه .

وقد اتفق المؤرخون المسيحيون العلماء على أنه لا يوجد سند تاريخى يثبت أصول الإنجيل الصحيح ولا وجوده ، وكان الأسقف « كليان » أسقف روما يدعى أن النصوص الأصلية كانت موجودة فى عهده وأنها هى المتداولة الآن وقد أثبت المؤرخون كذب الأسقف « كليان » لأنهم حققوا أن توليه الأسقفية كان فى سنة ٩٥ م وحققوا أن الإنجيل لم يكتب

إلا فى سنة ٩٦ م وهذا لا يدل على أنه إنجيل عيسى ، فقد كتب بعد رفعه بثلاث وستين سنة . واستشهدوا بأن الإنجيل الذى نزل على عيسى هو إنجيل واحد ، وليس أربعة أناجيل متناقضة ، فضلا عن سبعين إنجيلا كانت معتبرة حتى عهد «أوجستين» ، ثم عقد أوجستين مجمعاً مسيحياً لاختيار أربعة منها ، وتروى عن كيفية الاختيار خرافة مضحكة وهى أنهم وضعوا الأناجيل على منضدة فى حجرة مقفلة بالشمع ثم عادوا إليها فى اليوم الثانى فوجدوها كلها على الأرض عدا الأناجيل الأربعة ! !

***

تحريف الانجيـل

يكفى فى إثبات تحريف الأناجيل أن ننقل ما قاله القس « ميخائيل مشاقه » فى كتابه المطبوع باللغة العربية فى بيروت (: أجوبة الإنجيليين على أباطيل التقليديين) . قال :

وأما تحريفهم لأقوال الآباء القدماء فلابد أن نقدم دلائله فنقول :

« إن الأفشين المنسوب إلى يوحنا فم الذهب ، الـذى يتلى فى الـكنائس فى خدمة الافخارتستا . لا نجده مطابقاً عند الطائفة الواحدة لما عند الطائفة الأخرى فإنه عند الروم يطلب فيه من الأب السماوى أن يرسل روحه القدس على الخبز والخمر ، ناقلا إياهما إلى لحم ودم ، وأما عند الكاثوليكيين فيقال فيه أن يرسله على الخبز والخمر لـكى ينتقلا ويستحيلا . ولـكنهم فى مدة رياسة مكسيموس غيروا فيه وقالوا : المنتقلان المستحيلان ، هرباً من دعوى الروم عليهم بأن الاستحالة تتم به .

وأما عند السريان الـكاثوليك فيقال : « أرسل روحك القدس على هذا الخبز الذى هو سر جسد مسيحك ، ولا يوجد فيه كلام يدل على الاستحالة وربما كان هذا هو قول فم الذهب الصحيح ، لأن تعليم

الاستحالة فى عصره لم يكن قد تقرر فى الكنائس ، وقد ثبت عندنا أن واضع تعليم الاستحالة هو « نيكفور » بطريرك القسطنطينية » .

***

فإذا كان هذا التحريف والخلط واقعاً فى كلام أحد القديسين فى عصر انتشرت فيه الطباعة ، فما بالنا بعصر الأناجيل الذى لا طباعة فيه ولا كتابة ، وفيه كانت للأقلية الكاتبة ، الحرية المطلقة فى الوضع دون خوف من رقابة أحد .

وهذه الأدلة مضافة إلى غيرها مما ذكرناه استطراداً فى فصول هذا الكتاب ، تؤكد أن التوراة والإنجيل مفقودان وأن نصوص وتعاليم الديانات (المسيحية واليهودية) الحالية إنما هى تعاليم فاسدة للأحبار والقسيسين الجهلة ، كما اعترف عليهم مؤرخوهم الثقات .

ودين ضائع مفقود الأصل ، مخلوط بالأوهام محرف بغاية الجرأة لا يجوز اعتناق عاقل له .

فلهذا أنا مسلم !

***

الاسلام جماع الدساتير
الاجتماعية والسياسية والدولية

نكرر أن الإسلام لا يكتفى فى تقرير أنظمته الإصلاحية بالقواعد ولكنه يتجه بها لتكون مجدية عملية فهو من هذه الناحية يخالف النظريات الفلسفية الحالمة، كما يخالف فى نواحيه الأخرى كل شىء سواه .فالتشريع الإسلامى ، والأدب الإسلامى ، والمجتمع الإسلامى ليست متأثرة بسواها ولكنها خالصة يميزها قالبها وأسلوبها وطريقتها .

كشفنا للقارىء عن كيفية بناء الإسلام للحياة العائلية وعن تكييفه للعلاقات بين الأفراد ، وفى هذا الفصل نكشف عن مفاخر الإسلام السياسية والدولية وطريقته فى نظام الحكم واختيار الحاكم .

طبيعة مهمة الحكومة الأولى : وهى حماية أمن الناس وأعراضهم ودمائهم وأموالهم ونشر العدل فيهم ، تستلزم توفر خصائص واشتراطات فى شخص الحاكم ، ونظام الحكم .

جاء فى القرآن قول الله تعالى حكاية لقصة موسى على لسان ابنة شعيب عليه السلام **« يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين »**(١)

ولا شك أن استئجار شعيب لموسى عليهما السلام ، كان ليوليه أموره وهذا نوع من الولاية والسيادة يدخل فى باب الحكم .

روى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول ألا تستعملنى ! قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف . وإنها

---

(١) القصص : ٢٦

أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » :

وأبو ذر من الصحابة المقربين من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن النبي صارحه مع ذلك بأنه لا يصلح للحكم . . فاشتراط القوة فى الحاكم واشتراط الأمانة ، يقصد بهما معنى واسع ، فالقوة يراد بها قوة البأس وقوة الفهم وقوة الشخصية وقوة ضبط النفس ليدفع الحاكم بهذه الصفات أذى بعض الناس لبعضهم ولكى لا يظلمهم ، ولكى يستطيع بقوة فهمه تعرف أحوال رعيته والفصل بينهم ، وليستطيع بقوة ضبطه لنفسه أن يعلم أن الحكم ليس سلطة يستبد بها كيف شاء ، وأنه ليس لذة شخصية ولا نفعاً مختلساً وإنما هو تكليف .

واشتراط الأمانة هو إحاطة للحاكم بسياج من الأخلاق الفاضلة التى يستلزمها والاضطلاع بمهمة الحكم . ومن الأمانة الحرص على شئون الرعية المادية والأدبية ، والحرص على الدفاع عنها . والحزم ، فإن الحازم لايخون الحقوق بشفاعة الشافعين ، لا حقوق الأفراد ولا حقوق المجتمع على المذنب ولا حقوق الله على معتدى حدوده . ولا يميل الحازم مع عاطفته الشخصية فى تقريب الأفراد أو إبعادهم .

وقد عد الفقهاء فى باب الأمانة : الرحمة والرفق بالرعية وتأديب المفسدين العابثين بالأمن العام .

فتلك الآية الصريحة وهذا الحديث النبوى قسم من دستور الحكم وما تتطلبه الحكومة من صفات لشخص الحاكم .

ويتممه قوله صلى الله عليه وسلم « من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها إلى ؛ فإن من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » وفى رواية . . « سد الله خلته يوم القيامة » .

فالإسلام حين يشترط فى الحاكم ألا يحتجب دون حاجات الناس ، يسد باب المحسوبية وباب الرشوة. ويوفر للمحكومين أول أركان الاطمئنان وهو العدل فيهم والوقوف على احتياجاتهم .

وفى التشريع الإسلامى لا يجوز أن يعهد بالحكومة أو ولاية الأقاليم أو المدائن أو القرى (أو أى وظيفة عامة) إلى رجل يطلبها بنفسه أو يتطلع إليها لأن طلبه الحكم يجعله فى نظر الإسلام رجلا غير أمين وصاحب غاية شخصية ، إما أن يكون الانتفاع المادى عن طريق الولاية أو الاستمتاع بلذة السلطان . وكلا الأمرين مناقض لمصلحة الشعب المحكوم .

ومن قديم الزمان كان طالب الحكم يعلل طلبه له بأنه يرى فى نفسه القدرة عليه ، ولكن التعليل الإسلامى لهذه الرغبات هو الضعف وفساد الذمة وعدم الأمانة .

وشدد الإسلام على الحكام ، حذرهم من الظلم وخوفهم الآخرة وقرر أن السلطة تقابلها المسئولية « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . . . الحديث » وهذا أصل من أصول القانون الدولى الخاص فى العصور الحديثة ، ابتدعه الإسلام ولم يسبقه غيره إليه .

ومن أحسن ما نرويه فى باب المسئولية ليعطى القارىء فكرة عن الحكومة الإسلامية قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « والله لو عثرت دابة فى العراق لرأيتنى مسئولا عنها . فقيل له : وما ذنب أمير المؤمنين فى ذلك ؟. فقال : أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها ليمشى عليها الناس والدواب ، بدون عثار واضطراب » .

فهذه الرواية عن عمر وهو إمام مشرع فى الإسلام تدل على أن الحاكم العام الإسلامى يجب عليه أن يباشر الولاة الخاضعين له مباشرة دقيقة فى كل شأن صغير .

تلك صفات الحاكم الإسلامي ، إن فقد بعضها لم يصلح للولاية .. ومن الولاية الإسلامية مناصب القضاء وكل ما يعطى صاحبه سلطة على الناس .

وقد ندد القرآن بالحكام الظالمين ووصف حكام بنى إسرائيل مشدداً السخطة عليهم لظلمهم وأخذهم الرشوة فقال : « **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه** » (١) .

نظام الحكم :

ونظام الحكومة الإسلامية نظام دستورى بأوسع المعانى فالأمير يستمد سلطته وولايته من البيعة الشعبية العامة وتكون البيعة من أهل السيف (لأنهم قوته فى حماية الدولة) وأهل العلم ورؤساء العشائر ، وهذا التقسيم هوأوسع الحقوق الانتخابية فكل رئيس عشيرة إنما ارتضته واختارته عشيرته وانتخبته. وكل ذى سيف يتبعه فرسان يدينون له كما كان الحال فى الجاهلية وفى الإسلام وفى العصور الوسطى (وذو السيف هنا هو المحارب المشتهر) فكأنه بمثابة أحد القواد ، وأهل العلم معتبرون أعيان الوجوه فى كل مملكة متحضرة .

والأمير مسئول مسئولية دستورية كاملة لا أمام ناخبيه وأصحاب بيعته فقط ولكن أمام كل فرد من رجال الشارع . فالأعرابى الذى واجه أمير المؤمنين عمراً وهو فوق المنبر قائلا : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيف » يمثل حدود هذه المسئولية الدستورية .

ومن أحسن مايستدل به على أن الفرد فى ظل الحكم الدستورى الإسلامى لا يفقد حقوقه المباشرة فى السلطة والحكم ، أن من أصول شريعة الإسلام ، إذا بسط فرد مسلم حمايته على رجل غير مسلم وجب على الأمير احترام هذه الحماية ولو كان قوم الرجل فى حرب مع المسلمين . . . !

---

(١) الأعراف : ١٦٩

بينما لا يوجد اعتراف للأفراد بمباشرة حقوقهم فى السلطة فى أى نظام دستورى من الأنظمة الحديثة .

وكفلت الشريعة الإسلامية جميع الحقوق العامة والخاصة فالأول منها، الحريات المختلفة فى التفكير والرأى والعقيدة والانتقال والاجتماع .والخاصة كحقوق الزواج والملكية والحقوق العائلية والاقتصادية .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى إعلان الحرب وفى المعاهدات وفى كل ما هو داخل نطاق الحكومة . فشرع بذلك النظام البرلمانى ويؤيد أن الحكومة الإسلامية حكومة اشتراكية القواعد ، أن بيت المال يجمع الصدقات من المسلمين ليوزعها بنفسه على فقرائهم وهذا هو أساس الاشتراكية الحديثة التى تحتكر الإنتاج وتوزع الربح ، ولكن الحكومة الإسلامية نجت من الأضرار الاقتصادية لاحتكار الإنتاج واحتكرت جزءاً من ربح الإنتاج تقوم هى بتوزيعه على مستحقيه وليس هذا الجزء باليسير مضافاً إليه غيره من صدقات الكفارات وصدقات النافلة (١) :

وكما نجت الحكومة الإسلامية بهذا النظام الاقتصادى الفذ ، كذلك نجا الشعب من هذه الثورات المدمرة والفتن التى تشوه نظام العالم بسبب حرص الأغنياء وجوع الفقراء . فما دامت الزكاة مؤداة على وجهها الشرعى ولا ضمان لهذا إلا أن يجمعها بيت المال ويوزعها ، فالمجتمع الإسلامى سليم وأنظمته موطدة . فإذا ما شحت نفوس الأغنياء فأكلوا تلك الحقوق فبشرهم بحرب من الله ورسوله ، وحرب من الشعوب الجائعة ، يكونون حطامها المبعثر .

---

(١) فان الصدقات المفروضة فى الإسلام عدا صدقات النافلة التى رغب فيها بكل وسائل الترغيب هى :

زكاة المال . وهى : (١) الأنعام (٢) والحرث (٣) والعين : وفرضت الزكاة على التاجر فى عروض تجارية . وزكاة الفطر

ومن اشتراكية الإسلام الدولية ، محوه الفوارق الجنسية وإحلاله الإخاء العالمى الإسلامى محلها ، وهو جنسية لا غبار عليها فى نظر القوانين الحديثة فإن المراد من تكييف الجنسية هو تنظيم الحقوق والواجبات وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وقد نظمها الإسلام كلها على أساس الإخاء العام وقد آمن فقهاء التشريع من الأوروبيين بعظمة هذا النظام فى ضمانة السلام العالمى فاقترح (جورج بوديبيراد ملك بوهيميا فى سنة ١٤٦٠ ميلادية)مشروع حلف أبدى مسيحى لتحقيق السلام الأوروبى بين المسيحيين ؟

واقترح « توماس كمبانيلا » صيانة السلام بتأسيس وحدة أوروبية تحت سلطة الكنيسة وملك أسبانيا .

وأشار « سولى » بحلف يكون أساسه المبادىء المسيحية . و«جان جاك روسو » اقترح حلفاً بين أولياء أمور أوروبا لأن قيام دولة عهدية استقلالية كان فى نظرهم هو وحده الكفيل بتحقيق السلام الأبدى ومع ذلك لم يتحقق هذا الحلم الأوروبى ، الذى جعله الإسلام —وأوروبا فى ظلمات الجاهلية— حقيقة واقعة ونظاماً قائماً ، فإن الحكومة الإسلامية كانت حكومة عهدية استقلالية بكل معانى الكلمة الدستورية والفقهية .

والحكومة العهدية الاستقلالية (١) هى فى الوضع السياسى مرادف للحكومة الاشتراكية من حيث المعنى الاقتصادى . ولا أظننى فى حاجة إلى تفسير هذا كى لا نخرج إلى بحث دستورى ليس من موضوع الكتاب .

---

(١) والمراد بالحكومة العهدية الاستقلالية هى ذات النظام الاتحادى كاتحاد الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الألمانى قبل الانقلاب الأخير فقد كان لكل مقاطعة أميرها وكان الإمبراطور هو ممثل الدولة العهدية المتحدة ، فلابد فى الإسلام من امبراطور مسلم يرمز إلى مجد الإسلام ، كما يرمز الملك إلى مجد الدولة ويمثلها . فإن الإمامة أصل من أصول الحكم فى الإسلام وهى غير موجودة اليوم فالمسلمون بصفتهم أمة لا يعرفون لهم ملكاً وإن عرفت كل أمة مسلمة كمصر والعراق والحجاز أن لها ملوكاً ولكنه ملك سياسى . لا يغنى عن وجود الملك الإسلامى الذى يمثله إمام ملك واحد .

وإنما نذكر أن الشريعة الإسلامية التى يقول قرآنها: « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** »(١) لا يكون أساس نظامها إلا اشتراكياً ، فصراحة الآية فى نفى المفاخرة بالقوميات واللغات والألوان ومحو فوارقها ، دليل على دعوة الاشتراكية والمساواة ، التى يبرهن عليها الإسلام ويذكر أنها أصل كونى ، ببديهة تستلزم ذلك وهى وحدة الأصل وتساويه .

والإسلام الذى يحارب الأثرة فى الأفراد ، يحارب الأثرة فى الأمم والشعوب فلا يجعل لأمة على أمة سبيلا ، ولا يجعل أمة هى أزكى من أمة ولا سبيل لمحق الأثرة الدولية إلا النظام الاشتراكى والحكومة العهدية الاستقلالية ، كما جاء بهما الإسلام .

وأول من عقد المؤتمرات بمعناها الحديث للتشاور فى مصالح الأمة على اختلافها ، هو الإسلام.. فالقرآن يقول « **وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات** » (٢)الآية .

فشهود المنافع المقصودة أيام الحج هو الائتمار فى شئونهم والتفكير فى الوسائل المؤدية إلى خيرهم وهذا هو أول مؤتمر دورى دولى عرفه العالم .

من أنظمة الإسلام الدولية :

١ ـ عصبة الأمم ٢ ـ المحالفات ٣ ـ السفارات .

مقتضى نظام الدولة العهدية الاستقلالية أن لا تكون لأمة سيادة على أمة ، وأن لا تعتدى أمة على سيادة أمة . وهذا ما يسمى فى القانون الدولى العام : نظام التبعية المتبادلة ، وهو الضمان للسلام الإنسانى العالمى ولوحدة كيان الأمم .

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الحج : ٢٧ ، ٢٨

ويقتضى هذا النظام قيام هيئة دولية تحميه ، هى هيئة عصبة الأمم فى الاصطلاح الحديث : وقد فشلت عصبة الأمم لأنها لا تملك جيشاً دولياً يحمى إرادتها ويقوم بحرب الجزاءات ضد الدولة التى تخرق نظام العهد ولكن الإسلام وضع نظام عصبة الأمم على أقوم أساس فى قول القرآن :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » (١) .

وألحق الإسلام بأمم المؤمنين ، كل أمة لها عهد مع أمة مسلمة فإنه لا يجوز للأمة الإسلامية أن تنصر دولة معتدية على دولة ، ولو كان المعتدى عليها غير مؤمنة ، وبذلك أعلن الإسلام حقوق الأمم الدولية إعلاناً تطبيقياً كما هو مذكور صراحة فى موادعة النبى لليهود التى جاء فيها :

« وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . .وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى ثعلبة ولجفنة ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن موالى ثعلبة كأنفسهم ... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » .

فعصبة الأمم كما دلت عليها نصوص هذه المعاهدة تتكون من الأمم الإسلامية واليهودية والمسيحية على أوضح أساس ولكل أمة متعاهدة حقوقها الصريحة المعلنة فى هذا العهد فليرجع إليه فى مكانه .

ولعصبة الأمم الإسلامية جيش يوقع الجزاء الحربى على الأمة المعتدية كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم حين نقضت قريش العهد فإن قبيلة بكر حلفاء قريش قد اعتدت على خزاعة حلفاء النبى ، فأعلن الإسلام الحرب

---

(١) الحجرات : ٩

على بكر وحلفائها واعتبر نقضها العهد وعدم تأديب حلفائها لها . اشتراكاً من الحلفاء فى نقض العهد يقتضى توقيع الجزاء وانتهت هذه الحرب بفتح مكة وانتصار المسلمين .

وقد حاز القانون الإسلامى الدولى أرفع مراتب العظمة لأن أساس السياسة فى الإسلام هو الخلق الفاضل ، فالقرآن يقول فى الوفاء بالمعاهدات :

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » (١)

وما أعظم أن يجعل الإسلام ، الوفاء بالعهد السياسى ، من التقوى أصل الإيمان ، وأن ينهى عن نقض الحلف ، وأن يبيح تجديد العهد لمن رغب من المشركين تجديده .

يضع القرآن — دستور الإسلام — هذه القواعد النبيلة وهو يعلم أن كفار قريش كانوا يتعاهدون مع النبى ليأمنوا سطوته وهم على نية الغدر بعهدهم متى استعدوا للحرب . ومع ذلك يحرص على سياسته الدولية الفاضلة ولا يجاريهم فى خفر الذمة ونقض العهد .

ويخاف الإسلام على أهله أن يؤثر فيهم غدر هؤلاء الناس فيقابلوهم بمثله ، فيستعد لذلك بطريقته الخاصة من التأثير فى القلوب .

فيمهد بقوله :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . . . » (٢)

---

(١) التوبة : ٣ ، ٤ (٢) النحل : ٩٠

وإلى هنا نجد أن هذه الأخلاق التى يوصى بها إنما هى أول أركان الآداب الإسلامية وأنها مستقرة فى نفوس المسلمين ، يألفونها ويستيقنون ضرورتها لإسلامهم .

فيعقب على هذا الأمر اليقينى بقوله : « **وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم** »(١) فيعلمهم أن الوفاء بالعهد يدخل ضمن خلق العدل والإحسان وأن الإخلال به يدخل مع الفحشاء والمنكر والبغى ، لتسترذل نفوسهم الغدر كما استرذلت البغى والفحشاء والمنكر .

ويسمى العهد عهد الله ، تعظيما له وتوكيداً .

ثم يقول « **ولاتنقضوا الأيمان بعدتوكيدها وقدجعلتم الله عليكم كفيلا** »(٢)

فلم يقتصر الإسلام فى هذا الأمر الخطير — أمر قوم أقوياء بالوفاء لقوم مخادعين غادرين ضعفاء — لم يقتصر على العظة وإنما أرسى هذا الأمر على صخرة المعتقد الدينى النفسى . وهذا جانب من سياسة الإسلام الفاضلة ومن طريقة تعليمه السياسى الفذة .

***

وفى ظل القانون الإسلامى الدولى وجدت كل أمة سلامها وسلامتها فأمان خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر لأهل العراق ولأديانهم وعاداتهم ، وصلحه مع أهل الحيرة ،

وأمان عمر رضى الله عنه لأهل إيلياء يعطينا الفرق الهائل بين العهد الإسلامى النبيل وبين الاستعمار الأوروبى .

ونثبت هنا أمان عمر كمثال لصيغ ودلالات العهود الإسلامية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم

(١) النحل : ٩١ (٢) النحل : ٩١

وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون في دينهم ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية (١) كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... الخ» (ص ١٥٩ من الجزء الرابع من تاريخ الأمم والملوك للطبرى) .

مقارنة سطحية :

حين تعلن أمة الحرب على أمة فى هذا العصر الحديث ويكون لاحدى الأمتين رعايا فى بلاد الأخرى تعمد الأمتان المتحاربتان إلى اعتبار رعايا كل منهما أسرى حرب بدون حرب ! فانظروا إلى هذا وانظروا إلى النظام الإسلامى وإلى نص الدستور القرآنى ، فإنه يأمر من شاء أن يبقى فى البلد التى تحارب قومه على شرط أن لا يغدر ولا يخون . فليبق وهو آمن أمناً كاملا ، ومن شاء أن يرحل إلى بلاده وجب تأمينه ووجبت حراسته حتى يصل إلى بلاده ، وتعتبر حمايته إلى أن يصل بلاده فرضاً شرعياً على الوالى المسلم . . ومتى وصل إلى ... قومه اعتبر بعد ذلك محارباً .

لو لم يكن فى سياسة الإسلام الدولية إلا هذه الأمور التى ذكرناها لكان جديراً بأن تسجد الأمم وتعنو لعظمته ، لأنه معلن حقوقها وكافل سلامها وأمنها ، ولكن فيه غير ذلك كثير .

فى الإسلام مناطق الحياد ، وفى الإسلام نظام التحكم :

وفى الإسلام أن الصلح الحربى يكون بين جميع الأمم المتحاربة لا مع إحداها .

---

(١) هى فى مقابل الحماية ونفقة الحرب كما سبق أن وضحناه .

وفيه أن عصبة الأمم الإسلامية تعمل لحساب الأمم والشعوب لا لحساب الدول .

وعصبة الأمم الإسلامية مستوفية لجميـ كان . ففيها :

نظام الاشتراكات المالية ، إذ أن الخراج يصرفه الوالى فى مصالح الأمة التى يحكمها ويرسل الباقى إلى الإمام لسد نفقات الجيوش والدفاع .

وفيها نظام تسجيل المعاهدات . فقد كان التسجيل معروفاً بتعليقها على الكعبة .

وفيها الوساطة والتحكيم والصلح . وفيها الجيش الدولى الذى ينجز قراراتها — وهذا ما ليس لعصبة الأمم الأوروبية ولا لهيئة الأمم المتحدة !

وفى النظام الدولى الإسلامى حق تقرير المصير ، وفيه مبدأ الاستفتاء العام (١) .

وفيه أخيراً الكمال والوفاء والشهامة السياسية، والنبل الإنسانى . وحكومته أصلح حكومة . وحكامه أسمى الرجال .

فدين هذا جانب واحد من جوانبه ، جدير بأن يكون عقيدة كل مثقف .

فلهذا أنا مسلم

***

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل هذه المبادىء والأنظمة بتوسع فى كتاب (عصبة الأمم) للعلامة أحمد وفيق .

الاســـــلام

دين التربية البدنية

إذا نظرنا إلى الألعاب الرياضية فى تاريخ الإسلام نظارة العصر الحديث إليها من حيث هى ضروب متعددة من الألعاب لها حركات مرسومة وشروط موضوعة ومباريات وقوانين معترف بها اعترافاً دولياً حكمنا بأن العرب والدول الإسلامية لم تبلغ فى الرياضة مبلغاً يستحق الذكر . وإذا نحن قسناها بما عرف عن الإغريق القدماء وجدناها دونهم بلاجدال فإن الألعاب الأولمبية القديمة وما كان يحيط بها من مراسم وحفلات وأعياد لم يكن لها شبيه فى تاريخ الإسلام ، ولم يهتم المسلمون حتى فى العصور التى تلت صدر الإسلام والتى كثر فيها النقل عن المدنيات المجاورة ، بممارسة الرياضة على الوجه الذى عرفه الإغريق من حيث الأعياد الرياضية والبطولات فى مختلف الألعاب .

أما إذا نظرنا إلى الألعاب الرياضية من حيث هى تربية بدنية وحياة تأنف الترف والخمول والترهل ، وتدفع إلى النشاط المتجدد والحركة الدائمة وتبعث فى النفس قوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وضبط العواطف وحب الكفاح . فإنا نجد تاريخ الإسلام عامراً بالشواهد التاريخية التى تثبت أن العرب خاصة والمسلمين عامة كانوا يحيون حياة رياضية بالمعنى الواسع ، تلك الحياة التى تبنى الأجسام بناء جميلا رشيقاً قوياً تحتمل معه الصعاب وتذللها فتسمى لبلوغ المثل الأعلى فى الحياة .

والواقع أن الحياة التى كان يحياها العرب من أقدم العصور ثم فى عصور الإسلام هى حياة رياضية لا شك فيها . ولقد فرضت عليهم الطبيعة والبيئة نوعاً من الثقافة الرياضية والتربية البدنية ، لم يكن له مثيل فى البلاد المترفة

ذات الطبيعة المواتية والرخاء والدعة ، فإن طبيعة البلاد العربية الوعرة وجوها الجاف ، وعيشة القبائل الرحل ، وما تمتاز به من حياة حرة طليقة تعتمد على الرعى والفروسية والغزو ، كل ذلك جعل العربى يولد ويعيش ويموت فى بيئة كلها حركة ومخاطرة وكفاح . ولئن افتخر الإسبرطى بألعابه المختلفة وخبزه الجاف وصرامة تربيته فإن العربى يفاخره بألعاب الفروسية والسيف والثريد الأسمر ، وقسوة الطبيعة التى تهب القوى كل شىء وتحرم الضعيف من كل شىء .

ألعاب القوى :

وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مثال باهر لتلك الحياة الرياضية الفذة. فإن كتب التاريخ والسيرة النبوية تحدثنا بأنه عليه أفضل الصلاة والسلام انتزع من أمه « آمنة » ومربيته « بركة » ليجرى على سنة العرب من إرضاع أبنائهم فى الصحراء وتنشئتهم هناك لتشبع أجسامهم من هواء البادية الصافى النقى ، فتقوى رئاتهم وتصح أبدانهم . وتألف نفوسهم شظف العيش وخشونته ، فلا تميل إلى الترف والخمول والدعة . وهذه الحياة فيها من ضروب الرياضة الخفيفة كالجرى والسباق والقفز من فوق الصخور وما إلى ذلك ، ما يجوز أن نسميه (ألعاب القوى) وقد مارس النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحياة فى طفولته ، كما مارسها كل من ساروا على تلك السنة من أشراف العرب وساداتهم . وقبل البعثة النبوية بسنين عديدة كان عليه الصلاة والسلام يحيا حياة خشنة مرهقة ويقضى معظم أوقاته فى تسلق الجبال المكية الوعرة للوصول إلى غار حراء ، الأمر الذى يتطلب مرونة فى الجسم وقوة لا تواتى إلا كل من قضى طفولته وشبابه فى تمرينات رياضية وبيئة تنفر من الكسل والتراخى . وحتى فى أواخر أيام حياته كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على رياضة جسمه ، فقد ذكرت عائشة رضى الله عنها أن النبى سابقها فى الجرى فى أحد أسفاره فسبقها مرة وسبقته أخرى .

الجمباز :

وفى الإسلام رياضة أخرى تشبه (الجمباز) فى العصر الحديث وإن تكن فى صورة مصغرة ، ونعنى بها الصلاة التى كتبت على المؤمنين « **كتاباً موقوتاً** »(١) فالصلاة — فضلا عن كونها عماد الدين وفرض من أهم فرائضه رياضة جمبازية خفيفة تفيد الجسم جداً لو أديت على وجهها الصحيح ، فهى وقوف وركوع وسجود وجلوس على العقبين فى حركات منتظمة يستغرق كل منها وقتاً يطول ويقصر حسب ما يتلى فيها من الآيات والدعوات والتحيات وفى تكرارها بعد كل أذان خمس مرات فى اليوم والليلة ، تنشيط للجسم والدورة الدموية — قال الله تعالى فى سورة البقرة « **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** »(٢) وفى سورة هود « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل** »(٣) .

الفروسية :

وركوب الخيل (الفروسية) رياضة إسلامية هامة لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من الشعوب لم يهتم بها اهتمام الإسلام . ويكفى أن الله شرفها بالذكر فى كتابه العزيز إذ قال : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** »(٤) وقال : « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** »(٥) وقال : « **إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد** »(٦) وأكثر من ذلك : أن الله عز وجل شرفها بالقسم إذ قال « **والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا . إن الانسان لربه لكنود** »(٧) .

وتحدثنا كتب السيرة النبوية أن النبى صلى الله عليه وسلم كان سيد الفرسان فى عصره . وقد سمع ذات يوم بنبأ هجوم مفاجىء فقفز فوق فرس غير مسرج ولا ملجم وراح يعدو به والصحابة من خلفه يعدون .

---

(١) النساء : ١٠٣ — (٢) البقرة : ٢٣٨ — (٣) هود : ١١٤

(٤) الأنفال : ٦٠ — (٥) النحل : ٨ — (٦) سورة ص : ٣١

(٧) العاديات : ١ — ٦

ومن أقواله عليه الصلاة والسلام فى الخيل : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وهو يعنى بالخير **آداب الفروسية وما تغرسه فى النفوس من الشجاعة والشهامة والنبل** . وجاء رجل ذات يوم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم « إنى أريد أن أعد فرساً » فقال عليه الصلاة والسلام «فاشتره إذن أدهم (أسود) أو كميتاً (بين الأسود والأحمر) أقرح (أتم خمس سنين من عمره) أو محجلا (أبيض القوائم تجاوز البياض أرساغه) مطلق اليمين فإنها ميامين الخيل » ، وقال : « عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حرز وبطونها كنز » ، وكان صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيول الشقر ويقول : « لو جمعت خيول العرب كلها فى صعيد واحد ما سبقها إلا الشقر » . وكان يكره من الخيل الشكال (أن تكون ثلاث قوائم محجلة والواحدة مطلقة أو العكس) .

وكان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليمنى وبيده اليسرى أذن فرسه اليسرى ويثب فوقها فكأنما ولد على ظهر فرس .

ومما وصف به العرب الخيل قولهم عن الجواد الجيد : (إن تركته نعس وإن حركته طار) ... وقولهم عن أحب الخيل : (الذى إذا استقبلته قلت نافر ، وإذا استعرضته قلت زافر ، وإذا استدبرته قلت زاجر (أى عظيم الكفل ممتلئه) . وأرسل مسلم بن عمرو ابن عم له إلى الشام ومصر لشراء خيل له فقال ابن العم : (لا علم لى بالخيل) فقال : (ألست صاحب قنص؟) قال : بلى . قال : فانظر كل شيء يستحب فى كلب الصيد فاطلبه فى الفرس . فاشترى خيلا لم يكن فى العرب مثلها .

ولو أننا استرسلنا فى ذكر الخيل وما وصفت به طوال العصور الإسلامية لاحتجنا إلى فصول طويلة ، فقد عنى بها العرب والمسلمون أكبر عناية وأطلقوا عليها من المسميات شيئاً كثيراً جداً ، حتى أنهم لم يدعوا عضواً من أعضاء الفرس ولا ظاهرة من ظواهره إلا وصفوها وسموها . وفى كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة و (أبيات المعانى) فى وصف الفرس

و (أدب الكاتب للمؤلف نفسه) وغير ذلك من المؤلفات سجل كبير لمن أراد التوسع .

وكانت الخيل تتخذ فى السلم رياضة للعدو بمختلف أنواعه والقفز والسباق واللعب بالسيف والرمح والجريد ، وفى الحرب مركب قتال وكانت لهـا أنساب كأنساب الشرفاء قد تمتد إلى أكثر من عشرة بطون .

الصيد والقنص :

رياضة قديمة جداً وكان لها فى تاريخ الإسلام شأن يذكر .

وممن اشتهروا ببراعتهم فى صيد الغزلان من المسلمين حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة والأنصار . وقد ورد الصيد والقنص فى القرآن الكريم وأولع به من الخلفاء عدد كبير ، وكان بعض خلفاء مصر من الفاطميين كالعزيز يصطادون السباع فى البرارى وكانوا يصطادون راجلين أو على جيـادهم بالقسى والنشاب والرماح ويصطحبون كلاب الصيد والصقور ولهم فى ذلك أخبار وأشعار كثيرة .

وقد قالوا : إن علامة سرعة الكلب أن يطول مابين يديه ويقصر ظهره ، وكثيرا ما كان الصيادون يعمدون إلى الحيل فى اصطياد السباع إذ كانوا يحفرون لها آباراً فوق التلال ويغطونها بالأعشاب لتسقط فيها . وكانوا يقطعون السمك الكبير ثم يشرحونه ويلقونه فى النار حتى تفوح رائحته لاجتذاب السباع ثم يطرحون إلى جوار النار قطعاً من اللحم ممزوجة بالخربق الأسود (نوع من السم الخفيف والأفيون) حتى إذا أقبلت السباع أكلت منها فتخدرت فاصطادها الصيادون بدون مخاطرة أو مجهود يذكر . أما فى صيد الغزلان فكانوا يطلقون الكلاب خلفها ، حتى تخور أو يصيبها الصياد بنشابه . ومما يدل على عناية الخلفاء بكلاب الصيد أن الحاكم بأمر الله الفـاطمى أصدر فى سنة ٣٩٥ هجرية أمراً بقتـل جميع الكلاب فى القـاهرة ما عدا كلاب الصيد .

الصواجة :

وهى رياضة تشبه (البولو) شبهاً كبيراً وهى أصل لها بلا جدال . وقد اقتبسها العرب من الفرس . وكان الخلفاء والوزراء والكبراء يمارسون تلك الرياضة اللذيذة على ظهور جيادهم فى ميادين خصصت لذلك . وكانوا يقيمون لها مباريات وصفها بعض الشعراء وصفاً دقيقاً . ومن قواعدها المعروفة إذ ذاك أن يضرب الفارس الكرة ضرب خلسة يدير فيه يده إلى أذنه ويميل صولجانه (مضربه) إلى أسفل من صدره ويكون ضربه متفرقاً مترسلا ، وتوخى الضرب تحت مخرم الفرس (حزامه) فى رفق واحتراس من عقره أو إيذاء من جرى معه فى ميدانه وحسن الكف للفرس فى شدة جوية وضبط حركاته والتوقى من الصدمات والسقوط ومجانبة الغضب والسب إلى غير ذلك من قواعد اللعبة وآدابها . وكان عرض ميدان اللعب ستين ذراعاً وحوله جدار يجلس عليه المتفرجون ولقد كان لمصر نصيب موفور من هذه الرياضة وخاصة فى عصر الفاطميين إذ ألحقت ميادين الصوالجة بالقصور وكان الخلفاء يلعبون فيها فى أوقات متقاربة جداً لفرط ولعهم باللعبة.

السلاح :

وهنا أيضاً نجد أنفسنا إزاء رياضة إسلامية مجيدة كان لها فى تاريخ الإسلام شأن خطير . ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم سيافاً من الطراز الأول ويكفى السيف أنه لعب هذا الدور الخالد فى تاريخ الإسلام ، ويكفيه فخراً أن خالد بن الوليد سمى « سيف الله » وأن السيف كان ثالث ثلاثة : الإسلام أو الجزية أو السيف .

وأخبار السيف فى تاريخ الإسلام أكثر من أن تحصى ، لذلك نقتصر هنا على ذكر طرف مما يقتضيه المقام .

غزوة الخندق ضرب الزبير بن العوام عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس قالوا «ما أجود سيفك» فغضب ؛ يريد أن العمل ليده وبراعته لا لسيفه

قال أحد الشعراء :

وما السيف إلا كالنجاد لزينة
إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب : (أخبرنى عن السلاح) قال ... سل عما شئت : قال : الرمح ؟.. قال : أخوك وربما خانك. قال : النبل ؟ قال : (منايا تخطىء وتصيب) قال : الترس ؟ قال : (ذلك المجن وعليه تدور الدوائر) قال : الدرع ؟ قال : (مثقلة للراجل متعبة للفارس وإنها لحصن حصين) قال : السيف ؟ قال : (ثم ...) أى أن السيف أفضل من الجميع .

ومن عناية العرب بالسيف إطلاقهم عليه أسماء كثيرة كالحسام والمهند واليمانى الخ ...

وقيل فى آداب العرب (لا شىء أسرع من حد سيف) .

ولقد كانت المبارزة بالسيف شائعة عند المسلمين فى السلم والحرب وكانت لها قواعد دقيقة وآداب اشتهر بها أناس كثيرون وكانت مبارزات شبيهة بمبارزات الـ Sabre الآن لأن المبارزة بالنصل لم تكن معروفة فى أوائل عصر الإسلام . وإن كان من المرجح أن عرب الأندلس اقتبسوها من جيرانهم الإيطاليين .

قذف الرمح :

أما الرمح فكان يقذف بنفس الطريقة المتبعة الآن : وكان يحمله الراجل والفارس . ويستعمل فى السلم كأداة للصيد وإصابة الهدف ، وفى الحرب للطعان . وكان ذا لونين أسمر للعقب ، وأزرق للسنان . قال الطائى فى وصف الرماح :

مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القضفا

والقضف يعنى : النحافة . .

وقال دعبل يصف رمحه :

وأسمر فى رأسه أزرق مثل لسان الحية الصادى

رمى النشاب عن القوس :

وتلك أيضاً رياضة للسلم والحرب برع فيها العرب براعة فاقت ما عرف عن الروم والفرس . ولقد كانت فى قبائلهم قبيلة يسمى أفرادها (رماة الحدق) أى أنهم كانوا من فرط براعتهم فى الرمى عن القوس يصيبون حدقة العين عن بعد . وكان العرب يعلمون أولادهم الرمى عن القوس فى طفولتهم فيشبون على ممارسة هذا الضرب من ضروب الرياضة ويتخذونه أداة للصيد والقنص فى وقت السلم ، وأداة من أدوات الفتك فى زمن الحرب وقد جعلوا له قواعد مرسومة . منها إمساك القوس باليد اليسرى بقوة العضد الأيسر والنشابة باليد اليمنى وقوة العضد الأيمن ، ويضم الرامى كفه إلى صدره ويلقى ببصره إلى معلم الرمى (الهدف) وإجادة نصب القوس بعد أن يطأطىء الرامى من سيتها بعض الطأطأة ، وضبطه إياها بثلاث أصابع وإحناؤه السبابة على الوتر وضمه الثلاث ضماً ، وتحويله ذقنه إلى منكبه الأيسر وإشرافه رأسه وإرخاؤه عنقه وميله مع القوس ، وإقامته ظهره وإدارته عضده ، ونزعه الوتر إلى أذنه من غير تحويل لعينيه أو ارتعاش من يديه أو ارتعاش جسده .

***

شرائع الاسلام

تبنى الأسرة وتقيم الزوجية

من مفاخر الإسلام أنه حرم الزنا ، فالزنا عدوان على ملك الغير، واغتصاب . فإما أن يكون الزنا بامرأة ذات زوج ، فيدخل على زوجها مولود ليس من دمه ، يقتضى الزوج حقوق بنوة غير صحيحة أصلا ، ويرث فى تركته بعد موته ، وإما أن يكون بغير ذات زوج، تقتل وليدها غير الشرعى أو تلقيه فى الطريق فينشأ محروماً من الحنان والعطف ، محروماً من التربية والتقويم وربما أصبح زعيما لقطاع الطريق ، أو عضواً فى عصابة سفاحين قتلة ، إجابة لثورة نفسه ضد مجتمع لم يؤد له حقوق رعايته صغيراً ، وقد يتزوج هذا المولود أخته من أبيه الزانى وهو لا يعلم . . ! ! وذلك قبيح فى الذوق قبيح فى الطب . إذا لم تأخذ بقبحه فى الشرع . . .

والعرض فى ذاته ، حتى لو لم يؤد الزنا إلى ثمرة غير مشروعة، ثروة معنوية ومظهر لشرف المرأة ، فاغتصابه بطريق الإغراء ، أو تحت تأثير الحاجة ، أو بانتهاز فورة شهوية عند المرأة ، كل ذلك من أبواب الغصب . والذوق الأخلاقى يمجه أيضاً ويستقبحه . والشرائع كلها تمجه كذلك وتسترذله فتحريم الإسلام للزنا واشتداده فى عقوبة الزانى ، هو الحجر الوطيد الأول فى بناء الأسرة .

أباح الإسلام للرجل أن يستمتع من المرأة بكلها، بجسدها وبخدمتها له وبنسلها منه وأعطى المرأة مقابل هذا ثمناً(1) أو ما يشبه الثمن .

---

(1) الحديث : ما صدقتم عليهن فيما استحللتم فروجهن .

شكون المقايضة المشروعة قائمة ، أعطاها الصداق والنفقة على كسوتها ومسكنها ورعايتها فى مرضها وكهولتهاوشيخوختها ووثق العلاقة الزوجية برباط روحى رفيع .

وكانت المرأة قبل الإسلام متاعاً فى البيت لا رأى لها فى الزوج ولا اختيار ، بل يفرض عليها دون ملاحظة أى اعتبار .

كانت تورث فى تركة زوجها ولمن ورثها أن يتزوجها بغير صداق جديد وأن يزوجها لسواه فتصوروا كيف يقع فى الذوق أن يتزوج الولد امرأة أبيه . وهى له فى حكم الأم من وجوه عديدة . وأن يتزوجها بالميراث أقبح وأوقح !

وكان للرجل أن يجمع الأختين فى فراش واحد !! .

وكانت المرأة لا ترث فى تركة زوجها ، والأطفال مثلها لا يرثون ولا يجوز لها التملك . ولزوجها التصرف فى مالها بدون إذنها ، وهذا ما كان عليه القانون الفرنسى إلى فبراير سنة ١٩٣٨ .

وكانت البنت تدفن حية عند ميلادها .

وكانت زيادة النساء على الرجال بسبب الحروب والغارات أعظم ممهد لتسود الطبيعة الحيوانية غير المهذبة ولتنطلق ، أى أعظم باعث على انتشار الزنا .

***

كان كل هذا بعض ما تضار به المرأة قبل الإسلام .

ولم يكن للمرأة وضع اجتماعى أبداً ونعنى بالمرأة الفاقدة الوضع الاجتماعى جنس المرأة فى العالم فالمرأة الأوروبية قبل الإسلام ، كانت أمه ورقيقاً ومتاعاً حيوانياً . فنقل القانون الرومانى عن التشريع الإسلامى بعض حقوق المرأة ولولا شريعة الإسلام لبقيت المرأة الأوروبية الحاضرة

غير بعيدة كثيراً عن أمها الغابرة .جاء الإسلام فأدب المرأة بتعاليم خاصة وكفل لها حقوقاً واسعة وأوصى بها ورفع من شأنها وحررها من أسارها وحث على تعليمها وتزويجها بمن تختار لنفسها وفعل غير هذا كثيراً لأجلها .

ورفع عنها مهانة أن تورث بعد وفاة بعلها، ومنع مهانة الزواج كرهاً من ابن زوجها ، وأرضى غريزة المرأة فحرم الجمع بين الأختين وصان حياء كلتيهما . وجعل لها الحق أن ترث زوجها وأبناءها وحرم إكراهها على البغاء ، وحرم دفنها حية . ومنحها حرية التملك وحق التصرف فيما تملك وقبل شهادتها فى المحاكمات حتى فى حدود الله وفى القصاص، وقبل شهادتها منفردة ، وحكم بمقتضى هذه الشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام إعلاء لشأن المرأة مشيراً إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» (مصغر حمراء) .

ونظم الإسلام (الخطبة للزواج) فشرع للرجل أن ينظر إلى وجه خطيبته وكفيها أكثر من مرة والوجه مقياس الجمال الجسدى ومظهر جمال الروح ، فإن العينين كما هو معروف ، تنبئان عن الروح والخلق ، وتقسيم الوجه منبىء كذلك ، والكفان مقياس صادق لجمال الجسد من حيث النعومة والخشونة والدقة والفرطحة وغلظ الأصابع ونحافتها وطولها وقصرها وبروز العروق فى ظهر اليد أو اختفائها..إلى آخر صور القياس .

---

(١) فى الصحيحين عن عقبة بن الحارث :أنه تزوج أم يحيى بنت أبى إهاب ، فجاءت أمة سوداء فقالت :قد أرضعتكما (أى أن زواجهما غير جائز شرعاً)فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنى : قال : فتنحيت فذكرت ذلك له : قال : فكيف وقد ذكرت أن قد أرضعتكما ؟ فأخذ الرسول بشهادة الأمة السوداء منفردة ، وأبطل هذا الزواج .

وفى السنة أنه إذا لم يستطع النظر إليها بعث امرأة أمينة يثق بها لتنظر إليها وتصفها له لأنه صلى الله عليه وسلم « بعث أم سليم إلى امرأة وقال انظرى عرقوبيها(١) وشمى عوارضها » . وكفل لها مقابل ما تمنح كما قدمنا . ثم أقام العلاقة الزوجية بعد ذلك على أسس من التراضى والتراحم والمحبة وتبادل النفع وكفالة الحقوق وصيانة الكرامة. ولم يترك الإسلام حالة من الحالات النسائية إلا وضع لها حكماً وشريعة تنصف المرأة . **قال القرآن فى المرأة الوارثة يمتنع وليها عن تزوجها أو يمتنع عن تزويجها طمعاً فى ميراثها** ، وفى الأطفال الوارثين وعليهم ولى يتصرف فى مالهم ، وفى المرأة اليتيم ، من حيث الميراث والصداق **« ويستفتونك فى النساء ، قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً »**(٢) .

وقال فى تنظيم علاقة الزوجين وإنصاف الزوجة :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (٣) وقال فيها المفسرون إن توقعت منه تقصيراً فى نفقتها ؛ لبغضه لها وطموحه إلى سواها ، أو نشوزاً عن فراش زوجيتها أو إعراضاً بوجهه عنها ، فليتصالحا على اتفاق يستبقيان به عشرتهما فإن لم تقبل النزول عن بعض حقها ، التزم الزوج راغماً بأداء كل تلك الحقوق وقالوا : وإن تحسنوا عشرة النساء وتتقوا الجور عليهن يجازكم الله خيراً بما عملتم . وكان الزوج إذا أراد أن يتخلص من زوجته أساء عشرتها لتفتدى نفسها منه

---

(١) أثبت الطب الحديث علاقة بين صفتى تكوين عرقوبى المرأة وبضعها .
(٢) النساء : ١٢٧ (٤) النساء : ١٢٨

بما مهرها أو بإبرائه من مؤخر صداقها ونفقة اعتدادها ، فحرم الإسلام ذلك واستثار كرامة الرجل فى هذا الصدد فقال القرآن : **« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلاتأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً »** ؟ ! (١) :

وطلب القرآن إلى أهله ،أنه إذا كره الرجل منهم امرأته فليعاشرها بالمعروف فعسى أن يجعل الله له فى ما كره خيراً كثيراً كأن تلد له ولداً باراً به .

حيث قال : **« فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »** (٢) .

وقال القرآن فى إنصاف النساء **«ولهن مثل الذى عليهن»**(٣) فلم يجعل وضعها وضع المكلف بالواجبات فقط ، بل أوجب لها حقوقاً مثل الذى عليها من الواجبات وقد أباح لها أن تتخذ مكان الرجل فى أهم أركان عقد الزوجية بأن يكون لها هى حق التطليق إذا رغبت فيه .

والإسلام فى صيانة كرامة المرأة وحقوقها ، وتنظيم علاقتها بالرجال فى الزوجية وفى غيرها ، قد أنصفها وكرمها ورعاها .

تهذيب الإسلام للنساء : وضع الإسلام للمرأة آداباً توافق فطرتها. وتكمل بها وتزيد بها فتنتها وإغراؤها وتنضج بها أنوثتها وتشرف وتعز بها أعراضها **« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ،ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن**

---

(١) النساء : ٢٠ ، ٢١ — (٢) النساء : ١٩

(٣) البقرة : ٢٢٨

أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء»(١) .

وهذه الآداب والتعاليم كفيلة بأن تجعل المرأة فى عين الرجل شيئاً جذاباً جميلا مطلوباً محتاجاً إليه ممنوعاً عليه إلا بالوسيلة الوحيدة المشروعة فيفشو التزاوج وتنحل أزمته التى تعانى منها مصر وغيرها أشد الويل الأخلاقى والاجتماعى . أما مخالفة هذه الآداب فقد عرفنا ما أدت إليه من نتائج وما جلبت على النساء من سقوط مكانتهن وعدم الإحساس بالحاجة إليهن زوجات ، وعدم الاطمئنان إلى صلاحيتهن للمنازل .

قوامة الرجل على المرأة : قال الذين يلغون فى الإسلام ويمارون فيه : لكنكم فى إسلامكم تورثون المرأة نصف الرجل وتبيحون له أن يضربها .

أما توريث الرجل ضعفها ففخرة من مفاخر التشريع الاقتصادى فى الإسلام ، فإن الرجل ملزم بأن ينفق عليها ويقضى كل حاجياتها ، وعلى أولاده منها ، وهو الذى يستثمر المال الموروث ، أما هى فلم تهيأ للعمل ولا للاتجار والاستثمار . ثم إن استبقاء الثروات فى العشيرة وفى الإقليم وفى الدولة ، وهو مبدأ اقتصادى حديث تحرص الأمم والدول الكبرى عليه لحيويته بالنسبة لوجودها ، يستلزم أن يرث الرجل ضعف المرأة . فإن ورثت المرأة كالرجل ضاعت الثروات بعوامل منها :

(١) أنها لا تحسن استثمارها . بل ستبددها بالإنفاق .

(٢) أنها قد تتزوج أجنبياً عن قومها وعشيرتها ، فله التصرف بمالها عادة برضاها وإذنها فلا ضمان لبقاء المال فى الدولة وعدم خروجه إلى يد أجنبية قد تعين قومها ضد قوم الزوجة .

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١

(٣) ثم إن نفقة المرأة ليست محمولة على نفسها ولكن على الرجل، على زوجها وعلى غيره أباً أو أخاً أو طليقاً أو أبناء عم ونحوهم. لها فى عنق كل أولئك نفقة يؤديها أيسرهم وأقدرهم على أدائها بحكم الإسلام. وكلف الإسلام المرأة بكل شيء كما كلف الرجل فساوى بينهما فى أهم مظاهر المساواة .. وإن لم يكلفهن بالجهاد فقد أباحه لهن . وقال القرآن حين قالت أم سلمة: « ليتنا كنا رجالا فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال: **« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن»**(١) فاعتبر القرآن فى شريعته أن طاعة الرجال بالجهاد وهو أعظم الطاعات ، تساويها طاعة النساء بحفظ فروجهن وإرضاء أزواجهن وتربية أولادهن ومثل ذلك .

أباح الإسلام للرجل أن يضرب ضرب التأديب وأوجب معاقبته إذا ضربها ضرب التبريح والإيذاء . ولا يستطيع إنسان يعقل أن يعترض على هذا الحق المترتب على ولاية شرعية ، لا ترجع مشروعيتها إلى حكم الإسلام فقط ولكنها ترجع إلى استحسان العقل والفطرة ، واقتضاء النظام الاجتماعى .

فإن هذا الحق الذى للرجل على المرأة ، يقابله حق لها ، هو أن يقوم القاضى بتأديبه إذا جافاها فى المضجع . وغير ذلك من وجوه الإخلال بواجباته . فولاية الوالى على الرجل ، نظير لولاية الرجل على المرأة .

الطلاق فى الإسلام :

أما الطلاق الذى يأخذون على الإسلام إباحته ، ففخرة عظمى لهذا الدين العظيم ، وتنظيم تقتضيه طبيعة التعاقد الزوجى .

فإنه لايباح إلا بشروط وفى حالات تتعذر معها الحياة الزوجية وكل

---

(١) النساء : ٣٢

صلة أو تعاقد ، إن لم يكن سبيل إلى فصمها والتحلل منها عند تعذر التوفيق كانت قيداً وغلا .

والطلاق قد يكون لصالح المرأة ، أكثر مما هو لصالح الرجل .

فهذه المرأة التى يغيب عنها زوجها ، فتفقد بغيابه الطويل المنقطع (فى سفر أو سجن أو غيرهما) أول أركان الزوجية وهو ركن المعاشرة الجنسية كيف تريدها أن تبقى معلقة ، إن عاشرت آخر رجمت حتى تموت ، وكيف يمكن استبقاؤها على الامتناع عن المباشرة الجنسية وهو مخالف للطبيعة والفطرة ؟!!

وهذا الرجل المعدم الذى لايستطيع الإنفاق على امرأته ،كيف تريدونها أن تبقى فى كفالته. ولاتنهى الصلة القائمة بينه وبينها مع انعدام ركن الإعاشة ، وهو أساس من أسس الحياة الزوجية .

وهذا الرجل المجنون مثلا . يقال فيه كذلك .

وهذا الرجل العنين الذى يعتبر كأنه ليس زوجاً .

وهذا الرجل الأبخر الذى تتأذى امرأته برائحة فمه — وغير ذلك ومثل ذلك كثير •

ومع هذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الموضح لمجمل التشريع يقول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وقد نص ابن عابدين فى حاشيته وهى من أهم مراجع الفتيا والقضاء الشرعى ، على أن الأصل فى الطلاق أنه حرام . وأن الإباحة إنما طرأت على حكم تحريمه للحاجة إلى الخلاص • فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعاً ، يبقى على أصله من التحريم • وهذا الحكم مأخوذ من قوله تعالى : « **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** »(١) .

(١) النساء : ٣٤

وقد نص الفقهاء على أن المكثر من الطلاق فى حكم الزانى ، لأنه يعدل بذلك عن الغاية من تشريع الزوجية إلى أن يتلذذ بالنساء ويذوق طعم كل منهن ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الصنف من الناس: « لعن الله الذواقين والذواقات » .

والطلاق فى الإسلام مع كل ذلك يستتبع التزامات ومسئوليات فهو ملزم للمطلق بمؤخر صداق ،ونفقة اعتداد ونفقة استبراء من الحمل . ونفقة إرضاع المولود إن ثبت حملها ، أو كان وليدها لم يفطم .

ومن حكمة التشريع الإسلامى أنه يشترط وقوع الطلاق فى طهر ، أى بعد الحيض ، فربما كان حيض المرأة وما يوجبه من رثاثة منظرها باعثاً على نفرة الزوج ، فيعيد إليها الطهر دواعى استئناسه بها وميله إليها .

ومع كل ذلك أيضاً ، شرع الإسلام ، مايعفى على أثر الطلاق الذى لايحبه والذى أباحه للضرورات ، فأباح المراجعة بين الزوجين ثلاث مرات .

ولا يجيز الإسلام طلاق السكران ولا المجنون ولا المكره ومثله المتورط ومن فى حكم هؤلاء .

ويحرم الإسلام على ولى المرأة أن يمنعها من العودة إلى طليقها إذا أراد مراجعتها ووافقت .

تعدد الزوجات فى الإسلام :

عرضنا للقراء بعض الحالات الزوجية التى تستلزم فصم علاقة الزواج وبينا أنه يكون جحيما إذن لا زواجاً . إذا عرضت إحدى تلك الحالات ثم لم يكن فى الشرع علاج لها .

وبرهنا على أن الطلاق موضوع علاجاً فقط ، تقتضيه ضرورات . وهو مكروه فى ذاته عند الشريعة وعند واضعها سبحانه وتعالى .

فماذا فى تعدد الزوجات الذى زعموه حيوانية وشهوية يطلق لها الإسلام حبلها ، ومظهراً من مظاهر استثارة غرائز الغيرة فى المرأة وإضعاف شأنها؟

لدينا الحالات الآتية أسألكم لها علاجاً فإن وجدتم غير التعدد فلن أكون مسلما ، وإن كان التعدد أجمل وأكرم وأصون لها فاعلموا أنه لهذا أنا مسلم :

١ — أمة كمصر زاد عدد إناثها على ذكورها (وفق إحصاء سنة ١٩٣٧) زيادة تقرب من ربع مليون امرأة .. أين تذهب النساء الزائدات ، بفرض أن غير الزائدات قد وجدن جميعاً أزواجاً وهذا لم يحدث فإن حركة الزواج راكدة كما نشاهده فى بلادنا بأنفسنا .

٢ — تزوج رجل امرأة ثم مرضت مرضاً مزمناً أو مرضاً معدياً . فمنع ذلك من قيام المباشرة الجنسية بينهما ... فماذا يفعل ؟ يطلقها وقد لايكون لها عائل سواه ، أم يمسكها ليقوم على رعايتها ويتخذ أخرى سليمة مستعدة لأداء وظيفتها الجنسية .

٣ — رجل سوداوى المزاج (يميل بجبلته) إلى مباشرة امرأته كثيراً . ماذا يفعل أيام حملها وحيضها ونفاسها ومرضها ؟ هل يزنى ؟ أم يتخذ أخرى تسد هذا الفراغ فى بناء زوجيته وتقيم الركن الأول لها .

٤ — رجل تزوج امرأة لا تميل إلى المباشرة الجنسية إلا كل شهر مرة وفى أيام برئها من الحيض والنفاس والحمل ، هل يزنى مع أخرى فتكون النتيجة أخطر شر يسهل على القارىء تصوره ؟ أم يتزوج بدل أن يزنى ؟ إذ لابد له من إحدى الحالتين : الزنا ليرضى غريزته الجنسية ، أو تعدد الزوجات ليرضيها إرضاءاً مشروعاً .

٥ — رجل تزوج امرأة ثم اتضح أن لا ملاءمة تناسلية بينهما ، بأن كان عضو التناسل فيه فوق ما يطيق تشريحها التناسلى أو كان الأمر بالعكس وكانت امرأته متعلقة به أو فقيرة أو يتيمة أفيمسكها ويتزوج غيرها ، أم يرسلها إلى الشوارع تقتات بعرضها ؟

وهناك غير ذلك من موجبات التعدد .

***

هذه جوانب من حكمة مشروعية التعدد فى الإسلام ؛ ترونها لاتفوقها حكمة . ومع ذلك كله فالإسلام لا يبيح التعدد على إطلاقه . ولكن بشروط وقيود .

أن لايزيد العدد على أربعة ، أن يضمن الرجل ويتأكد أنه يستطيع العدل بين زوجاته حتى فى القبلة وحتى فى نوع الابتسامة .

أن يكون ذا يسار يمكنه من الإنفاق عليهن وعلى أبنائه منهن .

فإذا توفر فى الرجل هذا ، مع قلة عدد الرجال ، ثم مع قلة عدد الراغبين ، أفيكون خيراً للمرأة أن تنال ربع زوج أم يكون الأجمل بها أن لا تنال شيئاً ، فتظل غريزتها الجنسية تصرخ وتدفع بها إلى السقوط ، وتظل حاجات حياتها بلا قوامة عليها ولا تلبية لها . ؟

لو حرم تعدد الزوجات لكانت حالات كالتى ذكرناها من زيادة عدد النساء على الرجال وعدم إقبال الرجال على الزواج بسبب عوامل منها الاقتصادية ، والاجتماعية ، سبباً فعالا فى تدمير المجتمع وتقويض أركانه وإشاعة الإباحة فى نواحيه .

من كل ما استعرضنا من أنظمة الإسلام لبناء الحياة الزوجية نعلم أن الإسلام يبنى الزوجية على أوضح الحدود ويقيم الأسرة على وطيد الأسس ، والزوجية والأسرة نواة المجتمع العام وأولى أشكاله ، يصلح المجتمع بصلاحها .

. . . والله المستعان . . . وهو الموفق

***

محتويات الكتـاب

الصفحة

الصفحة

الباب الثـــالث

(١٠٧ — ١٤٢)

الباب الرابع :

(١٤٣ — ١٦٥)

الصفحة

الباب الخامس

(١٦٧ — ٢٢٨)

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٥١ / ٨١
الترقيم الدولى ١ ـ ١٢ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧